

المملكة العربية السعودية

بـعيون زوجة دبلوماسي

إيلفيرا أراسلي

دار غنماء للنشر، ١٤٢٣هـ. ©
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
أراسلي، إيلفيرا
المملكة العربية السعودية بعيون زوجة دبلوماسي/ إيلفيرا أراسلي.
الرياض ١٤٢٣هـ.
٤٢٧ ص، ١٤، ٨٥ سم × ٢١ سم
ردمك: ٩٩٦٠-٤٣-٦٤٧-٠
١- السعودية - وصف ورحلات ٢- السعودية - تاريخ أ. العنوان
ديوي ٩١٥، ٣١ ٦٧٢٣/٦٧٢٣ ١٤٢٣هـ
رقم الإيداع: ٦٧٢٣/١٤٢٣هـ
ردمك: ٩٩٦٠-٤٣-٦٤٧-٠



مركز الفكر العالمي عن السعودية
Center for Global Thought on Saudi Arabia

الطبعة الثانية

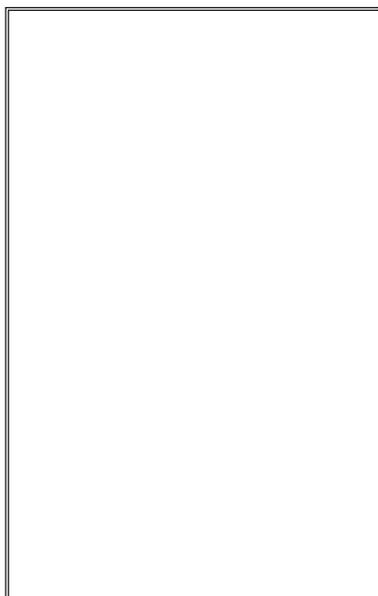
١٤٢٩ - ٢٠٠٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

٧	القدوم إلى البلاد والأعوام الأولى فيها
٣٥	ذكرى تأسيس الدولة
٧١	خواص الطبيعة
٩٣	البدو
١١١	الرياض عاصمة للمملكة
١٥٩	عالم الحيوان
٢٠٣	سوق الذهب وجولة في البادية
٢١٧	حفلة زواج
٢٣٩	دولة السعوديين الأولى
٢٦٣	العادات والتقاليد
٢٩٣	الحج
٣١١	قصة عائلتين
٣٣٣	منطقة الحجاز
٣٧٥	المنطقة الشرقية
٣٩٣	الحياة الدبلوماسية
٤٢٣	خاتمة

**القدوم إلى البلاد..
والأعوام الأولى فيها**



ربيع عام ١٩٩٤م اجتمعنا في شبه الجزيرة العربية، وقد عيّن زوجي إيلمان أراسلي سفيراً فوق العادة ومطلق الصلاحية عن الجمهورية الأذربيجانية لدى المملكة العربية السعودية، وكان متعيّناً علينا تأسيس أول سفارة لدولتنا المستقلة حديثاً في هذه البلاد.

وأقول الحق: إنني لم أكن راغبة البتة في المغادرة جواً إلى أي مكان كان فذلك معناه الفراق من جديد مع الأطفال وهجرة الدار. ولقد عشنا طويلاً في ديار الغربية وآثرت النفس الاستقرار أخيراً في الوطن.

وحتى ذلك الوقت كان زوجي قد أمضى في العمل الدبلوماسي في البلدان العربية قرابة عشرين عاماً. إلا أنني أعرف حق المعرفة أن الرحيل متوجب للعديد من الأسباب أو على الأقل تقديراً لسببين رئيسيين؛ فمن ناحية إرادة زوجي الذي لم يكن ليستطيع قط أن يتصور نفسه خارج نطاق العمل النشط في

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

الحيرة المبهمة لتلك الحقبة من الزمن وكان على أهبة الاستعداد لخدمة الدولة التي كانت تولد أمام الأنظار. ومن ناحية أخرى: - وأقولها دونما تواضع مصطنع - إن الدولة كانت محتاجة إلى متخصصين على هذا المستوى الرفيع.

كان شهر نيسان (أبريل) في باكو هذا العام بالغ الروعة. وقد هممتُ على وجهي متجولة بين الأزقة الضيقة للمدينة القديمة. واستنشقت الروائح الربيعية المطوية في زوايا النسيان، واستمتعت بلذة الدفء في أشعة الشمس التي لم تزدد حرارتها بعد، محاولة تسجيل هذا الانطباع على صفحة ذاكرتي. وتراءى أمام ناظري خيال المرحلة الجديدة غير المرئية بعد من حياتنا المشتركة. ولم أحرص على استشفاف المستقبل والتنبؤ بأحداثه؛ لعلمي أن ممارسة مثل هذا الأمر في أيامنا قضية ليست بالموفقة.

في حشدٍ وداعي من قبل جمع من الأصدقاء والأقرباء الذين يتمنون لنا السعادة وسلامة الهبوط، ارتقينا سلم الطائرة واتخذنا مقاعدنا في صالون إحدى طائرات الشركة الجوية التركية.

وكان لدوي المحرك واضطراب النفس الذي يصاحب بداية

السفر أثرهما في حفز الأفكار، ولم أستطع صرف ذهني عن التفكير بأن هذه الرحلة الجديدة إلى خارج الحدود تتميز على نحو حاد ومدesh عن جميع سوابقها، لا من حيث بلاد التوجه فحسب وإنما أيضاً لكون أنشطة زوجي هذه المرة سوف تتسم بمغزاها المغاير، وإنما ستكون ذات ارتباط على نحو مباشر بتاريخ دولتنا. وسواء شئنا ذلك أم لم نشأ ستغدو مرحلة ولو أنها غير كبيرة من هذا التاريخ. وبزغت حينئذ فكرة العزم على لزوم اتخاذ دفتر يوميات ليؤلف مستقبلاً منه كتاب، إذ من الذي سيمكنه فعل هذا الأمر إن لم أفعله أنا التي أمثل شاهداً حياً على تلكم الأحداث؟

لم تكن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة إلينا شيئاً قاصياً وغامضاً. زد على ذلك - كما سبق لي أن ذكرت - كنا قد أقمنا في البلدان العربية قسماً كبيراً من حياتنا الواعية واستطعنا - وبخاصة زوجي - تمحيص مشكلاته على نحو جيد، فقد قضى إيلمان أراسلي في مصر عامين وهو إذ ذاك مستعرب مبتدئ كان يعمل فيها مترجماً، ثم بعدئذ اقتصادياً أقدم في المثلثية التجارية للاتحاد السوفيتي بالقاهرة عمل لمدة سبعة أعوام حافلة في العراق خلال أزهر الأيام في رأيي من حياة هذه

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

البلاد، بل وفي حياتنا الخاصة كذلك، كان عمله في العراق المدير العام للمركز الثقافي السوفيتي والمستشار لدى سفارة الاتحاد السوفيتي، وعمل أيضاً لمدة خمسة أعوام بالرتبة نفسها في الأردن البلد الرائع الذي لا ينسى، وعمل أيضاً لمدة أربعة أعوام في اليمن الصعب. ولكن على أية حال الباقي في الذاكرة قد جعل منا لا أشخاصاً ذوي معرفة بخاصية هذا الجزء من العالم فحسب؛ بل أناساً عارفين ومهتمين بمصالح هذه الشعوب.

أما المملكة العربية السعودية فهي قضية أخرى. ونحن بالطبع قد تعرفنا على تلك الكمية غير الكبيرة من الكتب التي نشرت عندنا عن هذه البلاد. وتسنى لنا فيها استمداد معلومات شحيحة جداً ومتقدمة العهد جزئياً، وفي الكثير من الأمور متحيزة. ومن الطبيعي أن المملكة العربية السعودية مرتبطة في أذهان معظم الناس بالثروة المتراكمة، ولم أكن أنا أشكّل استثناء في هذا الباب. كنت أعرف أنها تشغل المرتبة الأولى في العالم من حيث احتياطي النفط واستخراجه وتصديره. ويمتلك مواطنوها واحداً من أرفع المقاييس من حيث المستوى المعيشي، وأنها لكونها مهد الإسلام ومهبط الوحي تؤدي دوراً بارزاً في الحياة الروحية للمسلمين أجمعين في العالم بأسره.

وأخيراً: فإن الموقع الجغرافي نادر النظير عند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا، أتاح لها السيطرة على أهم قطاع من ممر الاتصالات العالمي بين الشرق والغرب. وكان جلياً أن ذلك لم يكن بالكافي والشافي، ناهيك عن كون المعارف النظرية لا تعوض أبداً بوصفه بديلاً عن الانطباعات الحية، التي لم تكن متوافرة لدى أي واحد من أفراد البطانة المحيطة بنا، إذ إنه حتى وقت إرادة التغيير - التي أطلقت عليها تسمية إعادة البناء لم تكن للمملكة العربية السعودية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، ولم تكن لدى أي فرد سوفيتي أية فرص للوصول إلى هناك. على الرغم من أنه قبل هذا بأعوام عديدة قيّض لشخص حكيم - هو الصديق القديم لعائلتنا الأكاديمي غفوروف - أن يحلَّ بشكل ما غير مفهوم ولا مدرك على أرض شبه الجزيرة العربية، حتى إنه التقى الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود وحدثنا عندئذ بالكثير من الطريف والمستطرف.

وبعد تحليق دام أربع ساعات علا أثناءه صوت الدوي الرتيب من محرك الطائرة على وتيرة واحدة دائبة؛ أخذنا نشعر بالنعاس لا سيما وأن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. وكنت أتطلع على ندرة من كوة النافذة. ولم أكن أحرق إلا في ظلام دامس. وكان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ثلاثة أو أربعة من الركاب في صالون الدرجة الأولى يغطون في النوم. ودنا أحد الركاب من زوجي ودارت بينهما محادثة منعشة. وظهر أن رفيق السفر هذا هو رجل أعمال تركي يقوم بإحدى سفراته إلى المملكة العربية السعودية. وقد أبدى لنا هذا الشاب لاحقاً دعماً غير قليل وكان ضرورياً لنا جداً خلال المراحل الأولى من تأسيس السفارة.

أعلن عن قرب موعد الهبوط، ورنوت من جديد عبر الكوة ويا لها من معجزة! كانت الأرض كلها في الأسفل مخططة بالكثير من الخطوط المضيئة المتشابكة والمتقاطعة التي تشكل الشوارع والجادات والأزقة والميادين. وكان ذلك على جانب من الروعة المفاجئة عقب الظلام المطبق لعدة ساعات، القابض للنفس والمحيط بالطائرة، وفي الوقت نفسه بعث على التفكير بأن مدينة الرياض مدينة عصرية لا تقتصد في صرف الطاقة الكهربائية.

واستقبلنا المطار الرحيب بنفحة هواء باردة ومنعشة وطيبة الوقع على النفس وكذلك بترف غير متوقع. وسقفه المقبب متعدد الطبقات كان يشهق إلى فوق. والممرات والمعابر المقطورة والمزججة معلقة فوق تجمعات مائية فسيفسائية من الشلالات.

والماء ذو الخريز يسيل رقراقاً على الدرجات التي زرعت أو شتلت فيها الأشجار الحية دائمة الخضرة، ويستدل من الوريقات الطرية على كونها على أحسن ما يرام داخل الحيز المغلق والمستقوف. والجدران مزدانة بزينات هائلة ومحلاة بالرموز الإسلامية. وفي الأمكنة المفردة خصيصاً لأداء فريضة الصلاة فُرِشَتْ سجاجيد وأبسطة.

وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخراً من الليل؛ كان في الاستقبال ممثلو وزارة خارجية المملكة العربية السعودية، ورافقونا إلى صالة الاستقبال وهي مخصصة لضيوف الشرف. وعقب تبادل عبارات التحية التقليدية انخرط الرجال في محادثة حارة وساخنة. وانصرفت أنا إلى معاينة المكان الذي حللناه. وكان المدخل لصالة غير كبيرة أشبه ما يكون ببهو في أحد القصور، والأرضية مكسوة بسجادة عريقة، وقد صفت على حواف المبنى الكراسي الوثيرة المذهبة، والأرائك المصفوفة على الجانبين. وعلى المناضد الرخامية ذوات القوائم المصفورة وضعت مصابيح على شكل مزهريات براقعة تعلوها مظلات مسجفة بالقماش ينبعث منها ضوء خافت. وعلى الحائط مقابل الباب مباشرة علق في صف واحد أربع صور مرسومة

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

بالألوان المائية، أولها: تمثل مؤسس الدولة الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود، وثانيها: للعاهل الراحل الملك فهد ابن عبد العزيز، والأخرتان لأخويه ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبد الله، والأمير سلطان النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام للمملكة العربية السعودية. وكما ظهر لنا فيما بعد فإن هذه الصور خاصة هي اللوازم الأكيدة لتزيين واجهة الدوائر الرسمية وصلات التصوير الفوتوغرافي وحتى صالونات الحلاقة. والسعوديون يحبون زعماءهم.

وانتشرت في الجونكة مثملة قليلاً لرائحة البخور والروائح الشرقية. لم تكن ثمة نوافذ وشبابيك إلا أنه سُمقت في زوايا القاعة داخل براميل معدنية مرصعة شجيرات دائمة الخضرة، واستغربت أنتذ من كونها تستطيع النمو بهذا النشاط بدون ضوء النهار، ومع مرور الوقت لم أعد أستغرب رؤية النباتات الكثيفة والأشجار الديكورية. كما يبهرك مداخل المكاتب الرسمية الكبرى والمراكز التجارية ومخازن المبيعات والدارات الخصوصية وتكاد تشعر بالراحة التامة في أية إنارة. ناهيك عن محال بيع الزهور وهي في الرياض كثيرة الوجود.

ثم اقترب منا بدوي أسمر السحنة يرتدي دشداشة بيضاء، وهي ثوب طويل الذيل، وقدّم لنا القهوة العربية التي ظهر أنها تتميز كثيراً عن القهوة التقليدية، وهي مشروب ساخن لزج وشبه شفاف ذو لون أصفر غامق تفوح منه رائحة الهيل. وارتشاف القهوة له تقليد خاص، فهي تصب في فناجين صغيرة من دلة خاصة مصنوعة من النحاس أو الفضة ولها بلبله طويلة. وتحضّر القهوة على الفحم والرماد الساخن، وصبّاب القهوة يمسك في كف يده اليمنى ثمانية فناجين متلاسة تقريباً الواحد فوق الآخر، ويملاً كل واحد منها إلى النصف ويقدمها إلى الضيوف مبتدئاً بأعلاهم مكانة وأكثرهم توقيراً. ويعد الامتناع عن تناول القهوة مخالفاً للآداب وقواعد السلوك، إذ إن تقديم هذا المشروب الفائح بالنكهة العذبة يعني بالدرجة الأولى الترحيب. وإذا كنت غير راغب في المزيد منها ينبغي وضع السبابة فوق فوهة الفنجان وهزّه من جانب لآخر ثم إرجاعه إلى صبّاب القهوة. وليس بالمنظر المريح وضع الفنجان الفارغ فوق المنضدة.

وأخيراً بلغت المحادثة نهايتها، وتم تسلم الحقائق والأمتعة، وأصبحنا للمرة الأولى في الهواء الليلي الطري الطلق، ولكن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وصفه بالطراوة ممكن مع الفارق، ففي أوائل شهر نيسان (أبريل) حتى في ساعة متأخرة من الليل كان الطقس في ضواحي الرياض قائظاً حسب مفاهيمنا، وكما اتضح فيما بعد كانت درجة الحرارة زهاء ٣٢-٣٤ فوق الصفر المئوي، ولكنني أحسست آنذاك بسبب عدم الاعتياد عليها وكأنها أعلى من ذلك بكثير.

تحرك الموكب الذي يضم ثلاث سيارات صوب مدينة الرياض. إنها لجدُّ رائعة تعكس الضوء البرتقالي المشع لقناديل الطريق المرتفعة، وكان يمرق أمام النظر صفّان من الأشجار الكثيفة المقلّمة بعناية. ومن الانطباعات الأولى القوية التي أدهشتني في الرياض وجود هذه الخضرة الكثيفة في قلب البيداء! وبعدئذ اعتدنا بالطبع على أن المدن كافة - حتى ما كان منها في أكثر مناطق البلاد جفافاً وبيوسة - خضراء بما فيه الكفاية، وتنفق الحكومة على هذا الأمر مبالغ طائلة، إذ إنه مدّ إلى كل شجرة من هذه الأشجار جهاز خاص للري المقطر. وحدث بلا حرج عن غابات النخيل الكثيفة والمنتزهات العديدة ذوات النوافير ومساقط المياه.

وعقب أربعين دقيقة أوصلونا إلى البناية الشاهقة وهي عبارة

عن فندق فاخر مريح اسمه «قصر الرياض» وكان مستقرنا الأول في هذه البلاد.

وهكذا وجدنا أنفسنا في أراضي المملكة العربية السعودية، وكان ينتظرنا فيها عمل ضخم وشاق ومجهول ولكنه طريف في بلاد نادرة المثال ومنقطعة النظير. من أي شيء نبدأ؟ وكيف؟ بالطبع خبرة العشرين عاماً في العمل الدبلوماسي بالخارج متاع ثمين ونفيس وحقيقية ملأى. وما إن استقررنا حتى وضع أيلمان أراسلي أمامه على المنضدة ورقة بيضاء. ولكن كان الليل متقدماً وكنا نشعر بالتعب والإرهاق بصورة شديدة بسبب النهار الطويل لهذا اليوم. ويبدو أنه كانت تضغط علي كتلة ضخمة من الانطباعات بحيث إنني غفوت على الفور ولم أشاهد كيف سجل زوجي بخط دقيق على الورقة الخطوات الأولى اللازمة لسفارتنا التي لم تكن قد أسست بعد. وعند استيقاظي صباحاً لم أفهم في الحال أين أكون. كان زوجي غائباً. رنوت إلى زجاج الشباك فشاهدت جزءاً غير كبير من ساحة بيضاء - بسبب سطوع أشعة الشمس - وجرداء بشكل مطلق. وبعد ذلك اعتدنا ولم نعد نستغرب أو نتعجب عندما نقطع بالسيارة لمدة ١٥-٢٠ دقيقة أحد شوارع المدينة فلا نشاهد أحياناً ولو شخصاً واحداً

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

يسير في الطريق. ولا يمكن ملاحظة تجمع الناس إلا في الأسواق وقرب مخازن المبيعات والمراكز التجارية.

وأعتقد أن الرياض إحدى المدن القليلة في العالم حيث لا أثر تقريباً لمعابر المشاة في شوارعها. وما من حاجة إليها، وذلك لأن الناس جميعهم ينتقلون راكبين. على الرغم من أن نقلات المدن فيها معدومة باستثناء سيارات الأجرة. وعلى ندرة يلوح السيل المتدفق من الحافلات الصغيرة، ولكن لم تقع عيني قط على أي موقف للحافلات. ويستخدم مواطنو المملكة العربية السعودية في أغلبيتهم الساحقة سياراتهم الخصوصية.

أما الأجانب فيكفل لهم هذا النوع من وسائل النقل ربُّ العمل وللعلم فإن هذا الأمر بند إلزامي في أي عقد. أظن أن ظروفًا كهذه يملئها بالدرجة الأولى - أكثر من غياب نقلات المدينة واتساع المدينة الكبير - الطقس الصارم في المملكة. وفي الصيف عند بلوغ الحرارة ٥٥ درجة مئوية في الظل ليس من السهل اليسير الانتظار في موقف للحافلات. وجميع السيارات بما فيها الأجرة مزودة بمكيفات الهواء. والرياض في الأرجح المدينة الوحيدة التي لا تقع العين فيها حتى على شرطي واحد واقف في شوارعها ومفارق طرقها، باستثناء المنظمين

لحركة السير. وهم كذلك جالسون في سيارات ولكن وجودهم وحضورهم ملحوظ ومحسوس في كل مكان. وفي حالة وقوع حادث مرور يصل رجال الشرطة إلى الموقع في ظرف مدة لا تتجاوز خمس دقائق. ويذهب التلامذة إلى مدارسهم راكبين سياراتهم الخصوصية بقيادة سائقين، ولهذا خلال المدة من الثانية عشرة ظهراً إلى الثالثة بعد الظهر تشاهد قرب المدارس اختناقات مرورية. ويحرص السائقون الخبيرون على القيام في هذه المدة بالالتفاف حول هذه المواقع. وفيما يخص أطفال الأجنب فإنهم ينقلون عادة بوساطة الحافلات المدرسية. وفي بعض الأحيان يمكن رؤية صبي في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة جالساً خلف مقود سيارة جيب كبيرة وهو يقود السيارة بمهارة وحنق. وأظن أن هذا ما لا يشجعه كثيراً رجال شرطة المرور إلا أنهم لا يمنعون ولا يحولون دونه.

وتتص الممارسة المعتادة لفتح السفارات على أن يصل في البداية إلى بلاد الاعتماد فريق يضم واحداً أو اثنين من الدبلوماسيين مع مختص بإدارة الاقتصاد وهم يبحثون عن مبنى ملائم للسفارة ومكان مناسب للسكنى فيستأجرونها ويعمدون إلى تهيئتهما على النحو المناسب. أما في حالتنا - بحكم أسباب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

معينة - فكان كل شيء بالمقلوب وظهر أن المجموعة الطليعية للسفارة مكونة من زوجي ومني شخصياً.

وعقب مرور بضعة أيام انتقلنا إلى فندق غير كبير على نظام الشقق العائلية بغية الانهماك في البحث عن البنائيتين المناسبتين لاستئجارهما. وهنا وقع لي ما لم يكن متوقفاً. طيلة عمري عانيت من نقص أوقات الفراغ وحلمت بمزاولة الأعمال المحببة إلى نفسي؛ كتأليف كتاب ورسم صورة أو لوحة والحياسة وتطريز التوشيه. أو على الأقل ممارسة هواية الجمع. أما الآن فقد توافر لي من الوقت وما من أثر لأية مشكلات تدييرية.

ولكن؛ وبالغربة تعزف نفسي عن القيام بأي عمل ما! وأمام عيني مفتوحة الصفحات البيض لدفتر المذكرات. ولكن عن أي شيء يمكن وينبغي أن أكتب؟! لم يكن مني عن كثب لا أطفال ولا أصدقاء ولا أقرباء. أما إيلمان أراسلي فسرعان ما استغرق في العمل وكان على الدوام غائباً عن عيني وليس لدي كتب ولا جرائد. وبسبب النوافذ محكمة الإغلاق لم تكن تبلغنا ولا تصل إلى أسماعنا أو تداعبها لا الأصوات الطفولية ولا عجيج الريح ولا نباح الكلاب ولا هبوب النسائم، وإنما في الليل فقط كان يسمع الزعقة الحادة لفرامل سائقي السيارات العجولين والشطار.

أحسست بنفسي وكأنني أسيرة أو سجيننة. وعقب مغيب الشمس كنا نحاول، القيام بنزهات ولكن سرعان ما تخلينا عن هذه الفكرة. وحتى في الأمسيات كان يخيم القبيظ الخانق للأنفاس، وعقب دقيقتين إلى ثلاث دقائق يسيل على الظهر من تحت الثياب خيط من العرق الذائب. وهكذا؛ كان أفضل ما تبقى لنا هو الفرار والالتجاء إلى المبردة والمكيفة.

ولحسن الحظ وجدت أخيراً قضية شاغلة لي. خلال النصف الأول من النهار كان زوجي يقوم بالزيارات، أما في نصفه الثاني فكنا نتجول في المدينة بالسيارة بحثاً عن بناءين للسفارة والمسكن. وبالطبع كان ذلك عملاً غير يسير إذا أخذنا في الحسبان القبيظ المرهق وإمكاناتنا المالية. وقد كنا نتفقد يومياً بمساعدة الوسطاء ٣-٤ مبانٍ، وفي المجموع شاهدنا أكثر من ستين مبنى. وعليه؛ درسنا بنشاط في غضون شهر الرصيد السكني للعاصمة السعودية.

وأخيراً توقفنا عند بنايتين: مبنى السفارة وهو قبلا ذات طابقين فيها ١١ غرفة ولها باحة فسيحة مبلطة بلوحات رخامية مرمرية وفيها بيت صغير صالح لإقامة السائق وعريش للسيارة وحوض سباحة من المقاسات المتوسطة، والثاني كان المقر

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

السكني وكان أكثر تواضعاً فهو دار مؤثثة في طابق واحد ثم في غضون بضعة أيام أجري التصليح لغرف السفارة واشترت قطع الأثاث وعلقت اللوحات الفنية. ثم - وهو ما ليس بقليل الأهمية - اقتنيت دائرة المعارف (الانسكلوبيديا) البريطانية بمجلداتها العديدة التي غدت أساس مكتبة السفارة المنتظرة. وعلى هذا النحو أو ذاك غدا كل شيء مهياً للافتتاح الرسمي، وأخذ الضيوف يتوافدون، وثبتت الراية على ساريتها، وشحنت آلة التصوير السينمائية بشريط التصوير. وماذا يمكن أن يقال سوى إن اللحظة كانت متوترة ومهيجة للمشاعر. إنه افتتاح أول سفارة لدولة أذربيجان في المملكة العربية السعودية! رفعت الراية عالياً وأخذت ترفرف في الريح! لقد كان ذلك في اليوم الرابع من شهر أيار (مايو) سنة ١٩٩٤م.

بدا لي مقرُّنا السكني بادئ ذي بدء كئيباً جداً. واتضح لي عند إجراء التنظيف أن النوافذ كانت مسدودة إلى زهاء ثلثها بصفيحة خشبية وهو إجراء اضطراري ضد الشظايا أثناء غارات القصف المحتملة للحرب التي كانت رحاها دائرة في المنطقة الخليجية. وعندما انتقلنا أخيراً من الفندق شعرت بغتة بإحساس أنني أسكن في بيت. كانت النوافذ الواسعة المضيئة

تطل على حديقة صغيرة مريحة يكتنفها سور حجري مرتفع. وكانت تنمو نخيلات وأشجار السدر وشجرة رمان واحدة بثَّت في نفسي دفء الحنان بتذكيرها لي الوطن السحيق. ومن البوابة إلى الباب الخارجي سابط خشبي تتعرشه شجيرات الكرم وتتدلى منه عناقيد العنب جاعلة ظلاً ظليلاً. وهناك شجرة ياسمين ذات الرائحة الطيبة مغروسة أزهرت ورداً. وهيات الحائط الزجاجي في غرفة الاستقبال كتلة من الضوء. وأزهار الحجر التي زرعتها في وقت متأخر أخذت تنمو بسرعة وانتشت القلوب بطراوتها. وكشأن أية امرأة وددت لو أحسن تنظيم مسكني وعكفت على هذا العمل وانشغلت به بكل ارتياح وحبور. وعلقت على أغصان الأشجار السلال المحتوية على الحب والطعام للطيور. ودربت تدريجياً هرة أهملها أحدهم واقتنيت سلحفاة بحرية. وكان المقياس الزئبقي في ذلك الوقت يشير إلى ارتفاع درجة الحرارة باطراد أعلى فأعلى دوماً. وتعذر الخروج إلى الحديقة نهاراً بل وحتى في المساء أيضاً إذ كان القيظ لا يكاد يهبط، وكل ما في الأمر هو أنه كان ينزل بمقدار ٣ - ٤ درجات لا غير. وبدأ الصيف الطويل المرهق المنهك. ومنذ لحظة الوصول إلى المملكة انقطعت تقريباً عن الاتصال

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

بأي أحد حتى الأقرباء، وذلك لأن الاتصالات بين المدن حينها لم تكن قد استحدثت بعد. وتسنى فقط إجراء المكالمات الهاتفية مع الأطفال في دائرة المدينة للاتصالات الهاتفية الخارجية.

حيث شاهدت طابوراً طويلاً من المنتظرين دورهم. ولكوني مشغولة دوماً لم أتصور سابقاً قط أنني سأكون محتاجة بهذه الشدة إلى المؤانسة. أما أيلمان أرسلني فإن الأمر عليه كان من هذه الناحية أهون وأيسر. وفي اليوم الأول من إقامتنا هنا هاتف سفير تركيا آنئذ في المملكة العربية السعودية (علي طويقان) وقال له: إنه يود لو زارنا وتعارفنا. وجرى اللقاء ذلك اليوم نفسه في بهو الفندق وكان بداية صداقة وطيدة وحميمة وممتينة بينهما.

وأستبق القول زمنياً فأذكر أن علي طويقان ظهر أنه إنسان لطيف المعشر ودبلوماسي ضليع. ولم يبخل بإسداء النصائح القيمة وأبدى مساعدة فعلية واقعية إلى أيلمان أرسلني كانت ضرورية جداً وبخاصة أثناء المرحلة الأولى من تنظيم سفارتنا. وعقيلة السفير التركي - وهي كندية - امرأة جذابة وذكية وقد أصبحت صديقتي الأولى في المملكة السعودية. وقد قدممتني إلى صديقاتها الكثيرين وأمضينا سويعات كثيرة معاً

وفهمنا بعضنا بعضاً على نحو رائع على الرغم من ضعف لغتي الإنجليزية آنذاك. وفي أحد الأيام هاتفتني وجاءتني في زيارة عقيلة السفير الروسي تراسوف من بلدان رابطة الدول المستقلة «الكمنويلث الجديد» لم يكن معتمداً بعد سوى سفير روسيا، وكان الثاني من المنطقة المذكورة هو سفير أذربيجان - وقد حدثتني بأنها هي وزوجها تعرفا غيابياً على أيلمان أراسلي وكانا ضمن الطلبة الدارسين في معهد موسكو الرسمي للعلاقات الدولية التابع إلى وزارة الخارجية في روسيا لإعداد الدبلوماسيين وانتفعا بمؤلفاته. زد على ذلك أننا اكتشفنا أن لدينا العديد من الأصدقاء المشتركين بين المستعربين. وزارتي كذلك عقيلات سفراء بلدان عديدة كما هو المألوف وفق الآداب الدبلوماسية.

وفيما بعد قمت أنا نفسي غير مرة بزيارات إلى القادمين حديثاً لدعمهم الأولي هنا رغم إدراكي أنهم سينضمون إلى جماعات متألفة وسيكون الأمر عليهم أيسر وأسهل. ولكن على أية حال كانوا جميعهم شاكرين وممتنين على العناية والاهتمام. وبمرور الزمن لدى حضوري الاجتماعات النسوية العديدة وأماسي الأعمال الخيرية والمعارض الفنية تعرفت على الكثيرات من السعوديات. وأقول بصراحة: إنني لم أتوقع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أن ألتقي بمثل هؤلاء النسوة الجميلات الرائعات المتعلمات والصدوقات المثقفات. ومع واحدة منهن أصبحنا وكأننا أختان شقيقتان تقريباً. وهي لا تزال في مقتبل الشباب. ولديها أسرة رائعة معروفة وسوف أتحدث عنها لاحقاً بالتأكيد.

وهكذا أخذت تدريجياً أكتسب الأصدقاء والمعارف. وبعد مضي عام واحد أو أكثر من ذلك بقليل افتتحت سفارة أوزبكستان ثم قزاخستان وأوكرانيا. علماً بأن زوجي كان قد التقى في العمل بهذا الشكل أو ذاك مع سفراء هذه البلدان في السنوات السابقة. وأصبحت الحياة أسهل وأطرف. وفي يوم ١٨ نيسان (أبريل) سنة ١٩٩٤م عقب مرور أسبوعين على قدومنا قام أيلمان أراسلي بزيارة إلى وزير خارجية البلاد الأمير سعود الفيصل لتسليم نسخة طبق الأصل عن أوراق اعتماده.

ويجب تسليم الأصل إلى رئيس الدولة وهو الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ولكن ذلك كان يتطلب مرور زمن. وخلال الأعوام الأخيرة اعتاد الملك تسلّم أوراق الاعتماد مرتين في السنة: الأولى قبل شهر رمضان المبارك والثانية في بداية موسم الحج. ومن المعروف أن السفير قبل تسليم أوراق اعتماده يعد وكأنه لا يزال بعد ليس الممثل الرسمي عن بلاده وهو لا يشارك

دوماً في التدابير الدبلوماسية واسمه غير مذكور في سجلات الاستعلامات الخاصة. وحتى لحظة قدومنا تجمع طابور طويل يتكون من ١٥ سفيراً وصلوا إلى البلاد سابقاً وهم ينتظرون دورهم لتقديم أوراق اعتمادهم. ولكن ساعف الحظ أن موسم الحج كان على الأبواب.

وأخيراً عيّن يوم تقديم أوراق الاعتماد. وبوَدّي التحدث بإيجاز واقتضاب عن هذه المراسيم الاحتفالية. اجتمع جميع رؤساء البعثات الدبلوماسية في قصر الضيافة والاستقبال بالرياض. ثم استقل كل واحد منهم في سيارة مستقلة وبصحبة كوكبة من راكبي الدراجات النارية نقلوا إلى القصر الملكي العامر. وعرضت العملية المباشرة لتقديم أوراق الاعتماد على شاشة التلفاز المحلي. وقد ترجل كل سفير من السيارة وتوجه نحو أبواب القصر بين صفين من حرس الشرف المتألف من ٣٥-٤٠ عسكرياً يرتدون بزة خاصة. وفي نهاية الصف يقف في انتظاره رئيس هذا الرهط من الحرس. وتقدم لتأدية التحية العسكرية له بالسيف المسلول والمرفوع إلى الأعلى يرافقه إلى حجرة انتظار الضيوف. وعندما يكتمل اجتماع الكل توجه إليهم الدعوة للانتقال إلى صالة الاحتفالات المجاورة حيث يحضر

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الملك وحاشيته. وكل سفير بعد إعلان اسمه وتسمية بلاده يتقدم بأدب نحو رئيس الدولة ويقدم إليه أوراق اعتماده وبعد اختتام المراسيم يجالسهم العاهل ويرحب بهم في غضون أربعين دقيقة في قاعات أخرى أبهى وأزهى.

وهكذا حصل أيلمان أراسلي على الوضع الدبلوماسي الرسمي سفيراً فوق العادة ومطلق الصلاحية عن الجمهورية الأذربيجانية لدى المملكة العربية السعودية. وكانت تنتظره لاحقاً أعوام عمل شاق ولكنه في منتهى الأهمية والطرافة.

وفي غضون الأعوام العديدة من حياتنا في الخارج حرصت دوماً على مساعدة زوجي في عمله. ولكن هنا في المملكة أدرك أن وظائفني يجب أن تكون مغايرة وأكثر أهمية. وزوجة السفير تمثل أيضاً بلادها ويتوقف الكثير كذلك على نشاطها.

وكما سبق أن ذكرت كانت لغتي الإنجليزية حتى ذلك الحين ضعيفة جداً وقد فهمت أنه لا بد من فعل شيء بهذا الشأن. وفي أحد الأيام هاتفتني عقيلة السفير البريطاني الذكية الجذابة (ماري هوربديت) التي تكونت لي معها صداقة وطيدة وحميمة ورجوتها أن تساعدني في العثور على معلمة. وبعد أقل من أسبوع ذكرت لي أنها عثرت عليها وأن بوسعي تشكيل مجموعة. وأخذت

أنتقي السيدات الضعيفات في اللغة الإنجليزية وقد استجابت زوجات بعض السفراء والملحقين العسكريين بكل سرور لاقتراحي. وكانت معلمتنا الأولى عقيلة جنرال ميجر إنجليزي ونحن نواصل إلى الآن صداقتنا. والمكاتبات بيننا مستمرة.

وأنا أكتب عن ذلك بمثل هذا التفصيل لأن مجموعتنا التي أطلقت عليها فيما بعد تسمية (الأذربيجانية) أصبحت لاحقاً وحتى وقتنا الراهن ظاهرة ملحوظة في الحياة الدبلوماسية للبلاد وأتعشم أنها لعبت دوراً صغيراً إلا أنه إيجابي في علاقات أذربيجان مع الدول الأخرى.

مرت شهور وهذه المجموعة قد تزايدت وتكاثرت، وظهرت فيها عضوات جديداً وبعضهن غادر البلاد. وقد كنا نجتمع وندرس بسرور ساعتين كل يوم ثلاثاء. وإلى هذا اليوم لا نعدل نحن عن هذا التقليد رغم أنه لم يبق من التلميذات الأوليات سواي وحدي. وأنا أيضاً المنسقة الدائمة للمجموعة. مع أنني في الحقيقة تعبت من ممارسة العمل التنظيمي الروتيني اليومي. ولكن هذه المجموعة هي وليدتي المحبوبة وأنا لن أتخلي عنها حتى رحيلي النهائي. وعندها ربما ستزول من الوجود بحد ذاتها. وتتألف المجموعة حالياً من زهاء خمس عشرة امرأة،

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

علماً بأنهن لسن الأجنبيةات فحسب بل والمحليات. وبالطبع لم يعد عمل المجموعة منذ أمد بعيد مقصوراً على خدمة هدفها الأول وهو تعلم اللغة، إذ إن معظم عضواتها من الملمات باللغة الإنجليزية إلا أننا نتبادل الأحاديث بسرور وارتياح وندعو الاختصاصيين من شتى مجالات المعرفة ونحتفل بالأعياد وأحياناً نقدم الحفلات والتمثليات ونعرض الأزياء القومية والموضات العصرية وننظم الجولات والرحلات ونشد أزر بعضنا بعضاً في الأوقات العصيبة، وبالطبع نتحدث عن بلداننا.

وهنا خاصة وددت، وبعد أن أصبحت عضواً في جمعية زوجات السفراء التعرف على العديد من السيدات في السلك الدبلوماسي بالمملكة العربية السعودية. وقد اكتشفت فجأة أن الكثيرات منهن لا يعرفن عن بلادنا أي شيء أوقليلاً جداً. وتحتم علي إلقاء المحاضرات والتحدث والقيام بالشرح والتفسير. وفي أعوام مكوثنا وإقامتنا في المملكة العربية السعودية عُرِضت على الشاشة التلفزيونية وأذيعت من الراديو ونشرت في الجرائد عشرات المقالات والمقابلات الصحفية لزوجي مع الصور الملونة، وشيء قليل لي. وضممتنا صفحة كاملة عن أذربيجان وعن أسرتنا مع صور فوتوغرافية بديعة حتى مع أولادنا وأحفادنا.

وصورتُ مراراً في برامج التلفزيون أفلاماً تحدثت فيها عن بلادنا ومطبخها القومي وعن الاحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر وعن الكتب التي ألفتها واللوحات التي رسمتها وعن مجموعتي الشهيرة من المراوح النسائية والكثير مما سوى ذلك، ولهذا ربما يكون الآن ليس من باب التواضع بالمرة التحدث عن هذا وأنا مفعمة بشعور الارتياح لكوني استطعت بالميل الشخصي - وتناول عمل إيلمان أراسلي المهم والطريف للغاية وغير اليسير - دونما شك أوريب في حديث خاص، وكثيراً ما يكون غير مشكور - أن أجمع ما هو بمثابة ثروة قليلة في محصلة النقود للمعلومات عن بلادنا وأن أزرع البراعم الرقيقة للاهتمام والتلطف إزاءها، ولكن الوقت يطير بسرعة وكأنما حل بشكل غير ملحوظ العام الخامس من مدة إقامتنا في المملكة السعودية. وتبعت الحياة الهادئة المستقرة مع السفارات خلال مدة الصيف هجرتي إلى الوطن الذي أتحرق توقاً إليه بالدرجة الأولى للعيش مع أولادنا وأحفادنا وملاقة الأقرباء والأصدقاء واستنشاق هواء الوطن ونسماته الرقيقة. والعالم يتغير بشكل حثيث ومع الأسف ليس نحو الأفضل. والنزاعات الإقليمية تستدعي عدم الثقة والقلق الدائم. وفي كل مرة عند انتهاء مدة الإجازة السنوية تتصارع

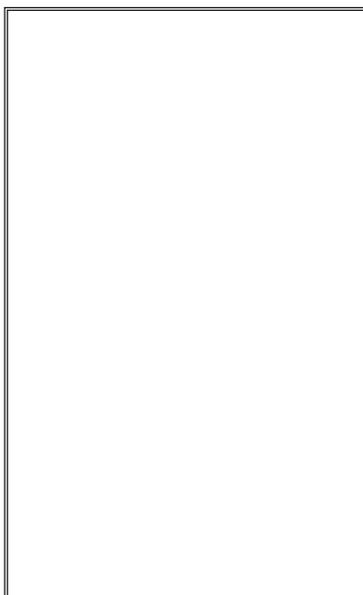
المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في داخلي رغبتان متعارضتان هما البقاء في الوطن للحفاظ على ذوي قرباي من الخطر غير المرئي، أو السفر على وجه السرعة وعودتي إلى المملكة العربية السعودية كي نصل إلى أكثر المواضع أمناً على وجه الأرض على أن أخطف معي إلى هنا الناس الأعزّة إلى نفسي والأحبة إلى قلبي.

أجل؛ كان لنا هنا في المملكة بيتنا الخاص ولدينا العديد من الأصدقاء وعمل محبب (وإلى هذا الوقت قد بدأت في رسم لوحات) والحياة فيها شيقة وطريفة. لقد تجولنا - أنا وزوجي - في جميع أرجاء البلاد تقريباً والتقينا بالعديد من الأشخاص الحكماء وعرفنا من المصادر الأولى قصصاً تكاد تكون من بنات الخيال ولكنها لم تخترع اختراعاً. وقد امتدت يداي إلى الأوراق البيضاء. وكنت أفهم أنني قد نضجت لدي الفكرة لكي أتحدث بالكثير مما تجمع واحتشد واكتنز في نفسي. ولا يسعني منع نفسي من التعبير إلى أبناء وطني عما شعرت به وشاهدته وعرفته عن تلك البلاد النادرة الفريدة. وها قد بدأت أكتب. وكان الحافز والدافع إلى ذلك هو مناسبة حلول الذكرى اليوبيلية.

ذكرى تأسيس الدولة



خلال شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٩م احتفلت المملكة العربية السعودية بمناسبة مرور المائة عام الأولى على تأسيس دولتها وفقاً للتقويم الهجري. فهل هذا قليل أم كثير؟ إنه على نطاق تاريخ تطور المجتمع البشري مرحلة ضئيلة جداً من الزمان. ولكن في حالة مداها على العديد من عقود السنين أو حتى القرون كما كان ينبغي أن يجري فإن تلك التغيرات العملاقة التي وقعت في البلاد في ظرف مدة قصيرة كهذه كثيرة جداً.

وبالطبع فإن الثروات النفطية المكتشفة وهي الأضخم في العالم أدت دوراً حاسماً في هذه العملية المعجلة، ولكن لا ريب أيضاً في أن القيادة الحكيمة لملكها الأول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود وبنيه حددت في الكثير من الأمور المصير السعيد لهذه الدولة إذ يشخص أمام أعيننا غير قليل من الأمثلة على بلدان ثرية لم تستطع القيام بحسن التصرف إزاء الإمكانيات المتوافرة.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والجد الأول المعروف لأسرة آل سعود وهو الذي أطلق اسمه على البلاد تسميةً لها، كان الإمام محمد بن سعود الذي حكم أثناء عشرينيات القرن الثامن عشر واستطاع أن يجمع في يده السلطتين الدنيوية والدينية وهو ما لا يزال مُحافظاً عليه حتى الوقت الراهن. وفيما بعد - نتيجة الحروب العشائرية العديدة التي أشعلتها السلطات المتنافسة للإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية - امتلك هذه الأراضي ممثلون إما عن هذه الأسر الحاكمة أو تلك. والغصن الحاكم حالياً من شجرة النسب للسعوديين يستمد بدايته من الملك عبد العزيز الذي استطاع في عام ١٩٠٢م بادئاً حكمه وفقاً لقوانين الإسلام من جمع شمل الأراضي المشتتة والمقطونة بقبائل مختلفة تعيش عملياً بروح القرون الوسطى خلال بضعة عقود من السنين، وحياسة سجادة رائعة لدولة مجمعة وحتى نهاية عمره فرشها تحت أقدام أبناء شعبه بساطاً سحري الألوان والصنعة.

وحينئذ في صباح مشرق من أيام سنة ١٩٠٢م زحف رعيل غير كبير يضم أربعين شخصاً من الكويت عبر رمال الصحراء العربية المركزية نحو الهدف المقصود والمنشود. مواجهين الصحراء التي لا ترحم بلا نهايتها ووتيرتها الرتيبة. وبدت

كأنما هي شيء لا ينتهي إلى أبد الآبدين. والرمل والحصى والملح المتطاير من الأراضي السبخاء وكريات النباتات التي تعتلفها وتجترها الإبل، وهي تحاكي بشبه بعيد النباتات الحية وقد أجهدتها الجفاف الشديد، تقيحت شفاه المسافرين المييسة بتأثير ريح الشمال الترايبية التي واجهت عيوناً نصف مغمضة ومحتقنة الأجفان ترنو بإعياء إلى الأفق البعيد الذي لا تحدُّه حدود. وعلى ندرة كان يقطع المنظر الرتيب والمضني لكثبان الرمل والسبائخ أرنبٌ مذعور يقفز عابراً الطريق في فزع ممعناً بأذيال الهرب مضطرباً أو تطل السحنة المتطفلة لثعلب أو يحلّق نسر منفرد في طيران انسيابي وكأنه يسبح في الهواء بدلاً من الماء فارداً جناحيه ويتدنى لينقض في الوقت المناسب على فريسته بشكل يستعصي على الفهم وهو محقق بعينيه الثاقبتين في الفريسة بصورة خاصة آناء الليل. والناس إنقاذاً لأنفسهم وهرباً من برد الليل القارس الشديد الذي ينفذ إلى العظام بل إلى مخها يجلسون بجوار الإبل ملتصقين بها التماساً لدفء وبرها ودمها، وهم جنباً إلى جنب منطلقين بقلق وفاتحين أعينهم على وسعها نحو قبة السماء التي تناثرت فيها النجوم كاللآلئ ترصع صفحة الليل، ويتسمعون منصتين إلى الصوت الخفي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المنطلق من قريب وهو عواء الضباع القلقة أو المتحفزة. سارت القافلة يوماً بعد يوم متجنبة مسالك البدو التقليدية والواحات النادرة وآبار ماء الشرب العذب عبر الأراضي الوعرة المعادية الملائى بالسبخات الملحية في مواضع مجهولة لدى الكثيرين، وكانت الجمال التي نحلت تحمل على ظهورها الأخرجة الثقيلة والاحتياجات اللازمة من الماء والطعام والسلاح.

ومنذ بداية الطريق تحرك بحماس وهمة الأشخاص الواصلون بصواب قضيتهم وأحقيتها، والمؤمنون بالنصر العاجل متجهين إلى هدفهم البعيد. ولكنهم تدريجياً بعد أن أرهقتهم المصاعب وفي التوتر الدائم من ترقب هجمات العدو أخذوا أولاً يفقدون الحماس السابق واليقظة المرهفة على الرغم من كون الأغلبية منهم كانوا من ذوي الأصول المحلية. وإنها لقضية أخرى موضوع قائدهم الشاب النشيط عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حفيد الإمام فيصل الذي أمضى أعوام فتوته في قصور الكويت في كنف الرعاية الودية الدائبة من صاحب أبيه الشيخ مبارك الصباح. وهنا في الألعاب والولائم والأحاديث مع الرفاق الحكماء من كبار السن تدرّب واستكمل الخبرة واستطاع امتلاك طبائع الزعامة، إنه ملك المستقبل للمملكة العربية السعودية.

ولم تكن البيداء بالنسبة إلى عبد العزيز هي الطبيعة القريبة إلى النفس. إنها قد أثارت فيه روح الاحتراس والقلق، وفي الوقت نفسه أنعشت فيه الآمال ومُنَّته بالوعد الموعود. وكان الأمير الشاب كذلك عرضة للإيذاء جراء المسير العسير إلا أن الإرادة الصلبة والشكيمة الصلدة وإدراكه للمهمة الملقاة على عاتقه كلها كانت دوافع أمدته بالقوة العجيبة غير المسبوقة بمثل أو نظير. أحس عبد العزيز جيداً بأمزجة أصحابه. وكان واثقاً ومؤمناً على نحو مطلق برفاقه المخلصين ولكنه في الوقت عينه رأى كيف أنهم مرهقون ومحتاجون إلى الراحة والاستجمام. كان يفهم أنه من الضروري - في هذا الوقت - دعم روحهم المعنوية وتوجيههم بأنهم وحدهم الذين بوسعهم إنجاز المهمة الخاصة بتحرير الوطن.

أخذت الشمس تميل إلى الغروب جانحة نحو الأفق الغربي. وأصدر عبد العزيز أمره بالتوقف واتخاذ أسباب الراحة في موضع الاستراحة لا سيما أنه قد ظهرت في الأفق أوائل الزوابع الرملية. وفي الأمام تراءى البحر الجامد من الكثبان الرملية. وهذه الرمال معروفة منذ القديم بتاريخها الشرير فأثار الناس والحيوانات تخفي وتزول هنا في لحظة إذ تمحوها الرياح

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والزواجع الرملية وتعود الطريق التي قطعتها القافلة لتوَّها من جديد وكأنها لم تمس ولم تلمس. ويعرف البدو القدامى المواضع حيث تستطيع الرمال المنهارة ابتلاع لا الإنسان غير الحذر وغير المحترس وحده وإنما أيضاً القافلة بأسرها.

وعلى حين غرة ارتفعت فوق أقرب كثيب زوبعة رملية. وبالنسبة إلى سكان الصحراء تبدو لوحة عادية عندما تقتلع الريح الوجه العلوي للطبقة العليا من الرمل وترفعها في الهواء وتلفها على شكل قمع حلزوني صاعد، بحيث يبدو الموضع من بعيد وكأنه فوهة بركان ثائر تقذف الحمم. ولكن كل شيء كان في هذه المرة أكثر جدية وخطورة وأشد وقعاً وإرهاباً، وذلك لأن السماء المتجهمة المدلهمة سرعان ما أخذت بعد دقائق معدودة تنهال على رؤوس هؤلاء العابرين للصحراء بما حملته الريح من الرمل المذرور فغمرتهم بكمية من سحائب الأغبرة من هذا المسحوق الأحمر للذرات الرملية الناعمة داخلة بقوة إلى العين والأنف والفم، مانعة من التقاط الأنفاس ومعرقلة استنشاق الهواء فلا شهيق ولا زفير. وعلى مسافة ثلاث إلى أربع خطوات لم يكن يرى أي شيء فقد تعذرت الرؤية وقصر مدى النظر حتى استحال الناس إلى أنصاف عميان. وها قد بدأت رياح

الخماسين - هكذا تسمى - وهي زوابع رملية تشيرها ريح الشمال ويمكن أن تظل مستمرة طيلة اليوم وطوال اليوم التالي بل ويستغرق مجموع مدة هبوبها مدة قد تصل إلى الخمسين يوماً بالتمام والكمال.

وسمعت الصرخات العالية من دليل الـركب. وهو دليل إبل خبير. وكان يعرف أنه في حالة فشل منذ الدقائق الأولى عقب بدء الزوبعة حيث يتعذر عليه جمع الرجال والجمال فإنهم بعد ذلك سيصبحون شذر مذر في هذه الفلاة التي هي كالبحر الزاخر من الرمال وسيغرق الجميع في لجة الرمل الهائجة بالإعصار العجاج كما تغرق السفينة الشراعية في البحر المتلاطم الثجاج، إذ إنك لا ترى ولا تسمع حتى من هو منك على مقربة خطوتين. ولكن الحمد لله ولحسن الحظ لم يفقد أحد، فلقد وفق الدليل إلى جمع الإبل المذعورة التي تسعى هي نفسها في أمثال هذه الأوقات إلى التجمع مع بعضها لتكون كقبضة اليد الواحدة في مقابلة هذا الخصم العنيد والخطب الشديد. واستتر الرجال تحت البطانيات الصوفية الكبيرة اتّقاءً حبات الرمل النفاذة إلى كل ما يعترضها، وطرذاً للشعور باليأس والقنوط والأذى والحبوط فلا سقف هنا يأوي إليه المنكوبون، ولا موقد نار مثل

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الذي يتحلق حوله المصطلون في الغابات والأحراش عند ما يخيم الليل البهيم. قرب مطلع الفجر وبزوغ الشمس هدأت الرياح واستقرت بعد شقشقتها وقرت، وكان الهواء يصفر كزقزقة القُبْرَة وسقسقات الزرازير والعصافير. إلا أن البطانية المثقلة على قدور النحاس في سوق الصفاير. إلا أن البطانية المثقلة بطبقة سميكة من الرمل ثم وجوه الرجال المنتعشة بعد ذبول كانت التذكار على زوبعة الأمس التي مرت بسلام وكأن شيئاً لم يكن، وتحركت القافلة من موضعها. وأمامها - إن لم يحدث ما هو غير متوقع - في المنتظر العديد من الأيام الرتيبة المشابهة لهذا اليوم في الدرب الصحراوي الطويل. ولكن عبدالعزيز كان مستعداً، بغية الوصول إلى الهدف المنشود وبلوغ الغاية المبتغاة، لقطع ما هو ضعف هذا بل وأضعاف مضاعفة. قبل سنة من هذا التاريخ قام والده عبد الرحمن مع الشيخ مبارك بجمع قوات كبيرة وجّهاها ضد عدوهما اللدود والأول وهو أسرة آل الرشيد التي احتل أفرادها من قبل أراضيها. كانت المعركة التي دارت رحاها ضارية جداً ولكن على الرغم من شجاعة رجال عبد الرحمن وبسالتهم تعين على هذه الكتائب الانسحاب. وعندها أقسم الشاب عبد العزيز اليمين بالله العظيم أن

يستعيد دونما ريب أراضي أجداده ويجعل أبناء شعبه سعداء. ومرت أمام عين الخيال المصاعب الكثيرة في الطريق الذي تعين عليهم أن يتحملوا أثناءه غير قليل من الأخطار والمجازفات ويعانوا الحرمان. وكانت القافلة تشق طريقها عبر المجاري الجافة لسيول الأمطار بحوافها المتصلبة وانحداراتها الحادة وعبر بحر من الرمال حيث تنتصب كالحارس الديدبان صخور حادة ناتئة، حيث لا يمكن أن يلاقي المرء حتى ولا نفساً حية واحدة. وهاهم أخيراً قد وصل هؤلاء الرجال - متعبين مرهقين إلا أنهم شاكرون لله وحامدون له وهم فخورون بأنفسهم معتدون بها كل الاعتداد، وعلى أتم ما يكون الفخر - إلى واحة صغيرة قرب مدينة الرياض. وهنا قسّم عبدالعزيز أفراد كتيبته إلى ثلاثة رهط. وأبقى عشرة أشخاص لحراسة القافلة والأمتعة وفي حالة الفشل في هجوم الغد كان الأمر بالرجوع على عجل في طريق العودة إلى الكويت لإخبار ذويهم بالهزيمة أما الباقون فيسيرون على إثره معقبين.

كانت الليلة حالكة هادئة. والقمر كأنما خصباً توارى خلف السحاب غير المنظور. ولم يلحظ أحد أولئك المقاتلين الذين زحفوا على الركب بلا صوت نحو سور المدينة وتسلقوه قرب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

إحدى بواباته المسماة بالشميسي، ثم ساروا ملتصقين بالجدار البارد للمباني الطينية حتى بلغوا بركضات قصيرة المدى نباتات الصبير والصبار خلف حصن المصمك الذي كان يبيت فيه في الليل - كما أفادت استخباراتهم تحت جنح الظلام، وفي خفارة كوكبة من الحرس - حاكم الرشديين عجلان. وهنا أبقى عبدالعزيز أخاه محمد على رأس ثلة أخرى من المحاربين. أما هو نفسه مع الباقين وهم أخلص الأوفياء وأشجع الأنصار فقد توجهوا من الأزقة الضيقة منصتين بتوتر في هدأة الليل حتى بلغوا بيت حليفه القديم الذي ظل ينتظر ذلك على مدى أيام عديدة. وتسلسل الجميع خفية حتى وصلوا قصر الحاكم الواقع غير بعيد واستولوا عليه. وحسب قول الوصيفات اعتاد الحاكم أن يقوم كل صباح تقريباً بزيارة إلى مخدع زوجته الجديدة الشابة. ولهذا بعث عبد العزيز برسول إلى أخيه والآخرين الذين معه ليأتوا إليه، وقرروا الترقب حتى الصباح. كان الأمير الشاب شجاع القلب باسل الفؤاد ولكنه في الوقت عينه كان شديد الحذر كثير الاحتراس وقد أدرك أن مهاجمة الحصن مع عدم التكافؤ في القوى لن يجلب له النصر ولن يكفل الفوز.

وها قد طلع الصباح. وأخذت الشمس الحارقة ترتفع رويداً

رويداً وأشعتها تتزاحف على النتوءات العلوية لمبنى الحصن عابرة أسنان سور القلعة. وتعالى صوت المؤذن بالأذان الرخيم من فوق المئذنة الشامخة. وتدرجياً تردت تارة هنا وتارة هناك الأصوات المعتادة للمدينة المستيقظة بعد هجوع الليل من نباح الكلاب إلى نداءات السقائين إلى كركرات الأطفال وزعقات الإبل المتجاوبة. وعلى حين غرة انفتحت على مصراعها البوابة الضيقة من باب الحصن الضخم وغير الواسعة واجتاز عبرها عبدان زنجيان ضخمان وأجالا أبصارهما متفحصين في أرجاء الباحة القريبة. وبدت لهما فارغة هادئة. وعلى إثرهما ظهر الحاكم متفحصاً بنظره في احتراس وقام ببضع خطوات. وفي هذه اللحظة الخاطفة اندفع عبد العزيز وأنصاره إلى تلك الباحة. وفي غضون بضع دقائق تم القبض على عجلان مع بعض الحراس الذين هبوا لنجدته استجابة لصرخات الاستغاثة منه وكان نصيبهم جميعاً القتل.

واستقبل معظم الأهالي الأمير الشاب بالتحية والترحاب. وفي ذلك الحين كان عبد العزيز قد ناهز سن الخامسة والعشرين. كانت هذه عملية جريئة من رجيل غير كبير في عمق مؤخرة العدو للاستيلاء على حصن منيع لا يكاد يعتقد بأنه يمكن أن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

يحتل ويؤخذ. ولكن هذا قد وقع بالفعل، وقد استطاع أن يفعل هذا ويحققه الشخص الوحيد الذي آمن بقضيته الحقّة وكان واثقاً بانتصاره، والذي استطاع أن يرى ما لا يرى ويفعل ما لا يمكن فعله. وقد حدث هذا بتاريخ ١٢ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٢م في فجر القرن العشرين. وبهذا النصر المؤزّر الرائع أصبح عبدالعزیز آل سعود على رأس بيت السعوديين والأرض والشعب والوطن وعاهلاً للمملكة. ولكن بغية تعزيز البلاد والحفاظ عليها وضم الجديد فالجديد من الأراضي إليها كان يتراءى في المستقبل غير قليل من المعارك الأخرى الطاحنة والهجمات والتنازلات والتراجعات والمباحثات الدبلوماسية والمفاوضات السياسية والمطامع والتطلعات. وفي غضون عقود السنين التي تلت ذلك كان متحتماً عليه حياة ثقة الشيوخ المستقلين العديدين، وقهر التمردات داخل أسرته نفسها، وضم أراضي الحجاز بكعبتها المشرفة والتناور بحكمة بين الإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية، وأخيراً القيام بدون خسائر تقريباً بتمرير سفينة مملكته من خلال عواصف حريين عالميتين.

وقد استمرت الاحتفالات بمناسبة مرور مائة عام على

إقامة هذه البلاد مدة عام كامل، إذ نظمت أثناء هذه المدة شتى التدابير وحفلات الاستقبال تحت شعار هذه الذكرى التاريخية فعلياً وعملياً. وشعشت في السماء الأنوار الساطعة الباهرة والإضاءات التي تعشي الأعين. وفي المعارض والكتب والكتالوجات والألبومات الخاصة بهذه المناسبة نشرت الصور الفوتوغرافية القليلة الملتقطة للملك وحاشيته على مدى ما بين عامي ١٩٢٠م و١٩٥٣م واستنسخت بأعداد كبيرة، وأيضاً في صورة لقطات مجمعة حسب الموضوعات وقطاعات ومقاطع جزئية خاصة منتزعة منها وكان محسوساً موقف الاهتمام الحريص إزاء هذه القطع الصغيرة من ذاكرة التاريخ. وإنها لقليلة جداً ونادرة. تتطلع إلينا من اللقطات غير الملونة وجوه غادرت عالمنا منذ أمد بعيد ومنها المجهولة تماماً وعلى العكس المعروفة تاريخياً والمشهورة عالمياً. وهذه الصور الفوتوغرافية أشبه ما تكون بالعلامات التي تسجل حركة مراويح الجهاز المشغل بقوة الذي يمثل مراحل التطور التي اجتازتها على مدى الأعوام الماضية والسالفة والتي تقدر على الأقل بالخمسمائة عام من تاريخ هذه البلاد.

ولعلكم تشاهدون بين دفتي هذا الكتاب إحدى اللقطات الأولى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في عمر الملك المقبل وحاشيته وبطانته من الذكور - وبالطبع ما من أثر أصلاً لصورة فوتوغرافية نسوية -، والوجوه المتجهمة المحترسة نصف المغطاة بالكوفية التقليدية كغطاء للرأس مع العقال للرجال الذين يلتقون مع شيء جديد عليهم وغير مفهوم. سنة ١٩١١م وليس للبلاد آنذاك حدودها الحالية التي لا تضم سوى الجزء المركزي الأوسط من شبه الجزيرة العربية ومحافظة جدة. ويزدهر نظام الحياة العشائري ويبقى غالباً نمط الاقتصاد الرعوي. وتسيطر القبائل البدوية الرحالة على القسم الأكبر من الأراضي ومصادر المياه وتملك عدداً كبيراً من رؤوس الإبل والغنم. والمستوى المعاشي للجزء الأكبر من الأهالي في منتهى الانخفاض. وتشيع أمراض الملاريا والسفلس والتدرن والجذام. وكان متوسط العمر ٣٣ عاماً. ونظام الرقيق لم يبلغ رسمياً بعد والصلة مع العالم الخارجي تتم مرة واحدة فحسب في العام أثناء الحج إلى بيت الله الحرام. مدن منفردة ولا أثر مطلقاً للطرق المعبدة كما أن واسطة النقل التقليدية هي الجمال وهي أيضاً مصدر الطعام والغذاء وكذلك الكساء وضمانة إدامة الحياة في المناخ الصارم.

ومن الصور التراثية أيضاً صورة فوتوغرافية أخرى تمثل

لقاء عبدالعزیز مع ملك العراق فیصل الأول على متن الطراد البريطاني لوبین. وهذا ليس بالمصادفة العرضية ولا العابرة. عقب انحلال إمبراطورية الأتراك العثمانية ونتيجة الحرب العالمية الأولى أخذت بريطانيا تلعب في هذه المنطقة الإقليمية الدور المفصلي. وهي تجلس على عرشى شرق الأردن والعراق خاصة حاكمين مريحين لها.

سنة ١٩٣٠م وقد مرت على لحظة احتلال مدينة الرياض مدة ثلاثين عاماً إلا قليلاً. وأثناء هذه الأعوام ونتيجة النضال الشاق تسنى لعبدالعزیز كسر مقاومة شيوخ الإمارات المجاورة وكذلك نتيجة صراعه ضد الترك تعاون مع الإنجليز الذين كانوا بالطبع يتوخون غاياتهم الخاصة. وهو ينقل إلى الحياة الحضرية عدداً من العشائر البدوية منشأً لها مستوطنات خاصة بها، يجرى فيها تدريب جماعة الإخوان على العمل الزراعي الجديد عليهم. وبعد فقدان الإخوان صلتهم بنمطهم السابق يصبحون لا مزارعين حضريين فحسب بل محاربين من الصنف الأول ومخلصين أوفياء إلى حد لا يتصور إلا في الخيال لدى دولة السعوديين، وبمساعدهم ونتيجة أعمال عبدالعزیز السياسية الناجحة تتوحد ضمن أطر الدولة مساحات شاسعة مترامية

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الأطراف من أراضي شبه الجزيرة العربية ومنها الحجاز الذي يضم أعظم المقدسات الإسلامية المركزية المتمثلة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وخلال شهر أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٣م أصدر عبدالعزيز مرسوماً بتوحيد أقسام المملكة وضم أجزائها إلى بعضها بعضاً، وبحكم هذا المرسوم تحصل البلاد على تسميتها الراهنة وهي المملكة العربية السعودية.

ومنذ هذه اللحظة يغدو عاهلاً لدولة ضخمة هي الثانية عشرة من حيث الاتساع بين دول العالم، الأمر الذي يعلي كثيراً من مكانته. وتتسم سياسة الملك الخارجية بالطابع السلمي نظراً لإدراكه أنه في ظروف السلم فحسب يمكن حل أعقد المشكلات السياسية الداخلية والدينية. وهكذا ذلّ بإمضائه في عام ١٩٣٦م معاهدة الصداقة مع مصر والعراق وفي العام التالي له مع اليمن. ووضحت الصور الفوتوغرافية القديمة اللقاءات مع زعماء هذه البلدان وسواها.

والعامل الأساس لحتمية تطوير المملكة العربية السعودية خلال المدة الزمنية ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كان هو النقص الحاد المتكرر في الوسائل المادية. وطبقاً لأقوال شهود العيان كانت خزانة الدولة بأسرها محشورة في هميان

جلدي معلق بحزام الملك. وكان لأعوام القحط في ظروف الطقس القائل الجاف أثرها في عمدة افق المستقبل. أما المداخيل من رسوم الحجاج فلم تكن ثابتة بل مضطربة بشكل حاد تبعاً لشتى العوامل. وكانت الصناعة في حالتها البدائية الجينية وفي مراحل الحرفية. وكانت مواد التصدير الأساسية هي الإبل والصوف وفراء الأغنام والتمور وبعض الفواكه، بينما يتعين استيراد كل شيء تقريباً من الأرز والقمح والسكر والغاز والبنزين والصابون وعلب الكبريت والسلع الضرورية الأخرى. وقلصت بريطانيا العظمى معوناتا بشكل حاد. وأخذ الدين المترتب على ذمة الدولة يكبر ويتصاعد ويتضاعف. وفي هذه الحالة بالغة التعقيد يقدم الملك عبدالعزيز على منح الامتيازات إلى شركات البترول الأمريكية وغيرها، رانياً في هذا الطريقة الوحيدة لتطوير وتعزيز دولته.

ظهرت الشركات الأجنبية في المملكة العربية السعودية منذ أوائل العشرينيات الميلادية من القرن العشرين وهي في غضون أكثر من عشرة أعوام تتولى التنقيب عن الذهب الأسود ولكن دونما نتيجة تقريباً. وعقب التوقيع في عام ١٩٣٣م على الاتفاقية مع الشركة الأمريكية لمدة ١٢٦ عاماً ظهرت النتائج الإيجابية

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الأولى التي عدت بداية الضجة البترولية في البلاد.

في عام ١٩٣٧م اكتشفت احتياطات هائلة من البترول في شمال شرقي البلاد. وعرضت سلسلة من الصور الفوتوغرافية العاهل الكهل وعلى ثغره ابتسامة الرضى الثابتة وهو يتفقد المشروعات المتزايدة بنشاط لاستخراج وتكرير «الذهب الأسود».

وليس ذلك بالمستغرب إذ إن البلاد تتقدم بخطوات حثيثة نحو الازدهار. وشُهد الملك في تلك الصور أثناء الاحتفال باكتشاف احتياطات النفط الصناعية الثرية في الظهران يتلقى التحية على متن أول ناقلة نفط. شُهد في صورة أخرى يقيم وليمة في خيمته الصيفية تكريماً لوفد شركة أرامكو إحدى أضخم الشركات التي نمت على حساب النفط السعودي، وهو محاط بالأمريكيين المتكبرين في الأزياء الشعبية العربية.

توشك على الانتهاء الحرب العالمية الثانية. والمملكة العربية السعودية في انتقال وارتفاع. والرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت وهو عائد من مؤتمر يالطة يقوم بقطع مسافة كبيرة لكي يزور شريكه الاستراتيجي. وقد سجلت آلات التصوير دون انقطاع وبلا كلل ولا ملل اللقاء المهم الذي عقد بين الزعيمين

على متن باخرة في قناة السويس يوم ١٥ شباط (فبراير) من سنة ١٩٤٥م وسعى أثناءه الملك عبدالعزيز للحصول على تعهدات من الولايات المتحدة الأمريكية بأن أية تغييرات في الموقف بصدد القضية الفلسطينية لن تنفذ إلا بعد إجراء مشاورات مفصلة مع العرب ومع اليهود. وهذا النصر الدبلوماسي المهم يساعد دونما ريب في نمو مكانة الملك الشخصية وتعزيز مواقع المملكة العربية السعودية في العالم. وبعد عامين فقط في ١٧ شباط (فبراير) يعقد كذلك بناءً على الإلحاح من الإنجليز لقاء للملك مع رئيس الوزراء البريطاني ونستن تشرشل. ويبدو أن الدول العظمى تتنافس في إبداء عنايتها واهتمامها حيال العملاق النفطي الثري. ولا يقتصر ذلك عليها، ففي الصور القديمة نشاهد سلسلة من وجوه ملوك العديد من البلدان وزعمائها الذين يسارعون إلى زيارة هذا الزعيم ذي المكانة الرفيعة والمعترف به لدى الجميع للبلاد العظيمة التي أنشأها بيديه الالئتين، أو استقباله لديهم في بلادهم.

وأنا إذ أسطّر تلك الكلمات تقع أمام ناظري صورة فوتوغرافية للملك الشاب. وهذه الصورة يمكن رؤيتها ليس في الكتب والمجلات وحدها. إنها تزين جدران مكاتب الشخصيات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الرسمية ومكاتب رجال المال والأعمال وواجهات محلات التصوير الفوتوغرافية العديدة، والسعوديون يحبون ويجلون مليكهم الأول. ويشير هذا الرجل في النفس اهتماماً حقيقياً. هو فارع القوام - وقد كان أعلى قامته من جميع ذوي قرباه العديدين ورجال حاشيته وبطانته باستثناء نجله البكر - وسيم الملامح معتدل القسماً ذونظرة ذكية متفحصة. وتلازم السبحة دوماً أصابعه الطويلة. وقد بقيت أتطلع إلى هذه الصورة الفوتوغرافية طويلاً بحيث خيل إلي وكأنني قد رأيت وجهه على الحقيقة والعيان قبل حقبة من الزمان. ويهمني أن أعرف بمَن كان يحلم؟ وما الذي يعرفه عن العالم المكتنف وما الذي يريده ويتوخَّاه وبيتغيه ويهدف ويسعى إليه. لقد ولد في بلاد ذات نمط عشائري للحياة وكان على مدى زهاء ثلاثين عاماً مع العائلة في المنفى لوالد يتخفى عن أنظار الأعداء بادئ ذي بدء في الصحراء ثم في الكويت فما الذي كان يمكن أن يعرفه عن العالم الخارجي سوى عالمه الخاص؟ ولكنه كان مسلحاً بدينه ومالكاً لإرادة لا تقهر ولا تتزعزع وقوة تحمّل بدنية، وكان يعرف حق المعرفة ما يريده ويهواه. لقد أقسم اليمين على انتزاع أراضي عائلته وتحرير أبناء شعبه وهو ما أنجزه بالفعل وحققه على نحو رائع.

في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٣م عن سن ٧٧ عاماً أعطى منها أكثر من ثلاثين عاماً لقضية توحيد المملكة العربية السعودية وضمان الأمن والسلم والاستقرار فيها مرسياً أساساً وطيداً لازدهار الدولة؛ انتقل إلى ربه، وبذهابه اختتمت البلاد مرحلة مديدة ومهمة من تاريخها.

وحسب مصادر مختلفة خلف الملك بعده من الأولاد الذكور من يتراوح عددهم بين ٣٤ و٣٦ ولداً من ١٤ والدة. أما مجموع زوجاته طيلة عمره كما هو المعروف فقد تجاوز عددهن الثلاثمائة. بيد أنه كان ملتزماً حرفياً بمراعاة حكم القرآن الكريم فلم تكن لديه في وقت واحد أكثر من أربع زوجات طلق بعضهن وتوفي الأخريات. ومثل هذا العدد الكبير من النساء لا يفسر بولع الملك بالنساء وإنما الرغبة في عقد عدد كبير من صلات القربى بهدف إيقاف النزاعات القبلية وتراس العشائر في التفاهم حوله وبالنتيجة إنشاء دولة موحدة الأرجاء الشاسعة من أراضي الجزيرة العربية.

وقبل وفاته بمدة قصيرة أوصى عبد العزيز بوضع قيادة البلاد في أيدي أولاده. وحسب بعض إفادات الشهود، خشية وقوع التنافس فيما بينهم، طلب من الاثنين الأكبر سنّاً فيهم وهما

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

سعود وفيصل حلف الأيمان المغلظة على المصحف الشريف على كونهما سينفذان بطاعة وامتنال إرادته الأخيرة وهي أن يعيشا في ظل السلام والوفاق علماً بأن يصبح أولهما الملك و ثانيهما ولي العهد، وأولاده يواصلون قيادة البلاد وما دام ملكهم على قيد الحياة فلا تنتقل السلطة إلى الجيل الآخر.

وأثناء هذه المدة حكم البلاد على التوالي الملوك سعود (١٩٥٣ - ١٩٦٤م) وفيصل (١٩٦٤ - ١٩٧٥م) وخالد (١٩٧٥ - ١٩٨٢م)، والمعروف أن أبرزهم هو الملك فيصل أو كما يوصف أيضاً الملك الإصلاحى الذى استطاع فى البداية مع والده العظيم ومن ثم بصورة مستقلة انتزاع البلاد من مظاهر التخلف ودفعها إلى العصر الحديث.

وفيصل هو الأول من أبناء عبد العزيز الذى ولد فى عاصمة البلاد وبقي حتى آخر عمره محباً ومخلصاً لوطنه الأصغر. وأمام ناظره وعن طريق إسهامه نمت - بدلاً من الأزقة الضيقة المتعرجة ذات النخيلات منخورة الجذع والمتفرقة والبيوت الطينية المبنية من اللبنات فى طابق واحد أو طابقين وكأنها مصبوغة بلون الصحراء المعتم الرتيب والكئيب - نشأت مدينة لازوردية المباني ذات شوارع عريضة وعصرية ومنتزهات

خضراء تسر الناظرين. ولم يكن للأمير ثم الملك فيصل إخوة أشقاء من والده واحدة (إذ إن والدته توفيت مبكراً) وكان رفيقه الأقرب إلى نفسه عبد رقيق أهده له والده واسمه مرزوق وهو الذي أصبح له كظله الذي لا يفارقه والذي عقب مرور أعوام عديدة أثناء زيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أثار دهشة رجال الجمارك «الدمقراطيين» بما فعله حين حجز مع سيده مائدة عامرة ومكاتب فاخرة. نشأ الأمير الفتى وتربى في بيت أسرة جده، والد أمه، الذي استطاع أن يزرع في نفس الصبي الروح الدينية العميقة. وقد تلقى التعليم المنزلي الحسن وأكثر المطالعة وعرف جيداً عدة لغات أجنبية وامتلك صفة بالغة الأهمية موروثه من والده هي القدرة على التعلم الدائم. ولقد حزر عبد العزيز منذ وقت مبكر جداً في نجله الثاني ذهنًا ثاقباً وقادراً وقدرة على ضبط النفس والشعور بالكرامة الشخصية.

وليس عبثاً أن الملك عبد العزيز في أخريات عمره وهو يفكر في مستقبل البلاد قال للمقربين إليه: «أه كم أتمنى لو كان لي عدة أولاد مثل فيصل. . .». ومن المعروف أنه في الشرق يبلغ الناس رشدهم أعجل وأبكر بعض الشيء ولهذا فإن الملك عهد إلى ابنه وهو في سن الرابعة عشرة برئاسة وفد سعودي رسمي إلى

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

الجزر البريطانية. خلفت لندن المتمدنة بتناقضاتها وعجائبها والخضرة الزمردية للأعشاب في حدائقها، انطبأها المؤثر في نفس السعودي اليافع المدهش بما رأى وشاهد، لقد رأى أول مرة في حياته رأي العين المباني الفخمة والواجهات اللامعة لمخازن المبيعات والنهر الفياض بجسوره المخرمة. وعرف لأول مرة الهاتف والآلة الكاتبة والطائرات. أما في منطقة غرينتش الشهيرة فقد تطلع من خلال عدسة تلسكوب ضخم إلى نجوم السماء وأجرامها وذلك في وضح النهار! وكان ذلك كله بالنسبة إليه كالمعجزة، إلا أن فيصل بذل جهده ليكتفم مشاعره متذكراً أوامر والده وتعليماته.

وبعد جولة في أوروبا عين فيصل وزيراً للخارجية. ومنذئذ عدّه والده ناضجاً تماماً لتعيين كهذا نظراً لكون الأمير الشاب أسهم واقعياً في إعداد السياسة الخارجية للدولة ورسمها من حيث الممارسات والنظرية، أي: تكتيكياً واستراتيجياً. ومضى الوقت وتبدل العالم بسرعة عاجلة. وعملاً على تعزيز كيان الدولة تكوّن تصور فيصل السياسي نفسه أيضاً وصيغ مذهبه في تعزيز العلاقات التحالفية مع البلدان العربية الأخرى والابتعاد عن مجابهة الدول العظمى. ومن الجهة الأخرى أدرك الأمير

ولي العهد أنه سيكون لازماً على الدولة النامية البقاء حية بدون الدعم من إحداها.

وخلال مدة ما بعد الحرب اكتملت السياسة الداخلية الخارجية للمملكة العربية السعودية تحت تأثير العامل البترولي الجديد. في أوائل الخمسينيات الميلادية من القرن العشرين كانت العلاقات مع بريطانيا العظمى لأسباب شتى بعيدة عن كونها صافية.. أما مع الولايات المتحدة الأمريكية فعلى العكس تعززت وتجلت في المجالات المختلفة. وبالفعل كانت للولايات المتحدة اهتمامات شديدة ومصصلحة أكيدة في إقامة علاقات طيبة مع الدولة «المستودع البترولي». ومنذ أواخر الأربعينيات الميلادية من القرن العشرين منحتها عدة قروض تقدر بالملايين ومدت فيها شبكة من خطوط السكة الحديدية وفي الجزء الشمالي الشرقي من البلاد بدأت تعمل القاعدة العسكرية الأمريكية التي تعهد الأمريكيون مقابلها بتقديم أسلحة عصرية إلى المملكة العربية السعودية وتهيئة الطيارين السعوديين وتدريبهم. وأبدت الولايات المتحدة مساعدتها في البحث والتنقيب عن الموارد الطبيعية وفي تطوير وسائل النقليات والمواصلات والزراعة وإنشاء طرق السيارات، وبالطبع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في إعداد مكامن البترول واستخراجه. وأصبحت نتيجة لأنشطة شركات البترول الأمريكية في المملكة العربية السعودية الضجة الإنشائية التشييدية وأعمال البناء التي كانت سبباً لاجتذاب الفقراء من الصحراء وإنشاء مدن جديدة ومؤسسات صناعية عصرية. وسواء على هذا النحو أو سواء كان لهذا التحالف مصالحه المتبادلة للطرفين على الرغم من أنه قد يكون من منطوق اللحظة الزمنية الراهنة تأكيد أن هذا التحالف كان فيه بعض المؤاخذات إلا أن المملكة العربية السعودية استطاعت جعل أولى بلاد العالم قدرة وجبروتاً تعمل لصالحها الأمر الذي يعود الفضل الكبير فيه دونما ريب إلى الأمير فيصل.

وعندما أصبح الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود رئيساً للوزراء في عام ١٩٦٢م أعلن ضمن خطابه المنهجي في جلسة مجلس الوزراء يوم ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) خطة محددة للتحويلات الجذرية تحت عنوان البنود العشرة، وكانت فحواها تنص على ضرورة تحديث جميع المجالات من أنشطة الدولة والمجتمع. وتولت الدولة على عاتقها مسؤولية إعداد قانون البلاد الأساس المعتمد على القرآن الكريم والسنة الشريفة والشريعة السمحة وتطوير المجال الاجتماعي والثقافة

والتحصيل التعليمي. وكان مطلوباً استحداث وزارة للعدل ومجلس حقوقي من المثقفين المرموقين والعلماء، وتحسين الظروف لأنشطة جمعية الحفاظ على العقيدة والأخلاق. وإذ وضعت هذه الوثيقة في رأس الحربة تحسين ظروف أبناء الشعب المعاشية، كفلت لجميع المواطنين المساعدة الطبية المجانية والتعليم المجاني وتقديم معونات الدولة لخفض الأسعار على المواد الغذائية. وطبق نظام الضمان الاجتماعي للمعمرين والعجزة ووضع تشريع خاص يحمي الكادحين من البطالة. وسيغدو المذهب المبدئي لدى الحكومة هو الاستقرار المالي والنمو الاقتصادي ودراسة الموارد المائية وتشبيد البنى التحتية وإعلاء مستوى المواطنين المعاشي وإنشاء مؤسسة عامة للموارد النفطية والمعدنية ويؤسس مصرفان أحدهما زراعي والآخر صناعي. وفضلاً عن مخصصات الميزانية تنفق المبالغ المتلقاة من الشركات البترولية المشتركة أيضاً على مشروعات واعدة مختلفة، وأخيراً يُلغى نظام الرق والعبودية وجلب الرقيق العبيد وبيعهم مع تقديم التعويض النقدي إلى مالكيهم.

ووعد الملك فيصل في خطابه قائلًا: «سنبلغ المستوى المعاشي

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

الذي يبقى حتماً في العديد من بلدان العالم وتحقيق العدل الاجتماعي بدون حرمان الناس من الحرية والحقوق والملكية». وينبغي الإشارة إلى أن الملك الإصلاحي استطاع على أية حال تحقيق قسم كبير من خطته الرائعة ولولا أنه لقي حتفه فجأة على نحو درامي لكان قد أنجز الكثير أيضاً من الأمور النافعة لخير أبناء شعبه.

والملك الحالي - وهو الخامس من ملوك الأسرة السعودية - هو الملك فهد الذي يحكم البلاد منذ عام ١٩٨٢ م، وهو السياسي المحنك والإنسان الحكيم، ويتولى في الوقت نفسه مهام منصب رئيس الوزراء والقائد الأعلى للقوات المسلحة كافة.

وكان الملك فهد قد تلقى التعليم الأساس الديني والديني. وقبل اعتلائه العرش شغل على مدى بضعة عقود من السنين مناصب رسمية مفصلية في شتى مجالات النشاط البشري حيث عرض الذهن الرائع والصفات الروحية الرفيعة والإرادة الحديدية وبرودة الأعصاب المحسودة سواء في الاقتصاد أو السياسة الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من العلاقات الوثيقة على مدى الأعوام العديدة مع الولايات المتحدة وجد الملك في نفسه القوة متخذاً الموقف المبدئي الراسخ في

قضية حل النزاع الشرق أوسطي. وفي غضون أعوام عديدة وحتى قبل اعتلائه العرش وحتى الوقت الراهن يسهم الملك فهد أنشط الإسهام في قضية التسوية العادلة لهذه المشكلة المستدامة ناهيك عن الدعم المعنوي والسخاء الدائم في المساعدة المادية إلى شعب فلسطين. ويمكن إطلاق وصف إحدى المراحل الانعطافية لهذه العملية على «خطة فهد» التي اقترحها بصدد سبل حل المشكلة الفلسطينية وهي التي تشكل لب النزاع العربي - الإسرائيلي.

وغير قليل من جهود الملك السلمية موجه أيضاً إلى إقامة علاقات أوثق مع جميع البلدان الإسلامية وتعزيز تلاحم العرب أنفسهم اتباعاً لقول الله تعالى في الذكر الحكيم: **يَوَاعِظُكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ** وقد أسدى مساهمة مباشرة في عملية إعادة مصر إلى حظيرة العالم العربي عقب عقد اتفاقية كمب ديفيد الانفرادية الانشقاقية، وسعى إلى مصالحة الأطراف المتجابهة المتصارعة في الحرب الأهلية بلبنان، وكان المبادر إلى تشكيل مجلس التعاون الخليجي وربما لولا جهوده الكبرى لما انعقد المؤتمر السلمي في مدريد. وقد طرح الملك فهد مبادرة إبداء المساعدة ومد يد العون إلى السكان المسلمين في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

البوسنة والهرسك، وناشد المجتمع الدولي بذل قصارى الجهود الممكنة للحيلولة دون تعاظم ذلك النزاع مخصصاً في الوقت عينه مبالغ مالية طائلة تقدم إلى الإخوة في الدين. وأتذكر كيف أقيمت خلال تلك المدة في جوامع الرياض ومساجدها الصلوات إلى الله العزيز القدير، وانطلق المصلون بالدعاء إلى المولى - عز وجل - متوسلين ضارعين من أجل البوسنة، وقد وضعت عند مداخل معظم المحال العامة صناديق ضخمة كان المتطوعون المتبرعون السعوديون يلقون النقود عبر فتحات لدعم المسلمين المتعرضين هناك إلى الأذى والضيم. وليس بوسعي الامتناع عن التفكير بالخطر الناجم بغتة مهدداً أمن المملكة العربية السعودية وسيادتها ارتباطاً بالغزو الغادر لأراضي دولة الكويت من قبل القوات العراقية أي الحرب الخليجية الثانية. وكانت هذه الدولة الصغيرة تقليدياً الشريك الأقرب إلى المملكة، ثم فضلاً عن ذلك كان ضم الكويت يمكن أن يتحول في مستقبل قريب إلى خطر واقعي داهم على استقلال المملكة العربية السعودية وعلى البلدان الخليجية عامة.

ولهذا فإن قضية إغاثة الجارة المنكوبة لم تطرح حتى على بساط البحث والمناقشة أصلاً بل كان ذلك ضرورة ماسة

وشياً لا بد منه مهما كان من أمر. ولكن على الرغم من أن أغلبية البلدان العربية والإسلامية وجهت الإدانة دون قيد أو شرط إلى احتلال بغداد للكويت فإن توازن القوات المسلحة لم يكن لصالحها. وعندئذ اتخذ الملك فهد قراره التاريخي الذي يمكن عده واحداً من أعلى إنجازات حكمه وهو التوجه صوب العرب كلياً للمساعدة في صد عدوان العراق. وتصف الشخصيات البارزة في البلدان المتقدمة الملك فهد بكونه «مهندس المملكة العصرية»، وهذا حق لأن النجاحات الفريدة المنجزة في البلاد في ظرف عقود السنين الأخيرة مرتبطة جميعها على هذا النحو أو سواه بالنشاط الفعال للعاهل الحالي. على مدى عقد كامل من السنين خلال أعوام الخمسينيات ترأس الأمير فهد وزارة المعارف بوصفه أول وزير لها في تاريخ البلاد. وخلال تلك الحقبة زاد عدد المدارس إلى عشرة أمثاله، وأسست أول جامعة لا في هذه البلاد فحسب وإنما في المنطقة بأسرها. ثم شغل لعدة أعوام منصب وزير الداخلية، وترأس كذلك المجلس الأعلى للبتروك والمعادن واللجنة العليا لشؤون الحج وغيرها. وفي كل هذه الاتجاهات توصل الملك - كما سبق أن ذكرت - إلى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

استحداث تحولات مذهشة حقاً.

وثمة عمل آخر على جانب كبير من الأهمية يمكن وصفه بكونه أحد الأعمال الرئيسية في حياة الملك فهد ألا وهو إعادة البناء الجذرية وتوسيع وإعادة تنظيم المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة ومسجديهما الرئيسن والأماكن المقدسة الأخرى. ويجب على ملايين المسلمين في الأرض أن يكونوا شاكرين وممتنين لعاهل المملكة العربية السعودية على تحسين بناء ذلك الذي لم يكن له في العالم كله مثيل ولا نظير.

تولى الملك فهد قيادة المملكة خلال مدة طيبة من تطور بلاده حين كانت أسعار مواد الطاقة لا تزال بعد عند المستوى المرتفع ومن ثم كانت عوائد العملة الصعبة (النقد الأجنبي) مرتفعة جداً في خزانة الدولة. وهنا خالوا أنه يمكن النوم رغباً. ولكن العاهل أدرك أن الاستغلال النشط للموارد الطبيعية النفطية وسواها سوف يفضي عاجلاً أم آجلاً إلى نضوبها، وأنه لأجل تطور البلاد الحثيث لا بد من إنشاء فروع أساسية للاقتصاد. ومن المعروف أن تطور المملكة الاجتماعي - الاقتصادي يجري على أساس الخطط الخمسية طويلة الأمد التي تعين تنفيذها وتحقيقها خصوصاً إبان أعوام

حكم الملك فهد. وبالنتيجة ظهرت في البلاد وتعمل بنجاح الصناعات الكيماوية والتعدينية والخفيفة والغذائية وتطورت بوتيرة حثيثة الزراعة والبناء الأساس والسكني. ونما إنتاج الطاقة الكهربائية والماء العذب - ٢٩ مصنع إعداب وذلك يمثل المرتبة الأولى في العالم - . وأما قدرات مجمعات تكرير النفط والبتروكيماويات فهي تشغل حالياً المرتبة الأولى في منطقة الشرق الأوسط.

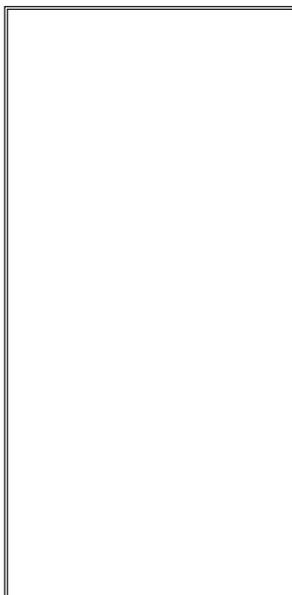
ولقد أقسم الملك فهد اليمين يوم توليه العرش مخاطباً رعيته على أنه لن يدخر وسعاً ولن يبخل لا بالقوى والطاقة ولا بالوقت في سبيل خدمة قضية ازدهار بلاده وأمنها واستقرارها. وقد وفى بوعده اتباعاً لوصايا أبيه، إذ قاد المملكة وأخذ بيدها إلى مستوى من الحياة أرفع وأعلى. ويتمتع أفراد الأسرة الحاكمة بامتيازات كبيرة واحترام عظيم في المجتمع السعودي. ومعظم المناصب المفصلية مشغولة بأفراد الأسرة، الأمر الذي يتيح إمكانية واسعة لقيادة البلاد الفعالة. وتعطي الأسرة الانطباع عنها بأنها كتلة متلاحمة تمسك في يدها بقوة وثقة مقود إدارة الدولة وأنها ليست عرضة لأيّة تقلبات وأزمات ما، سواء أكانت داخلية أم خارجية. ولكن على الرغم من اختلافات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وجهات النظر المتوقعة والمحتملة بين أفراد الأسرة الحاكمة
فإن الحكمة توحى إلى الملك فهد بضرورة إيجاد حلول وسط
وتنازلات متبادلة بغية الحفاظ على استقرار النظام القائم بل
وعلى الدور القيادي للأسرة نفسها.

خواص الطبيعة



تمثل شبه الجزيرة العربية وحدة جغرافية محددة بدقة على الخارطة، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع. ولكونها جزءاً من قارة آسيا فهي كأنها محصورة ما بين هذه القارة وقارة إفريقيا. وتشغل المملكة العربية السعودية قسماً كبيراً من مساحة شبه الجزيرة العربية (٢,٢٤ مليون كيلومتر مربع) وهي تطل على الخليج الفارسي في الشرق - وهو الذي يسمى في المصادر العربية بالخليج العربي -، وعلى البحر الأحمر في الغرب، وكل من اليمن وعمان والإمارات المتحدة من الجنوب. وفي حالة استخدام التشبيهات اللاحقة فإن دولة قطر التي هي شبه جزيرة ومملكة البحرين وهي جزيرة يمكن عدّهما زيادتين في هذه البقعة. أما عند النهاية العليا في الحدود الشمالية - الشرقية من المملكة السعودية فتقع الأردن والعراق والكويت. وحتى وقت غير بعيد لم تكن الحدود مع بعض هذه الدول مرسومة ومحددة بدقة. ولهذا السبب نجمت غير مرة نزاعات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بشأن الأراضي وما ذلك بالمستغرب إذ إن القسم الأغلب من أهالي المملكة يمثلون عشائر رحالة في حالة تنقل مستمرة وبحكم طبيعتها لم يكن أفرادها ليعترفوا بأية حدود أو يتقيدوا بها شكلياً أو واقعياً. وحتى اللحظة الراهنة حلت معظم الخلافات على الأراضي وبوسعي القول: إن العلاقات ما بين الإمارات البترولية في الخليج تكاد تكون مثالية. وقد ساعد على ذلك إلى حد غير قليل واقع أن الأسر الحاكمة في هذه البلدان التي تمتد جذورها إلى الوسط العائلي خرجت في الأساس من اتحاد قبلي عشائري واحد.

وكما سبق أن ذكرت آنفاً فإننا - أنا وزوجي - ، أمضينا غير قليل من الأعوام في العديد من بلدان المنطقة ولكنني لم يسبق لي قط زيارة بعضها. أما فيما يخص أيلمان أراسلي فإنه لكونه - بالإضافة إلى وظيفته سفيراً لدى المملكة العربية السعودية - معتمداً في الوقت نفسه ممثلاً دائماً عن أذربيجان لدى منظمة المؤتمر الإسلامي - كثيراً ما مثل جمهوريتنا أثناء التدابير العديدة التي تعقدها هذه المنظمة في شتى البلدان الإسلامية. وفضلاً عن ذلك فهو كثيراً ما كانت له - وفقاً لتكليف من حكومة بلاده - لقاءات مع زعماء الدول المجاورة والشخصيات المرموقة

من السياسيين والاقتصاديين ورجال المال والأعمال أو ترأس وفوداً في المؤتمرات الدولية. وفي بعض الحالات حين جرت الرحلات إلى أقرب الجارات بالسيارة حرصت على انتهاز فرصة كهذه بغية التعرف على بلدان جديدة ومواضع من المملكة غير معروفة لديّ بعد. وعلى هذا الشكل تسنّى لي زيارة المناطق الأساس في المملكة العربية السعودية. وبوسعي اليوم أن أقول مع نصيب كبير من الثقة واليقين: إنني أعرف جيداً جزءاً كبيراً من سطح الكرة الأرضية يساوي من حيث المساحة كلاً من ألمانيا وفرنسا وإسبانيا مجتمعة هو الذي نطلق عليه تسمية (الجزيرة العربية). يعرف كثير من الناس عن شبه الجزيرة العربية كونها صحراء حجرية عملاقة لا ماء فيها ولا زرع، عديمة الحياة ومنبسطة وشاسعة الأرجاء وامترامية الأطراف. وينبغي عليّ أن أؤكد أن ذلك بعيد عن الواقع الصحيح. أما في واقع الأمر فإن الأقاليم الجغرافية للجزيرة العربية تتميز بالتنوع الكافي. ومن الناحية الجيولوجية تمثل شبه الجزيرة العربية هضبة يبلغ متوسط ارتفاعها عن مستوى سطح البحر (الإقيانوس العالمي) زهاء ٢٠٠ متر، وهي تميل قليلاً من الغرب إلى الشرق. ولهذا فإن ساحل الخليج الفارسي (العربي) أخفض من ساحل البحر الأحمر حيث تقع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أعلى الجبال في المملكة العربية السعودية وهي: جبال السروات وسلسلة جبال الحجاز، وهي تمتد على طول الجزء الغربي لشبه الجزيرة من الشمال إلى الجنوب والانحدارات الانكسارية الحادة تقترب من جهة البحر وتبتعد عنه إلى عمق القارة، وبذلك تشكل وادياً رملياً قرب الساحل البحري. وفي بعضها تقطع الجبال بفجاج عميقة وفضاءات حممية واسعة تطلق على الواحدة منها لفظة «الحرّة».

وهذه رحاب شاسعة من الأراضي غير الصالحة للزراعة بل ولحياة البشر ومغطاة بأحجار سوداء محروقة بمختلف الأحجام تلمع على الصخور تحت أشعة الشمس الساطعة الحارقة. ومثل هذا المنظر الطبيعي الشبيه بسطح القمر يمكن أن يمتد لمسافة كيلومترات عديدة مثيراً في نفوس المسافرين العابرين قلقاً لا يعرف مصدره ولا كنهه. وخلال بضعة القرون الأخيرة لم تلاحظ ولم تسجل في شبه الجزيرة العربية براكين نشطة ولكن وجود الفوهات البركانية المنطفئة والساحات الحممية على طول ساحل البحر الأحمر يدل على النشاط البركاني الشديد في الماضي السحيق. وقد زحفت الحمم الساقطة من المنحدرات جارفة كل ما تصادفه في طريقها متحركة من الغرب إلى الشرق

متبعة انحدار أراضي الجزيرة العربية مفعمة المنخفضات والفتاح. وتفيد المصادر العربية من القرون الوسطى أن آخر ثورة بركانية وقعت أواسط القرن الثالث عشر خارج يثرب - مدينة الرسول ﷺ - حين كادت السيول المنصهرة والمشعشة تبتلع المدينة ابتلاع الحوت أو التمساح لفريسته.

وإلى جدة البوابة البحرية الرئيسة على الساحل الغربي تتحول الجبال إلى سفوح جبلية أما الحقول الحممية فتتقطع مكونة وادياً كانت تمر عبره في الزمان الغابر دروب القوافل إلى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة ونحو ساحل الخليج المقابل. أما في الوقت الحاضر فقد شيدت طرق سيارات رائعة ذات اتجاهين وبعده صفوف تؤدي إلى عاصمة البلاد مدينة الرياض.

وإلى الجنوب ترتفع السلاسل الجبلية أعلى فأعلى منتقلة إلى منظومة الحجاز الجبلية. ويبلغ معدل ارتفاعها عن سطح الإقيانوس العالمي ٢,٥ ألف متر فأكثر. وهنا تقع إحدى أجمل الواحات وأكثرها ملاءمة ومواءمة من حيث الظروف الطقسية وأشهر موقع للراحة والاستجمام لدى سكان البلاد وهي التي تحيط بمدينة الطائف. وهذا الركن من الجنان الواقع على ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر يدهش السائح المنهك بتأثير

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الطريق الممل الرتيب بالدروب المغطاة بالخضرة الزمردية والمحمية بمنحدرات الجبال والنباتات الكثيفة الأشجار والفواكه والزيتون والهواء النقي العجيب بطراوته.

ومنطقة الطائف هي أحد أبرد الأماكن في المملكة وفي فصل الشتاء تكتسي الجبال بطبقة رقيقة من الثلج، أما الحفر غير العميقة فالماء فيها يتجمد إلى القعر. وذات مرة نزلنا أنا وزوجي ضيفين على رئيس الغرفة التجارية الصناعية الذي تحدث إلينا بلهجة الفخور عن منجزات مدينته الرائعة وأرانا متنزه المدينة الجديد الرائع المنظم والمفتوح لتوه. وقد أمضينا ثلاثة أيام في فندق فاخر مريح به غرفات تطل على منظر لا ينسى للسلسلة الممتدة بلا نهاية نحو الأفق من الجبال الخضراء المترابطة فيما بينها بطرق السيارات العريضة ومتعددة الحلقات والقصيرة جداً. وقمنا بزيارات إلى عدد من البيوت المضيافة وعرفنا متعجبين أن الكثيرين من أهالي المدينة يحتفظون في بساطتهم الواقعة خارج المدينة بالأفاعي السامة داخل أقباص لمجرد تجميل المناظر كما قد نفعل مثل ذلك بالنسبة للأرانب أو الببغاء. وقد عرضوا علينا واحدة من هذه الحيات وكانت من نوع الكوبرا. وكان قفصها مأموناً أما الحية فمسألة جداً، ولم تظهر منها أية علامات للقلق والتوتر على الأطفال الصغار في العائلة.

وعلى قدر التحرك نحو الشرق تتحول سلسلة جبال الحجاز إلى سفوح جبلية، أما بعدئذ فإلى هضبة المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية التي تظهر منها في بعض المواضع جبال غير كبيرة الارتفاع وتنتقل انسياباً إلى سهل منبسط وأحياناً إلى الساحل ذي المستنقعات للخليج العربي (الفارسي). وهنا تشغل الكثبان المتحركة من الرمل المذرور رحاباً شاسعة. وفي الوديان الواقعة بينها تختفي أحراش غير كبيرة من نخيلات قصيرة وشجيرات شائكة من النباتات الصحراوية، وأثناء مواسم الأمطار تنمو عليها زهيرات فواحة تُلحظ بصعوبة. وهنا وهناك ترتفع كالحراس الصامتين بصورة شاهقة صخرات عارية نحتتها الرياح. وعلى قدر الدنو من الخليج يتغير المنظر الطبيعي وتكتسي الصحراء بشجيرات غير عالية وجزر من الخضرة الكثيفة. وفي القسم الشرقي خاصة من المملكة تتركز أكبر الواحات حيث تمثل زراعة النخيل وقطف التمور المجال الأساس لأنشطة السكان المحليين. وفي المنطقة الداخلية من المملكة العربية السعودية تشغل الهضبة الجبلية المرتفعة (نجد) الموضع المركزي والتي تمثل سهلاً منبسطاً يحده جبل شمر من الشمال وجبل طويق من المنطقة الجنوبية الشرقية. وفي الجنوب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

امتدت أكبر بيداء صحراوية في شبه الجزيرة هي الربع الخالي كما يسمى وهو عبارة عن رحاب فارغة تبلغ مساحتها مليون كيلومتر مربع قسمها الأكبر مكسو بالرمال المتحركة. وهي تمتد إلى حدود الدولة نفسها شاملة في الشرق جزءاً من أراضي سلطنة عمان وفي الجنوب جزءاً من أراضي اليمن. وهذا الجزء الغامض من الجزيرة العربية له منذ الزمن القديم صيت سيئ. صفوف لا تنتهي من الكثبان المتحركة بصفير من دوي الرياح وهي تنتقل من مكان لآخر فيتلاص بعضها ببعض وتلتهم كل ماعداها بالانهيال والانثيال عليه وكذلك نصيب كل من دفعه المصير إلى هنا سواء أكان غصناً أم حيواناً أم إنساناً ضالاً عن الطريق، ولا أثر أصلاً هنا لأي مصدر للماء ولا يحلق طير في هواء المنطقة ولو من بعيد إلا على نحو أندر من النادر.

يتميز الطقس في القسم الأكبر من أراضي المملكة العربية السعودية بالكمية النزره للغاية من ماء المطر والجفاف إلى حد نادر النظير باستثناء المناطق الجبلية في الحجاز والمناطق القريبة من البحر حيث تجتمع الرطوبة النسبية الشديدة مع الحرارة العالية لتجعل الطقس لا يطاق ولا يحتمل. وفي مدينة الرياض كما هو الشأن في كل القسم المركزي من شبه الجزيرة

يكون الصيف طويلاً (زهاء خمسة أشهر) وتبلغ الحرارة أحياناً ٥٥ درجة مئوية في الظل، أما في السماء فلا تقع العين صيفاً حتى على سحابة واحدة منفردة. والفرق بين درجات الحرارة النهارية والليلية لا يتجاوز بضع درجات فحسب. عندما تخرج من بيت يشتغل فيه جهاز تكييف للهواء إلى الشارع يخالجك الشعور بأنك قد دخلت إلى حمام بخار مغلق بشكل محكم. ولا يستمر الشتاء لأكثر من أربعة أشهر، وخلال المدة من كانون الأول (ديسمبر) إلى آذار (مارس) تتراوح درجات حرارة الجو بين ١٥ - ٢٥ نهاراً و٥-١٨ ليلاً. وأنا أحب هذه المدة الزمنية من السنة في الرياض. والجو عادة صافٍ وصحو والهواء طري. ومن المريح أن تتدفأ على أشعة الشمس وأنت تجوب الحديقة حيث تزدهر بلون وضاء أنواع متجمعة بشكل خاص من الأزهار ذوات القبعات بالألوان الرماني والوردي والأبيض منها الأقحوان والبنفسج والنرجس والخزامى والقرنفل والياسمين وزهرة عباد الشمس وتصل نباتاتها أحياناً إلى طول قامة الإنسان. ويرادك الشعور بأن الأزهار تتعجل لكي تستغل أشهر الشتاء القصيرة فتبدي الطبيعة الجمال والبهاء خلال هذه الآونة القصيرة من عمر الزمان والبرهة المنتزعة من الدهر.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والأشهر الأخرى انتقالية حارة قائظة في النهار وربما تغدو عليّة بليلة في الليالي والأمسيات. والأمطار لا تهطل إلا خلال فصلي الشتاء والربيع وهي عسيرة على التنبؤ بشكل مطلق لا من عام إلى آخر فحسب بل في غضون المدة التي تعد فيها أكثر توقعاً. وقد يحصل أحياناً أن سحائب ثقيلة وواعدة تسد قبة السماء وتغطيها. وينتظر الناس واثقين وعلى يقين ماء الحياة المرتقب والمأمول ولكنه في موضع ما يقطر رذاذاً ويكف، وتتولى الريح تنظيف السماء دافعة السحب إلى جوانب الأفاق، وتتولى الشمس إنجاز عملها المعتاد. بيد أنه تحدث أحياناً زوابع شديدة تجلبها رياح الشمال. وتنهمر غيوث ثقيلة الوقع تتلقفها الرياح وتعصف بها فتقتلع النخيل من عروقتها وأشجار السلم الرقيقة وتكسر بسهولة ويسر الأغصان الأساسية للأشجار السامقة من السدر وتملاً أحواض المدينة إلى حد الفيض، وليس نادراً أن تنزل الضرر المحسوس بالمباني السكنية. وذات مرة انخلعت من سقف منزلنا وتطايرت قطعة كبيرة من القرميد. وحطمت قطعة برد بحجم قبضة اليد مصباح النيون في الشارع. وتكون الرياح القارية شبه الاستوائية مصحوبة عادة بزوابع. وتحمل الرياح الصحراوية الساخنة سحائب من الغبار والرمل وتنفذ عبر شقوق النوافذ المغلقة وتغطي كل شيء في الجو برغوات

ترباية. وعلى مسافة قريبة فقط حتى ضوء مصابيح السيارة لا يكاد يميز من الجهة المقابلة. وفي طقس كهذا أفضل ما يمكن هو الامتناع عن الخروج بل وحتى الإطلال عليه من الشبايك.

وليست بالاعتيادية هنا أيضاً عواصف البرق والرعد. فالبرق هنا كأنه يشقق قبة السماء كلها متنامياً من خط الأفق على شكل أغصان الأشجار. ويا له من مشهد غريب ونادر المثال والنظير! وأتذكر حين كان أحفادنا في زيارتنا خلال العطلة الشتوية طلبوا منا إيقاظهم ليلاً في حالة حدوث البروق لئلا تفوتهم مشاهدة منظر جميل كهذا.

ومع الأسف؛ فإن الأمطار في القسم المركزي لشبه جزيرة العرب نادرة وشحيحة. وعندما لا تكون أمطار فليس ثمة أنهار. ولكن ثمة ناحية واحدة أخرى منفردة في نوعها لتضاريس الجزيرة العربية، وهي ما تسمى بالوادي. والوديان هي المجاري اليابسة للأنهار والسيول وليس نادراً ما تكون عميقة بما فيه الكفاية وبشواطئ حجرية حادة القطع. وفي الماضي السحيق كان المناخ في الجزيرة العربية أقرب إلى اللطافة والرواء، كانت هذه الشقوق تؤدي وظائفها المباشرة بحسبانها سواقي، إلا أنها حالياً تبدو وهي جافة كالأخاديد الضخمة وأشبه ما تكون بالتجاعيد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في الأوجه على الأسطح الصحراوية. وهي في الغالب متقاطعة على أراضي شبه الجزيرة العربية وهو أمر يستدعي مشاعر الحيرة وعدم الارتياح. وأثناء أعوام منفرجة بعينها فحسب في أوقات الأمطار الغزيرة يمتلئ بعضها بالسيول الموحلة وأحياناً المواجهة بما فيه الكفاية أو التيارات الطينية الكثيفة وليس من النادر جرفها كل شيء يعترض طريقها.

وعلى الرغم من أن هذه الوديان تبقى جافة في غضون مدة طويلة من الزمن، تكتشف في بعضها على عمق غير كبير من قعرها مياه جوفية يستخدمها السكان المحليون لسقيا الحقول الزراعية والبساتين ومزارع النخيل، وبخاصة في مناطق الساحل الخليجي حيث تتراكم كمية كبيرة من المياه من الغرب إلى الشرق على انحدار الطبقات الحافظة للماء من هضبة الجزيرة العربية. ويحفر السكان الريفيون هنا في طبقات الصخور الآبار ويحصلون منها على ماء الشرب النقي. وتكتشف نافورات الماء العذب حتى في الأمكنة الضحلة من الخليج حيث كان صيادو الأسماك والبحارة منذ الزمن القديم يملؤون منها القرب الجلدية بالماء العذب الصالح للشرب.

والماء بالنسبة إلى سكان المملكة العربية السعودية يعد تقليدياً

وقلما يوجد ما يصلح للمقارنة بها في هذا الشأن وحتى حالياً يوجد تقريباً في كل قريلا بمدينة الرياض حوض أو حوضان أو حتى ثلاثة أحواض خاصة. والذاكرة الموروثة للسعودي لا تسمح له بالتبذير على غير حساب في صرف هذه المادة النفيسة. وفي حالة التصديق بالشائعات فإنه حتى الماضي القريب كان يشعر بالنقص الدائم في الماء من مصادره الناضبة وغياب الأمطار بعد طول انتظار، وأثناء رحلات البدو الطويلة حدث الاضطرار حتى إلى شرب بول الإبل وللأغراض العلاجية غسلوا به الأطفال المولودين حديثاً.

وتشغل المملكة العربية السعودية المرتبة الأولى في العالم من حيث كمية مصانع التحلية (إعذاب الماء) وقد بلغ عددها - كما ذكرنا - ٢٩ مصنعاً، وأخذاً بهذه الحقيقة في الحسبان ووجود عدة مصادر طبيعية للماء في مناطق شتى فإن الماء في البلاد متوافر بكمية كافية. بيد أن سعر قنينة ماء واحدة تحتوي على لتر واحد منه يساوي ضعف سعر اللتر الواحد من البنزين ولكنها متاحة لكل فرد وفي متناول يده؛ نظراً لأن سعر اللتر من البنزين يزيد قليلاً على ربع الدولار. ويتخذ سكان المدن إزاء الماء موقفهم حيال لعبة محببة وفي الوقت نفسه بالغة القيمة. وهم ينشئون في حدائقهم الأحواض والبرك وشتى الأنواع من مساقط المياه

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والشلاتات الصناعية الصغيرة والبرك المشيدة التي تسبح فيها الأسماك الديكورية وأسماك الزينة المجلوبة من البحر الأحمر.

وهم ينظمون حدائق صغيرة ومنتزهات رائعة تتطلب السقي اليومي في ظروف الجفاف هذه. وفي الوقت عينه عند ملاحظة كمية من الماء أكثر من اللازم والمعتاد عند بوابة حديقتك أو باب دارك ربما نشأت عقب غسل السيارة يهااتفك أحدهم بالتأكد ويستفسر عما إذا كان قد وقع حادث ما أو لعلك نسيت إغلاق الصنبور في الحوض وما إذا كانت تلزم لك مساعدة. وللمعلومية إذا كنت ترش الشارع بانتظام فقد تكون عرضة لفرض الغرامة عليك بغض النظر عن كونك تدفع ثمن ما يسجله العداد من مقدار الماء المصروف. ومواطنو البلاد على يقين بأن استخدام الماء على غير الوجه المطلوب بمثابة العمل غير الأخلاقي ويعدون التنبية إلى ذلك تدبيراً تربوياً صالحاً ويؤيدونه. وثمة تفصيل آخر طريف هو أن أصحاب الكثير من الممتلكات الخصوصية يمدون إلى الجهة الخارجية من جدران بناياتهم منظومة أنابيب إسالة الماء تنتهي بصنبور لكي يستطيع أي عابر سبيل عند مروره بالقرب أن يطفئ غلة عطشه أو يستعمل الماء في الوضوء لتأدية الصلاة.

وبالنسبة إلى ساكن الريف في المملكة كان الماء دوماً وما

يزال ضرورة ماسة. ولهذا خلال المدة الشتائية - الربيعية حين لا تحمل الرياح من المحيط الهندي الغيث المرجو، يضرع المصلون في جميع مساجد البلاد وجوامعها في صلاة الاستسقاء المعروفة بمراسيمها الخاصة بها. والنباتات في المملكة العربية السعودية بالغة الشح، الأمر الذي يسهل تفسيره بإرجاعه بالدرجة الأولى إلى غياب الكمية اللازمة من مصادر الماء العذب وندرة الأمطار أو عدم انتظامها وأنواع التربة الرملية والحجرية غير الصالحة للزراعة والفلاحة ودرجات الحرارة المرتفعة فوق الحد المحتمل على الأقل في غضون خمسة أشهر سنوياً. وعلى سبيل الاستثناء تبدو البقع القليلة من الواحات والقطاعات الخضراء في سفوح الجبال ومنحدرات المرتفعات.

وأكثر ما يصادف من الأشجار المزروعة في شبه الجزيرة التي تعود بدايتها إلى أعماق التاريخ السحيق هي غابات النخيل. ومن هنا فهي منتشرة في بلاد ما بين النهرين ومصر وسواهما من البلدان، وقد أصبحت أكثر النباتات جدارة بالاحترام في منطقة الشرق الأوسط وكما قال الشاعر: «وزرنا أشرف الشجر النخيل»، ولا وجه للاستغراب بهذا الشأن فإن النخلة في عهد ما قبل ظهور النفط واستخراجه وتصديره شأنها شأن الجمل

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أيضاً كانت الطعام الرئيس تقريباً للسكان المحليين. وثمارها التي هي التمور غنية بالغذاء ومختلف الفيتامينات والعناصر المستخدمة على نطاق واسع في الصناعات الغذائية، ويستفاد من النوى في الصناعة الصيدلانية - العقاقيرية وفي تحضير مختلف ألوان الطعام والأكلات وحتى مشروب البن (القهوة). ويعرف الناس المسنون الكثير من الوصفات المعتمدة على التمر لعلاج الأعين والمعدة والكلى وسواها من أعضاء الجسم. ويقال: إنه بفضل هذه الأثمار الحلوة بالذات يمتلك السعوديون ذاكرة قوية إلى حد عجيب.

ومنذ القديم كان السكان المحليون معتادين على تغطية سقوف البيوت والبنائيات الصيفية والريفية بسعف النخيل.

وهي تستعمل كذلك في صناعة الحصر التقليدية والسلال والحقائب الخاصة بالحمل والنقل التي على جانبي حيوانات الركوب وعلى ظهورها. ومن جذوعها يقطع مهرة الحرفيين الكرب وينجرون مختلف الأدوات ولوازم المطبخ ويركبون قطع الأثاث. وكونها واحداً من رموز البلاد الأساس فإنه عقب صدور المرسوم عن تشكيل المملكة العربية السعودية الموحدة يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٢م اتخذت النخلة جزءاً لا يتجزأ

ولا يستغنى عنه من شعار الدولة. وأثناء الاحتفالات التي جرت مؤخراً لم تُهمل هذه الشجرة الحبيبة ولم تُحرم من الاهتمام والعناية والرعاية. وقد زينت النخلات الحية الشاخصة بشموخ في الشوارع بأسلاك المصابيح الملونة ومصابيح النيون وقد أنيرت بالكشافات الكهربائية من جدران البيوت المجاورة. أما رمز هذه المناسبة فقد أصبح حصن المصمك الشهير الذي استولى عليه في حينه الملك عبد العزيز تحت ظل النخلة المرسومة فنياً. وهذه الشجرة بالغة الجمال وهي رشيقة فارعة يبلغ ارتفاعها غالباً علو بيت من ثلاثة طوابق ذات تاج هندسي الشكل ومتناسب وليست كثيرة الطلب فهي لا تحتاج إلى السقي المنتظم والعناية الزائدة بها. والشتلات المجاورة لجذرها ينبغي رفعها لكي تجود النخلة بمحصول كبير، وسعفاتها السفلى يجب قطعها على الدوام.

وبنتيجة ذلك يصبح جذعها مضلعاً يشبه قشرة ثمرة كبيرة من شجر الأناناس. وذات مرة عثرنا في مدينة الطائف بالحديقة المقابلة للفندق الذي نزلناه على نخلة ذات جذع منتفخ بشكل بيضوي وكانت في واقع الأمر تشبه بالفعل أناناسة ضخمة. وأنا أحتفظ في ألبومي للصور الفوتوغرافية بلقطة لهذه الحسنة غير العادية.

وتزدهر النخلة في الربيع أواخر شهر آذار (مارس) وتتمو

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عندنا في حديقتنا حسناء كهذه. وفي كل مرة تصبح كمعجزة غير منتظرة عندما تظهر على كربها تحت التاج الأساس الحبيبات التمرية الصفراء الفاتحة (الرطب) متدلّية على شماريخ العذق العرجوني، وهذه هي البداية لتكوين التمر.

وهذه الحبة الصلبة وكأنها معدنية حديدية كأنما تصعد من الجذع. وتتباعد الشماريخ في العذق لتفسح المجال للتمرات كي لا تتزاحم أو يعرقل بعضها بعضاً. وبعد مرور مدة معينة يحين موعد التلقيح. وهذه عملية تتطلب الجهد الكبير وتحتاج إلى الوقت والصبر. وإذا أخذ في الحسبان أن مساحة بعض غابات النخيل الخاصة في المملكة تبلغ عشرات من الكيلومترات المربعة يأخذك العجب كيف يمكن معالجة مثل هذا العدد من أشجار النخل يدوياً في ظرف وقت قصير كهذا (زهاء عشرة أيام).

وهو ما يحدث ويتم. ويتضح أن زهاء ٩٠٪ من أشجار النخيل من الجنس الأنثوي و ١٠٪ فقط من الجنس الآخر. وفي البداية يعين المتخصصون بالنظر الجنس الذكوري ويتسلق العمال عليها - وهم الذين تطلق عليهم في المدينة بالحجاز تسمية النخالة - نسبة إلى النخل - ويأخذون الطلع اللازم بعد شق قلبه التي يجففونها بعدئذ ويذرون محتواها إلى مسحوق وهذا هو اللقاح،

ثم يتسلقون النخلة الأنثى وبمساعدة أداة خاصة يشقون غلاف تمر المستقبل. وفيما بعد تفوح الشجرة الكريمة بصب العصائر فتظهر الثمرات المذهبة وتعطي المحصول في ١٠-١٥ كيلوغراماً وأحياناً أكثر من كل نخلة! وليس من النادر أن أصحاب النخيل يتركون قسماً من المحصول باقياً في مكانه على الأشجار حتى حلول عيد الفطر، وأقسم لكم أن التمور تظل محافظة على مذاقها اللذيذ ونكهتها العطرة على مدى أشهر. ومعروف أيضاً منذ أعماق الزمان أن هذا الثمر يمتلك صفات كبيرة القيمة.

وتعلن الأسطورة أن جنود الإسكندر المقدوني كانوا يأكلون كل يوم بضع تمرات وكان ذلك كافياً لاستعادة القوى واحتفاظ المقاتلين بالروح الكفاحية.

واليوم أيضاً تشكل التمور جزءاً أكيداً من لوازم حياة المواطن السعودي، ففي الصباح على الريق من المعتاد شرب كأس من الماء وتناول ٣ تمرات. وهذا بمثابة شحنة من الطاقة طيلة اليوم. وقبل وجبة الغداء وكذلك في الساعة السابعة تكرر هذه العملية التقليدية. وفي فصل الشتاء يتناول الكثيرون هذه الثمار النافعة في غضون اليوم لغرض «تدفئة الجسم». وفي الزيارات أول ما يقدم لك في صينية جميلة أو صحن هو التمر نفسه. أما

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في شهر رمضان فهو إجراء يومي لا بد منه. وعند غروب الشمس يأكل الصائم ثلاث تمرات أو أكثر وبعد هذا فقط يشرع في أداء فريضة الصلاة. ومن التمور تصنع أنواع الدبس والعصير والبسكويت وغيرها من السكاكر وحتى أنواع العصير التي - كما يقال - تنظم عملية التبادل والتمثيل الغذائي. وبإيجاز ينتفع من الصفات والمزايا النادرة لهذه الثمرة على النحو الكامل.

والتمور المجففة، والمعلبة تحافظ على صفاتها المذاقية على مدى عام كامل. والمألوف حفظ الطري والطازج منها في الثلاجة أو المجمدة، وعندما لا تكون هذه الأجهزة موجودة بعد كان السكان المحليون يعلقون العذوق المحملة بهذه الثمرة في أمكنة جيدة التهوية وبهذا الشكل يحافظون عليها لمدة طويلة. والتمور هي أيضاً هدية رمزية وكأنها تمثل أكبر قيمة دليلاً على كرم البلاد وسخائها.

وذات مرة تلقت عقيلات السفراء الأجانب المعتمدين لدى المملكة الدعوة للقيام بزيارة إلى المدينة المنورة. وكانت هذه الدعوة موجهة من الأميرة عقيلة أمير المدينة وغادرنا إلى هناك على متن الطائرة الخاصة للأميرة وأمضينا يومين ساحرين في تلك المدينة المقدسة لدى كل مسلم. وفي الختام قدمت لنا هدايا صنابير رائعة مرصعة بالصدف وملأى بأنواع فاخرة من التمور الطازجة.

البدو



على مدى قرون عديدة قام في شبه الجزيرة العربية نظامان اجتماعيان هما: السكان الحضر المتمركزون حول الواحات ومصادر المياه، والقبائل البدوية التي تنقلت على الدوام بحثاً عن المراعي لمواشيها. والصفة التي تطلق على هؤلاء الأخيرين هي كلمة «البدو» جاءت من مفردتها البدوي أي: ساكن البادية. والبدو المنعزلون عن العالم الخارجي بالجبال والحقول الحممية العقيمة من النباتات والرمال العذراء أي: التي لم تطأها أقدام البشر والأراضي السبخاء التي تمنعها الأملاح من أن تكون خصبة ممرعة؛ عاشوا جيلاً بعد جيل وفق أعراف أخلاقية غير متغيرة لم تطراً عليها أية تأثيرات خارجية. ومن الجهة الأخرى كان لهم هم أنفسهم تأثير على الجيران وهم السكان الواقعون في التبعية إليهم نظراً لأن جميع الاتصالات بين الأخيرين تحققت بمساعدة الرحل. زدّ على ذلك أنهم فرضوا الإتاوة على القوافل التجارية المارة عبر الدروب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الخاضعة لسيطرتهم أما عند الحاجة فقد جابوا مشتتين في الرحاب الصحراوية التي لا تحدها حدود معينة وكأنها بحار بلا سواحل حيث شعروا حتماً بالطمأنينة وأحسوا حقاً بأنهم سادة الموقف وأصحاب الديار وأنهم كاملو السلطان. والمنعة على الاقتناص كانت دوماً حصنهم الحصين ودرع حمايتهم فتمتعوا بالصون من كتائب الرومان والجيوش الفارسية والمصرية ومن أي أغراب فاتحين آخرين تقاطروا على المنطقة مخلفين الحاميات العسكرية في المدن الساحلية، ولكن لم يتغلغلوا قط لمسافة عميقة في كل شبه الجزيرة العربية. وهذا كله حافظ على رابطتهم الاجتماعية كاملة وسليمة وكان له أثره في تكوين أفرادها النادر وصياغتهم.

وهو بالدرجة الأولى الغريزة الدينية العميقة المتمثلة في الإسلام والشعور بالأخوة والكرامة والروح الاستقلالية والفخر بالنسب والشجاعة والبسالة والزهد وروح المرح ورباطة الجأش والسكينة الوقورة، وفي الوقت عينه الشغف المتناهي بالشعر. وبالنسبة إلى البدوي اكتسبت الحرية دوماً الأهمية الأولية من الدرجة الأولى ولهذا فضل الحياة المفعمة بالحرمان والأخطار على الراحة الموهومة. وكان الأصل العريق والدم الصافي

كذلك من أكبر القيم ومصدر الفخر والاعتداد بالانفس لدى أبناء الصحراء الذين يعد معظمهم الذرية المباشرة لخليل الله النبي إبراهيم عليه السلام، وبالطبع كذلك السمعة النقية التي لا غبار عليها ولا تشوبها شائبة وهي التي كانت دوماً المصدر الأساس للتأثير. والرسول الكريم محمد ﷺ تلقى التربية على مدى عامين من حياته في صباه لدى البادية. فكانت والدته الأرملة - شأن الأمهات اللاتي - يعشن في بيئات ملكية - تعتقد وتؤمن بأن حياة التقشف في الصحراء نافعة وهي تقوي صحة ابنها وتصلب عوده.

ومرت القرون وانهارت الإمبراطوريات وزالت ولكن لم يتغير أي شيء في أعماق بيدااء الجزيرة العربية عدا كون القبائل قد انتقلت إلى أشكال الترحل الجديدة وفقاً لدورات الطبيعة.

ومن النادر توغل الأوربيين إلى هنا، وبدت لهم حياة سكان البوادي والرحاب الرملية خفية وغير مفهومة. إلا أنها استمرت تسير على قوانين الآباء وتقاليد الأجداد حيث كان كل شيء محددًا جلياً بكل وضوح.

وقبائل البدو الرحالة الذين يعدون أنفسهم أرستقراطيي الصحراء تتألف من بطون وأفخاذ وهذه بدورها من أسر

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وعوائل. والبطن أو الفخذ هو عبارة عن وحدة مجمعة من الأقرباء الذين تربطهم صلة الدم، ولكن الأمر لا يقتصر على هذا. وقد دخل فيها أبناء القبائل الأخرى عن طريق التآخي والتحالف وكان أفرادهم ينادون بعضهم بعضاً بالأخوة ويشعرون بأنهم إخوان وكأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة وكانت محظورة بينهم المنازعات والعداوة والبغضاء التي كان من الممكن أن تقضي إلى إراقة الدماء وإزهاق الأنفس والأرواح، الأمر الذي كان سيؤدي لا محالة إلى أخذ الثأر والانتقام من القاتل بالقتل في شكل متسلسل. وكان الفخذ يضم عدة خيم وتسكن في كل خيمة منها أسرة واحدة. والخيمة مقسومة إلى شطرين: النسوي منها أوسع وفيه تخزن الأفرشة والسجاجيد والبسط والأغذية وسواها من اللوازم البيتية. ويتجمع هنا الأولاد الصغار في الأوقات الباردة ويطهى الطعام للأسرة كلها. والآخر وهو القسم الأصغر مخصص لاستراحة الرجال واستقبال الضيوف. ولم يكن يسمح للإناث بالظهور فيه إلا للخدمات غير مكشوفات الوجوه.

وكان الأطفال يشغلون موضعاً خاصاً في الأسرة. والتربية البدوية للجيل الناشئ تستحق أن يتحدث عنها. وكان ممكناً

- في رأيي - اتخذها قدوة إيجابية للقسم الآخر من العالم ولكن على شرط توافر وسط صحراوي مماثل معزول ومفرغ لأطفالنا.

وفي العادة كانت تتولى التربية خصيصاً الوالدة نظراً لأن الوالد مضطر إلى إمضاء قسم كبير من وقته بعيداً عن البنين. وكان الولد يعرف من أمه التصرف الذي يستحق الحمد والإشادة وما ليس كذلك فهو مذموم ومطروح، وذلك عن طريق المثال والأسوة وليس بالعنف والإكراه. وبشكل ما منذ العام الواحد حين يبدأ الولد بالمشي يترك لوحده إلى درجة كبيرة: يأكل من الصحن الكبير الطعام المشترك وإذا سقط على الأرض وأخذ يبكي لم يجد التعاطف من والدته التي أوحى له بأن بكاء الرجال عيب وعار ومخزاة لهم. وبالنتيجة فإن الطفل عند مناهزته سن الرابعة من عمره كان يكف عن ذرف الدموع بمناسبة وبدونها ولسبب موجب أو بدونه. لم يكن يعاقب بدنياً ولكن في حالة اقترافه دناءة بريئة كان يعزر عليها في شفقة. ومنذ الطفولة الباكرة (وفي سن العامين إلى الثلاثة أعوام) حين كان الغلام قادراً على الذهاب بمفرده إلى القسم الرجالي فإن تصرفه يقع تحت أنظار الغرباء وتتشكل سمعته في المستقبل

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عن طريق أفعاله وسلوكه. فكان البالغون يراقبون تصرفاته ويتذكرونها والذاكرة لديهم قوية. وفي سن السابعة يعهد إلى الصبايا تولي طهي الطعام وتقديم القهوة إلى الضيوف (وهذا إجراء مسؤول وله أهميته).

أما الصبيان فكان موكولاً إليهم عند الضرورة حماية شرف الأسرة والدفاع عن كرامتها. ومن هذا العمر نفسه كان الولد يقرر بنفسه ما الذي يجب أن يشتغل به. أما عند ظهور المدارس فإن القرار راجع إليه فيما إذا كان سيتعلم فيها أو لا. وكان تدخل الوالدين يعد مجانباً للصواب وغير مناسب. وقد منح هذا المجتمع من البالغين المحبة والحماية إلى الجيل الطالع وكذلك الشأن إلى جميع أفراده الآخرين، ولكن ليس بسبب صغر السن وإنما لعلاقة النسب. وهكذا كان الذي يصوغ نفس الصبي وخلقه هو الوسط الذي يعيشه.

وليس من قبيل المصادفة العرضية أن سكان البادية يعدون تربية خمسة أطفال في الأسرة أسهل من تربية طفل وحيد. ومهما بدا مستغرباً كانت المماحكات والتحرشات والتندرات في العملية التربوية للولد الصغير هي الوسيلة الأكثر فعالية والطريقة العامة الشاملة، الأمر الذي لا يتمازج بأية حال من

الأحوال مع المذهب الأوروبي في هذا الشأن. والبدوي يولي أهمية بالغة بروح الدعابة والمرح عموماً. والأعراب لا يترددون في وقت الفراغ عن الانخراط في المعارك الكلامية الهازلة وقول النكتة ولو على النفس مستخدمين شتى التعابير البلاغية والحكم والأمثال والتلميحات الساخرة. وقاموس لغتهم واسع جداً وهم يعرفون الكثير من الأساطير والحكايات والمأثورات التي كثيراً ما تعد جزءاً من تاريخهم. ولحسن الحظ تم جمع الكثير من مؤلفات هذا التراث الشفهي ونشره، وإلى اليوم أيضاً يعيش في الوسط البدوي الموشك على الزوال غير قليل من الشعراء الموهوبين على الفطرة.

والمرأة - بالنسبة إلى سكان الصحراء - لا تستطيع العيش بدون رجل، كما أن الرجل لا يستطيع أن يعيش بدون امرأة ولهذا في حالة وفاة الأخ يكون البدوي ملزماً بالتزوج من أرملته حتى لو كانت لديه زوجته. وقد حدث هذا في الزمن القديم كثيراً بسبب الحروب القبلية الدائمة. وكان ذلك منطقياً فالمرأة في الظروف الصارمة للحياة آنذاك كان مقضياً عليها بالفناء لعجزها عن إعاشة نفسها وإعالة أطفالها. ثم إن الرجل أيضاً كان محتاجاً إليها لكونها المحافظة على المأوى وربة البيت. وهذا التقليد في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تعدد الزوجات ظل باقياً حتى أيامنا الحاضرة وبالأساس في الوسط الاجتماعي للمدن.

كانت حياة المرأة البدوية ثقيلة الوطأة وشديدة الصرامة. فكانت أعمال التدبير المنزلي تتطلب جهوداً بدنية خارقة. كانت تتولى تصليح ما في الخيمة من الأشياء المستصعبة على الحمل.

وهي تستجمع الرمل وتطحن الحبوب في مجارش بدائية وتغسل الملابس المتسخة وتطهو الطعام وتنظف الصحون والأواني مع العجز الدائم في توفير الماء، وتنسج المفارش ووجوه الوسائد وكذلك الأبسطة والمحافظ والسلال وسواها من اللوازم المنزلية. وكانت دوماً مستعدة لقبول الضيف غير المتوقع وعلى غير انتظار. وكانت السمعة بالنسبة إلى البدوية أيضاً كبيرة الأهمية كما هو الشأن بالنسبة إلى جميع أفراد المجتمع البدوي. وعلى الرغم من كونها كانت تخرج إلى الجمع محجوبة الوجه بالنقاب شاعت دوماً في المجتمع البدوي الفكرة بأن احترام الأسرة مكفول بفضل نسوتها. وكان هذا يتطلب قدرتها على تربية الأطفال على خير التقاليد البدوية وأن تكون طيبة وطيبة وتنظم التدبير الاقتصادي وباعتدال، وليس هذا في الصرف وحده، متوخية

وجوه المنفعة والجدوى وتحضر الوجبات، كما عليها أن تكون قادرة على أداء المهمة العويصة والحرجة في حسن الاستقبال كما ينبغي للضيوف النازلين دونما سابق إنذار.

وكان البدو دوماً كرماء للضيوف أسخياء بالمال إلى أبعد الحدود. وهذا المفهوم ينطوي على منظومة متكاملة من القيم العشائرية المتألفة من التوليف المعقد بين التصرفات الرموزية والتقاليد المرعية. كان الطعام والمبيت بالمعنى الحرفي رمزين للحياة والأمن، وأي إنسان في الصحراء له الحق في استقباله بترحاب وبشاشة وإكرامه وإطعامه على أحسن وجه. وعلاوة على ذلك تبقى نار الموقد مشتتلة بشكل دائم عند المدخل إلى خيمة أكثر أفراد القبيلة الرحالة توقيراً ومنزلة؛ تحسباً وترقباً لظهور عابر السبيل المتوقع الذي قد يضل أو يحل أو ينزل.

ولأجل حسن استقباله تفرش على الأرضية السجاجيد وتجري المراسيم التقليدية لسقي القهوة وتقديم أدسم الطعام وأغزره، وعرض المبيت في أحسن الظروف الممكنة ولا يسأل القادم قط عن خططه وشؤونه ومن أين جاء وإلى أين يتوجه. ويعد الرجل المضيف محترماً ولهذا فإن البدوي الذي لا يستطيع تأمين الطعام أو الحماية للضيوف محروم دوماً من احترام أبناء

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عشيرته ولطف معاشرتهم. ومن ناحية أخرى إذا امتنع القادم عن قبول ضيافة البدوي حق للأخير عدّه خصمه وعدوه.

ولديهم أهمية خاصة باستقبال الضيوف المفاجئين وإذا ما لوحظ اقترابهم من بعيد فسرعان ما يبدأ جميع أفراد الأسرة وحتى صغارها يتهيؤون لاستقبالهم والترحيب بهم ويذبح لهم عنز أو حمل. ويغلى لهم الماء. وتحجب النسوة وجوههن بالنقاب. ويحدث أحياناً أن الريح الهابة بقوة تدفع وتقذف سحب الرمل بحيث تتعذر رؤية أي شيء أو أي أحد على مقربة خطوات. وإذا بفرسان يظهرون بغتة من بين هذه العاصفة الرملية ويبدون عند الباب مباشرة أو بقربها على قاب قوسين أو أدنى، وعندئذ يهب صاحب الدار للقائهم بالترحاب وعبارات التهليل والتسهيل ويوجه إليهم الدعوة الملحة الصادقة والصادرة من أعماق النفس للتعاضل بالدخول إلى الخيمة معززين مكرمين. ويجلس الضيوف على السجادة مباشرة بعد خلعهم الأحذية متكئين على الوسائد الوثيرة المصفوفة عند الأطراف، أما صاحب الدار فقد أشعل الحطب في الموقد وبدأ يطهو حبوب البن في أنبوبتها النحاسية الخاصة. وهو لم يرهق القادمين بأسئلته الاستفهامية أو أحاديثة الملحة إذ إنهم ولا بد قد عانوا مشاق الطريق ويبقى ينتظر متى

بيدؤون هم بتجاذب أطراف الحديث. ويواصل البدوي إحماء حبوب البن متأنياً ومع الاحتراس على النار المعتدلة لئلا يحرقها حتى يغدو لونها البني مشرباً بلون الذهب. ويجب أن تكون لساعة على النار ثم تنحى جانباً وتوضع في آنية لأجل التبريد. وهو يوكل الأعمال الأخرى إلى النساء أو أكبر البنات رغم أنه يستطيع القيام بذلك يكله إلهن بوصف ذلك دليلاً على توقيره للضيوف واحترامهم وإكرامهم. وبعد تخليص حبوب البن من قشورها تصب في نجر حجري أو معدني وتدق وتسحق. وعادة يقوم بذلك صاحب الدار بنفسه. ثم تجهز. ومن ثم يصب مسحوق القهوة في دلتها الخاصة ذات المقبض الطويل ويسكب عليها الماء وتوضع على الفحم الملتهب. وبعد بضع دقائق من غليها توضع على جانب بمقربة لهنيهة ثم يصب السائل في آنية أخرى ويذر عليها من مذرور الزعفران وبعض القرنفل اليابس المسحوق وحبوبات الهيل المنظفة من قشرتها بغية إعطاء النكهة الطيبة.

وكل مرحلة من هذا الترتيب التقليدي أنجزت في احتفال وتوقير كبيرين وبهذا أراد صاحب الدار جعل الضيوف يشعرون بالارتياح والانسجام لديه في الخيمة، ومن الجهة الأخرى يعرض امتنانه وفرحته لكونهم شرفوه بالعناية وأبدوا له بوجودهم في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ضيافته كل التوقير والتبجيل والاحترام. أما بخصوص مراسيم شرب القهوة وارتشافها فإن ذلك كان يمثل جزءاً لا يقل أهمية في إنجاز التقليد ومراعاة الأصول من تحضير هذا الشراب الذهبي وقد تحدثت عن ذلك في بداية كلامي وليس بوسعي سوى أن أضيف أن الدلة ترفع إلى مستوى الرأس أو أعلى من ذلك قليلاً وأن الصبة ذات النكهة من البن المطبوخ ينبغي ألا تزيد على الحد اللازم. وبغية تحقيق ذلك لا بد بالطبع من توافر خبرة معينة ومران مسبق. تصب القهوة على قلة لكي تخفى قعر الفنجان الجميل بمقدار جرعة واحدة للارتشاف، ولأجل ذلك حرص القدامى على أن يحشروا في فم البلبولة للدلة حزمة من ليف النخيل. ويمكن ارتشاف كل ما تطيب له النفس من هذه الجرعات الضئيلة، إلا أنه لم يكن من المستساغ ملء الفنجان حتى حوافه. بل إن ذلك لو حدث لكان قد عدَّ بمثابة الإهانة عن قصد. ومراسيم تقديم وارتشاف القهوة شأن العديد سواها من مظاهر حياة الرحل وأنماطهم قد أشير إليها في قصائدهم بأوزانها المبتكرة والبديعة. ولقد لاحظت غير مرة شعراء الصحراء هؤلاء وهم جالسون بتأمل وإمعان فكر حول مواقفهم على خلفية خيمهم المخططة باللونين الأسود والأبيض

أو يرعون قطعان الماشية مرسلين بصرهم على مدى الأفق المنبسط وكأنما إلى ما لا نهاية أو نحو السماء ذات البروج.

ورأيت في ذلك رغباتهم وطموحهم وقدرتهم على تجميل حياتهم وجعلها أحلى وأغلى بالقليل من الوسائل والأسباب المتاحة للهناء والراحة. وتصيدت وقتصت على ملاح وجوههم وصفحة محياهم تارة الابتسامة الكالحة الصفراء وطوراً المعبرة عن الفرح الغامر والحبور الطاغي، ولمحت في نظراتهم الوادعة من الأعين التي يشع بياضها اللامع الصافي حكمة القرون وقررة الأعين، ويحق لهم كونهم الورثة البائرين للثقافة العربية والإسلامية؛ لأنهم قد استطاعوا حملها ونقلها وإبلاغها والحفاظ عليها في هيئتها الأولى تقريباً وحالتها الابتدائية التي كانت عليها في القرون الغابرة حتى يومنا الحاضر هذا.

وبالطبع لم يكن سهلاً أن يتسم المجتمع السعودي بأحادية النوع. ففي الرحاب الواسعة الممتدة على القطاعات الفسيحة والأرجاء الشاسعة عدا الرحل أقام سكان يطبقون في حياتهم ومعيشتهم نظام العيش الحضري ونصف الحضري بيد أن القسم الأكبر منهم تمتد جذور حياتهم في أعماقها إلى أصول القبائل والعشائر الرحل نمطاً واتجهاً. ويجدر أن يضاف إلى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ذلك أن العامل الزمني المتغلغل في كل التركيب الاجتماعي - السياسي للمجتمع وكيانه البنيوي كان هو الغالب الموحد على أقل تقدير خلال مدة المائتي عام والنيف الأخيرة وانتشر وشاع حتى شمل فئات السكان كافة.

وقد كان العامل المساعد الكبير في عملية إعادة البناء لكل تراكيب المجتمع السعودي هو دخول المملكة العربية السعودية إلى صميم العهد البترولي. وعلى الرغم من أن عملية هدم التنظيم القبلي والإخلال بالنظام العشائري كانت قد بدأت منذ حقبة أقدم بكثير فإن التغيير إنما ارتبط بهذا الحدث على وجه التحديد وكذلك خلال العصور التالية واللاحقة من السنين بالانتقال إلى النمط الحضري الذي سار بخطى متسارعة وغير راجعة بل ماضية على الخط الصاعد والحديث والمولدة للتطورات الاجتماعية الاقتصادية السريعة والناجزة والمنطلقة نحو كسر أطواق الأنماط التقليدية. ومنذ ما يربو على عشرين عاماً كان الرّحل يمثلون نسبة الربع من سكان البلاد.

أما اليوم فأظن أنهم لا يمثلون حتى ولا نسبة الواحد بالمائة. وحتى أولئك الذين يفضلون العيش في الصحراء من أبناء البيداء الذين يؤثرون حياة البداوة على معيشة الحضر لهم

عمل ناجح وموفق في المدن مع أهلها وسكانها ويمتلكون قيلات أو لديهم أحياء بكاملها فيها. وفي حالة الضرورة والحاجة إلى الوصول إلى الأسواق الكبرى المنظمة بأسلوب (السوبرماركت) فإنهم لا يعتلون سنام الإبل بل يجلسون وراء المقود لسيارات من أنواع مختلفة، بحيث يمكن أن تنقل عليها رؤوس الغنم لبيعها في السوق أو لإيصال أطفالهم إلى مدارسهم أو صغارهم إلى أقرب مدينة ألعاب للأطفال كي يجربوا أجهزة الكمبيوتر أو يستمتعوا بآلات التسابق الميكانيكية الأتوماتيكية. وبالطبع عقب بدء العمل بنظام التمدن الشامل وإجراء عمليات الإسكان في المدن بوصفه بديلاً عن البيداء بزغ غير قليل من المشكلات المرتبطة بتعويد سكان الصحراء على الظروف الجديدة عليهم والشروط غير المألوفة لديهم من قبل.

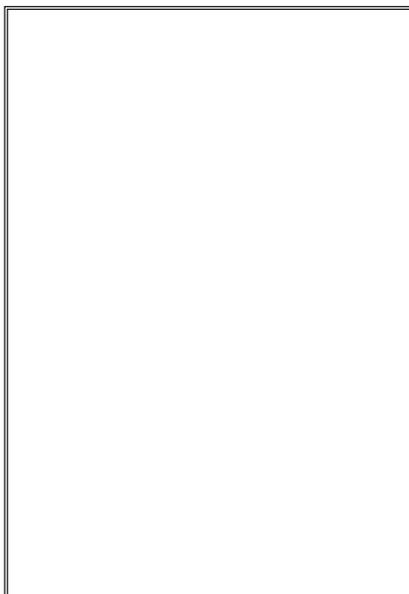
ولكن الحكومة بغية التوصل إلى تأمين السلام الاجتماعي تولت على عاتقها مهمة الحرص على هذا القسم من السكان بتأمين ما يحتاجون إليه من العناية والرعاية عن طريق تهيئة فرص العمل، ومنح المعونات والقروض طويلة الأمد، وإنجاز أعمال الخير والإحسان، وأخيراً وليس آخراً الحفاظ على منظومة الأيديولوجيا السابقة والقواعد الأخلاقية والسلوكية

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والتقاليد المرعية والمكفولة. ولا تزال جزر من خلايا النمط البدوي والطراز العشائري والعيش القبلي في المناطق الجنوبية والشرقية من ربوع المملكة العربية السعودية قائمة وعاملة ونشطة، إلا أن الدولة قد عملت على تأمين التسهيل وتحسين حياتهم وحياة ذويهم أينما كانوا وحلُّوا من الأرجاء والأنحاء.

الرياض عاصمة للمملكة



إن نشوء أية مستوطنة منذ القدم السحيق مرتبط لا محالة بالحكمة الرشيدة الاقتصادية - الجغرافية وأخذاً في الحسبان مناخ أراضي هذه المملكة الصارم وأيضاً المثال غير البعيد زمنياً لوجود الكتلة الأساسية لمواطنيها، فلم تكن كثيرة جداً أمثال هذه المستوطنات في البلاد. ولأجل حساب عدد المدن والمستوطنات الكبرى اليوم أيضاً تكفى تماماً أصابع كلتا اليدين. والمواضع السكنية الأساسية - وهذا الأثر طبيعي تماماً - تركزت عند شواطئ البحر الأحمر والخليج العربي المعروف عالمياً باسم الفارسي - وثمة حديث خاص عن المدينتين المقدستين اللتين يؤمهما الحجاج من كل أنحاء العالم. وفيما يخص التشكيلات الصناعية الفتية فهي بالطبع قد نشأت خلال الضجة البترولية في مواضع تركز احتياطيات الذهب الأسود.

وها هي العاصمة الحالية للمملكة العربية السعودية الرياض المدينة الكبرى الوحيدة في قلب شبه الجزيرة العربية قد نشأت

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ونهدت ونمت في موضع مستوطنة قديمة غير كبيرة كانت ثروتها الطبيعية أنواع التربة الخصبة الصالحة للزراعة التي أغنتها وأثرتها السيول الطينية الطموية (من الطمي) ثم المياه الجوفية الكامنة في باطن الأرض على عمق غير كبير، وهي التي منحت الحياة إلى النباتات في هذا الموضع. ومن هنا جاءت تسمية الرياض التي تعني البساتين ومفردها الروضة والروض. وفضلاً عن هذا شكلت موقعاً استراتيجياً على الطريق ما بين كلا الساحلين البحريين لشبه الجزيرة. وهكذا جرى أن من يسيطر على الرياض يمتلك السلطان على نجد بأسرها. ولهذا دار الصراع على هذه المدينة في غضون قرون سالفة.

وقد غدت الرياض مرتين في مدتين مختلفتين من تاريخها عاصمة السعوديين وللمرة الثالثة عام ١٩٣٢م حين ضم الملك عبد العزيز نجد والمملكة الحجازية في دولة موحدة هي المملكة العربية السعودية. وحينئذ كانت مساحة المدينة - وهذا حتى يصعب على المرء تصوره - تبلغ أربعة كيلومترات مربعة لا غير، أما تعداد سكانها فكان ثلاثة آلاف نسمة. وأثناء مدة العقدين ونيف من السنين تطورت بسرعة السلحفاة، ومنذ بدء الاستخراج من المكامن البترولية تحولت هذه المستوطنة الأساسية المحاطة

بسور طيني له أبراج حراسة وبوابات كانت تفتح صباحاً وتغلق في المساء، تحولت إلى إحدى مدن العالم العصرية جداً بمساحة ١٦٠٠ كيلومتر مربع وسكان يتجاوز تعدادهم ٤ ملايين نسمة.

والياً هي مدينة مخططة بشبكة صحيحة من الطرق العريضة العصرية ومحاطة بحلقة عديدة الصفوف لطريق السيارات الرئيس المزود عند التقاطع مع الجادات الشعاعية بالروابط متعددة المستويات على الخارطة التي تشبه التشبيك المتقاطع للحياكة المخرمة. ويجرى تطوير المدينة بوتائر خيالية التصور بحيث ينطبق عليها التعبير السائر: «تنمو نمو العجين مع الخمائر».

وآخر سائق عندنا وهو الذي قدم إلى المملكة اكتساباً للرزق أوائل الثمانينيات من القرن الميلادي السابق يتذكر أن الأحياء السكنية في الرياض كانت مجموعة ضمن حدود الحي الحالي للمدينة.

أما باقي الإنشاءات في العاصمة العصرية فيصعب تصور أنها كانت صحراء قاحلة محرومة من أي لون أخضر، حيث كانت تتعاوى أسراب الكلاب المشردة. ولم تكن آنذاك شوارع وطرق معبدة بالأسفلت ولا منظومة لمجاري المياه ولا إسالة ماء.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ولهذا كان ممكناً امتلاك الأرض في هذه المنطقة بثمن بخس إلى حد لا يصدق والآن كما أعتقد زاد هذا الرقم بمقدار خمسة أمثاله ثم إن هذا بالنسبة إلى مواطني البلاد فحسب.

وكان سائقنا قد سكن في البناية الوحيدة آنذاك العالية المكونة من أربعة طوابق والعايدة إلى إحدى أوائل شركات البترول الأمريكية، وكانت محاطة ببضع إنشاءات طينية غير بعيد عن مكان غير كبير وهو الذي بلط بعدئذ بلوحات خرسانية وهو حالياً محصور بين المباني العصرية جداً عند أحد الشوارع الرئيسية بديعة الجمال في المدينة باسم (العليا) والذي يتشعشع تحت أشعة الشمس بالمرمر اللماع والزجاجات الملونة بالألوان الزاهية للمباني الشاهقة للمراكز التجارية والشركات، أما في الليل فيعكس بريق الإعلانات الضوئية المتحركة.

أما فيما يخص البنايات الطينية فإنها زالت واختفت في كل مكان تقريباً من المدينة الحاضرة كأنها تبتلع هذه البنايات بيتاً بيتاً مشيدة مكانها المباني الفاخرة من الزجاج والحجر. ومع الأسف؛ كان بعضها يمثل كنوزاً حقيقية لفن العمارة الأصيل في الجزيرة العربية. ولكن لحسن الحظ حفظت جيداً في القسم القديم من المدينة الأزقة الضيقة والمتاهة المحيرة للسوق

القديمة وبيوت السكنى وحيدة الطابق المبنية من الألواح الطينية التقليدية. وقد أعيد بناء أجزاء من سور الحصن القديم مع البوابات وقصر العدل، وأعيد بناء مسجد الإمام تركي بن عبد الله ورصعت واجهته الرحبة بالحجر المحلي الطبيعي. وبالطبع تم ترميم حصن المصمك الذي بني عام ١٨٦٥م والمهم إذا كنتم تتذكرون التاريخ الأحدث للمملكة العربية السعودية. وقد حول قسم منه الآن إلى متحف تحفظ وتعرض فيه الأشياء الشخصية للملك عبد العزيز آل سعود والهدايا المقدمة إليه في غضون عمره الطويل والوثائق العامة والصور الفوتوغرافية والخرائط الجغرافية وسواها من المعروضات ذات العلاقة والصلة بهذا الحصن. والمباني الأخرى والقصر تستخدم بصفة هيئات قضائية. وتنفذ هنا في أيام الجمع عمليات القصاص العلنية التي أصبحت نادرة جداً والتي يسمح بالحضور لمشاهدتها للرجال فقط. وهي نادرة الوقوع لأن الجريمة ليست مألوفة على الإطلاق في المجتمع السعودي. والسبب في ذلك - كما يخيل إليّ - هو تمسك السكان التقليدي بالأخلاقيات الدينية وعدالة العقوبة.

وينبغي الاعتراف بفضل السلطات لتأمينها كل ما من شأنه أن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

يحفظ لون هذا الجزء من المدينة. والبناء - مستخدمين المواد العصرية الأكثر متانة - يجعلونها شبيهة في الظاهر باللبنة الطينية وكأنما هذه البنايات الجديدة ممثلة تلك الباقية على الزمان وعلى أسلوبها، وأمثال هذه المباني النمطية بجدران مائلة إلى الداخل ونوافذ صغيرة جداً وستائر السطح المستننة تشيد في مواضع أخرى من مدينة الرياض مضيئة إلى المدينة تعبيراً مبتكراً. وفي العادة تنظم فيها صالات عرض عصرية تماماً ومريحة وصفوف تجارية للبيع والشراء ومراكز احتفال بالأعراس وتطلق عليها أسماء القصور.

وإلى جانب مكة والمدينة يحق للرياض أن توصف بأنها مدينة مهمة في الدولة. وفيها مقر وزارة الحج ووزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف وأكثر من ٨٠٠ مسجد يتزايد عددها باطراد على قدر توسع المدينة. وهي مشيدة بحسبان أن كل مسلم يجب أن تتاح له الفرصة لسماع نداء الأذان والدعوة إلى إقامة الصلاة وفي غضون ثلاث دقائق بعد الأذان يمكنه الوصول مشياً على الأقدام إلى أقرب مسجد حيثما كان مكانه وموقعه.

ومساجد الرياض لا تقتصر على كونها مكان تأدية الصلوات الخمس بل هي أيضاً زينة تجمل المدينة. وبعضها تتزين بقببها

الكبيرة وفخامتها وابتكاراتها المعمارية وزخرفة التزيين الداخلي ومنها مثلاً مسجد الأمير فيصل بن تركي الذي يتسع لـ ١٧ ألف شخص من المسلمين أو مسجد جامعة الإمام محمد بن سعود في حرم المدينة الجامعية والمسجد الذي في ساحة المطار الدولي ويستوعب كل منهما خمسة آلاف شخص. وثمة مساجد متواضعة الحجم من حيث الفخامة والاتساع مقلدة من حيث الشكل الأسلوب التقليدي العريق، ومثل هذه المباني الصغيرة تشاهد على طول طرق السيارات بجوار محطات بيع البنزين. ويومياً تتردد خمس مرات صادحة أصوات الأذان الرخيم، سابحة فوق المدينة بانسياب فيتوقف عندها إيقاع الحياة المعتاد وينصرف الناس إلى مناجاة ربهم في خشوع وابتهاال. ويكف عن العمل في المؤسسات والدوائر الرسمية وتغلق مداخل محال المبيعات وصالونات الحلاقة والمطاعم سواء الفاخرة منها أو الشعبية. ويتوجه الناس إلى بيوت الله المخصصة للعبادة التي تفتح أبوابها على مصارعها بشكل دائم ولا ينقطع تدفق السيل البشري عليها ولا ينضب له معين.

وأثناء العقود الأخيرة من السنين اكتسبت مدينة الرياض الشهرة كونها مركزاً علمياً وثقافياً. وتعمل فيها حالياً جامعتان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

- ومجموع الجامعات في المملكة العربية السعودية ثمان - حيث يتلقى التحصيل العالي ممثلو الجيل الفتّي من السعوديين. وجامعتا الرياض هما: جامعة الملك سعود والجامعة الإسلامية باسم الإمام محمد بن سعود. وهما عبارة عن مؤسستين تعليميتين مستقلتين تشغلان مساحة عشرات الكيلومترات المربعة ولهما ما يخصهما من منظومة توزيع الطاقة الكهربائية والماء والبنى التحتية والمتاحف والمكتبات العامة والمنشآت الرياضية والمباني السكنية المريحة لسلك الأساتذة المدرسين والممرات المظلّلة لممارسة لعبة التنس وغابات النخيل الكثيفة والبسط العشبية المنتظمة والنافورات والساحات الخاصة بلعبة (الجولف) والراحة والاستجمام وهي تهيئ مناخاً طيباً موثماً للدراسة وإجراء البحوث العلمية.

وعلاوةً على ذلك تعمل في الرياض بنجاح مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية المزودة بالمختبرات العصرية الحديثة وعدد من المكتبات العامة الكبرى المجهزة وفقّ الصيحة الأخيرة في التكنيك، ومكتبة الملك سعود تضم ما يزيد على المليون كتاب ومجلة، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومكتبة الملك عبد العزيز العامة، ومكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات

الإسلامية، وغيرها من المكتبات. ولقد أسعدني الحظ بزيارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، حيث أطلعنا على عمل مكتبته العامة. ولم يسبق لي من قبل مشاهدة أي شيء مماثل. قاعات ضخمة ورحبة ونظافة مطلقة وحركة لا تكاد تلاحظ للسلاالم المعلقة على طول الرفوف المركبة وتلمع مصابيح صغيرة خضراء وفي غضون ما لا يزيد على الخمس دقائق توضع بين يديك الكتب التي حجزتها للمطالعة والدرس. يا لها من معجزة لا تخطر ببال ولا في الأحلام!

وتتخذ حكومة المملكة العربية السعودية موقف العناية المشددة حيال تاريخ بلادها ولهذا تخصص في الميزانية مبالغ طائلة للإنفاق على إعادة تصميم الآثار التاريخية وإقامة المتاحف وتنظيم البعثات العلمية للأبحاث التي تعرف أجيال السعوديين الناشئة تاريخ البلاد وتفخر بهذا البلد الأمين، وفي الرياض حالياً عدا عن حصن المصمك يعمل المتحف المعماري والمتحف الوطني والديرة وهي المدينة القديمة تحت الهواء الطلق والمربع منشأة متكاملة من المباني الرسمية التي تضم قصر الملك عبد العزيز.

وفي أعقاب اكتشاف الاحتياطات الأولى من النفط في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الثلاثينيات من القرن الميلادي الماضي وجّه العاهل وملك الدولة الكبرى صاحب المكانة الرفيعة والأسرة المتشعبة بضرورة إنشاء مجمع خاص من المباني حيث يمكن أن تحل الهيئات الرسمية وأماكن أفراد أسرته. وخلال عام ١٩٣٦م وقع الاختيار على العرصة المناسبة شمالي المدينة آنذاك خارج نطاق سور الحصن. وفي غضون عامين أنجز البناء وقد شيدت المباني وفق أسلوب الطراز التقليدي من الحجر المحلي وجصت الجدران بالطين وأقيمت السقوف من عصي الخيزران وسعف النخيل. أما حصن المصمك حيث عاشت الأسرة الحاكمة منذ عام ١٩٠٢م ومن حيث حققت إدارة الدولة فقد فرغ وفيما بعد حول إلى متحف.

وعاش الملك في المربع حتى آخر أيامه. وكان يقع هنا البلاط الملكي وربط الحرس الرسمي. وكانت تدار في قصر الديوان المراسيم الرسمية حيث استقبال ضيوف الملك من قادة الدول وزعمائها وشخصيات العصر البارزة والمرموقة. وهنا أرفه موهبته الدبلوماسية واتخذ أهم القرارات التي أحدثت لاحقاً ذلك التطور الحثيث والازدهار المطرد للمملكة والآن أصبح المربع وقلب المدينة الضخمة تكتنفه المباني العصرية وقد تحول

إلى متحف تحفظ فيه بحرص وعناية كل ما كان موجوداً في حياة العاهل. والسعوديون شغوفون حباً بملكهم المؤسس الأول ويثمنون جهوده الموفقة وأفضاله العظيمة على البلاد.

وقطع الأراضي في العاصمة أميرية (بلدية) وخصوصية ولهذا ليس نادراً أن تقطع ما بين الأحياء المشيدة مساحات فارغة من العرصات المملوكة لبعض الأشخاص التي تنتظر ساعتها لتبنى بدورها. ولكن على الرغم من ذلك يجري بناء المدينة تحت الرقابة الصارمة من الدوائر المسؤولة المعنية. وإذا نظر المرء إلى مخطط الرياض وجدها أشبه ما تكون بصفحة ورق من دفتر مدرسي خاص بدرس الرياضيات.

والشوارع المتقاطعة في أغلبيتها عريضة ومستقيمة تشكل أحياء سكنية متماثلة ومفارق الطرق رحبة وفسيحة مع تخطيطات واضحة ومريحة ونظام مثالي لحركة المرور. وتلطفوا في الرياض بإطلاق اسم أذربيجان على أحد شوارع العاصمة تكريماً لبلادنا. وبالمناسبة ظل هذا وحده بالنسبة إلى بلدان منظومة الدول المستقلة «الكمنويلث الجديد». وشارع أذربيجان هذا يبلغ طوله ٠,٥ كيلومتر وعرضه ٢٠ متراً بحركة مرور ثنائية أي: ذهاباً وعودة. وهو واقع في منطقة جديدة فاخرة.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والفيلات المشيدة حديثاً ذوات الشكل العصري والمنظر البديع والأشجار دائمة الخضرة المزروعة والمشتولة على طول الطريق جعلت من شارعنا هذا زينة لهذا الجزء من المدينة. وفي الرياض كما هو الشأن في المدن الأخرى بالمملكة العربية السعودية يسود نظام التقسيم إلى قطاعات. وهذا في رأيي شكل مريح جداً وملائم لإقامة الأجانب القادمين إلى هنا طلباً للارتزاق وفقاً لعقود مبرمة مع بلاد ذات ثقافة وعادات مغايرة. وهذه القطاعات تمثل تشكيلات مستقلة محاطة بحوائط على هيئة أسيجة وهي تقسم إلى مساحات تتراوح من هكتار واحد إلى بضع مئات من الهكتارات حيث يوفر كل ما هو مطلوب من أجل الحياة الطبيعية، وبوسعي حتى القول: إنها المريحة وهذا من حيث الجوهر مدينة داخل المدينة. ويعيش هنا القادمون الجدد تبعاً لإمكانية استطاعتهم استئجار شقة أو فيلا مؤثثة بالتجهيز التقني التام. ويعد لازمة أكيدة شتى البناءات المخصصة للاحتفالات ومحال بيع الحاجيات ومراكز ومرافق الخدمات العامة.

أما في المجمعات الكبرى فتوجد عدة مسابح عميقة وغير عميقة للمياه المتموجة ولها مقافز بعلو بضعة أمتار وشتى

الوسائل المساعدة وبخاصة المخصصة للأطفال الصغار الأحياء. وقد نظمت فيها حمامات بخار مكتومة وملاعب تنس وساحات للعب الغولف وممرات مشجرة مظلة والمطاعم والمقاهي وقاعات الاجتماعات والمكتبات العامة وغرف المعالجة بالتدليك والأسواق الكبيرة ورياض الأطفال وحتى المدارس. وتنظم مختلف الحلقات الدراسية والتدريبية والهوايات الفنية وسواها حيث يستطيع البالغون والصغار تحت أنظار مدرسين متخصصين أن يزاولوا الرسم والنحت والتطريز ودراسة اللغات وجميع أنواع المصارعة الرياضية وغير ذلك من الأمور الطريفة والمشوقة.

وذات مرة دعنتي أمريكية صديقة إلى مستوطنة التجمع التي تعيش فيها. وامتلكتني الدهشة مما رأيت وشاهدت. وبدا لي وكأنما أنا لست في المملكة العربية السعودية وإنما في مكان ما من إسبانيا، فعلى ضفاف البحيرة الزمردية اللازوردية الاصطناعية والجزيرة الصغيرة في وسطها والمحوطة بالعشب المخملي وبين نباتات جمّة وكثيفة؛ توزعت فيلات مشيدة على الطراز الإسباني. وتوزعت المساحات الشاسعة من أراضي المستوطنة بين التضاريس الأوروبية أو الشبيهة بها (في وسط

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

الصحراء!). واكتشفت ساحة رائعة التجهيز لمزاولة لعبة الغولف وقاعة مسرح وطوقاً دائرياً على شكل حلقة للتلحلق والتزلج على الحذاء ذي العجلات ولها تغطية خاصة ومنشأة رياضية للقيام بالحركات البهلوانية على عجلات الدراجة والعارضتين والعقلتين والحصان الخشبي وساحة للعبة الهوكي على العجلات وساحة لكرة السلة وللكرة الطائرة وساحة لكرة القدم وممر للعبة البولينغ ومضمار لسباق السيارات واصطبل لخيول عربية مطهمة وحديقة حيوان صغيرة. ولم يكفني الوقت لمشاهدة الساحات كلها - ويمكن التنقل بينها على سيارات صغيرة خاصة مكشوفة - ولربما كنت قد شاهدت حينئذ أشياء أخرى طريفة.

ومدينة الرياض اليوم يمكن تشبيهها دونما مبالغة بساحة بناء عملاقة علماً بأن عملية البناء مستمرة بدون انقطاع ليس فقط دونما هبوط في وتيرة العمل فحسب وإنما أيضاً مع زيادات دورية في الشدة والحدة. ويجري بناء كل شيء: الفيلات الخصوصية والمصارف ومكاتب العمل والفنادق والمراكز التجارية والأسواق ومحال المبيعات. هذا مع أن النقاط التجارية المفتوحة حالياً خالية تنتظر المشتريين. وهذا الظرف يثير في

نفسى على الدوام التعجب والاستغراب ومقابل هذا يطرح زوجي حجة كبيرة الوزن تماماً وراجعة هي: ما داموا يواصلون بناءها فهذا معناه أن هناك طلباً عليها وحاجة إليها.

وما بودّي الإشارة إليه خصوصاً هو أنهم ينجزون عمليات البناء بشكل جيد التنظيم جداً إذ تحاط عرصة البناء بسياج جميل تعرض عليه بشتى الأساليب المبتكرة رسوم تعبر عن مبنى المستقبل. ومن العجيب أنهم يشتلون نخلات بالغة بارتفاع يبلغ ٨ إلى ١٠ أمتار. وعندما يرفع السياج بعد الانتهاء من أعمال البناء تنفسح أمام أعين الإنسان العادي المفتوحة على وسعها تعجباً واستغراباً ساحة هي عبارة عن حديقة مزدهرة ومنسقة. وزجاج الشباييك في النوافذ السفلية منظف بكل عناية. وهو على كامل أهبة الاستعداد لاستقبال أوائل السكان في حين تستمر داخل بواطن الأقسام الأخرى الباقية من البناء الجديد الأعمال لتكميل الرتوش الأخيرة من التزيين الداخلي.

ولأجل تشييد الفيلات أو القصور - كما هو الشأن بالنسبة إلى مباني الدوائر الرسمية - يدعى المعمارين والمهندسون والعمال الأجانب الذين تخصص لهم وفق رغبة أصحاب طلبية الحجز من أرباب العمل لا المنازل للسكنى وحدها بل ومعها مساجد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

صغيرة في مجموعة إنشائية متكاملة. وتجري أعمال البناء على النطاق الواسع مع استخدام المرمر التقليدي ذي البريق اللامع باللون السماوي المتموج والرخام وسواه من المواد الإنشائية للصخور التبليطية. أما الأساليب فهي دائمة التنوع وما من فيلا واحدة تشابه الأخرى في طراز بنائها. وتحاط الإنشاءات المنفردة بدورات سياجية عالية - يتراوح ارتفاعها بين الأربعة والستة أمتار - وهي أيضاً مكسوة ببلاطات من أحجار التكسية النفيسة مع بوابات بديعة من المخمرات الحديدية والزجاجات الملونة والمزركشة بالنقوش. وعلى طول السياج الحائطي من الباب الخارجي تزرع بجواره أشجار يجري لاحقاً تشذيبها بعناية فائقة.

والمنتزهات والحدائق الخصوصية مزجاة بالنافورات والأحواض ومساقط المياه والشلالات والتشبيكات الأوروبية وحتى الساحات للعبة الغولف. وتضيء الممرات المظلمة المشجرة ذوات الفيء الدسم مصابيح طريق مصنوعة من الحديد الزهر. وتقع العين على أجهزة مبتكرة خاصة لخدمة هذه الحدائق وهي تطلق نوافير قوية من الماء ويتلطف الجو بالنسائم الباردة وذلك نفسه يشكل منطقة محدودة لها مناخها الخاص

بها داخل محمية مملوكة بحد ذاتها. وبعض أصحاب الأملاك ينصبون في زوايا منعزلة من المتنزهات والحدائق الملحقة بها الخيم البدوية المخططة وذلك لكي يرضوا إلى درجة ما التَّوق الذي يعتمل في نفوسهم شوقاً إلى الطبيعة التي عرفوها وأحبوها ويلبوا الميل الخفي في جوانح الأنفس إلى استعادة الماضي واسترجاع الذكريات.

ويحدث أحياناً أن يعيش في هذه الخيام أقرباء من الجيل الأقدم لأنهم لم يستطيعوا على أية حال التعود على العيش داخل جدران تبرّد الهواء في حيزها أجهزة التكييف الحديث الغالية بوصفها إحدى علامات الترقى. وهم يشعرون بالبرد المعنوي والبدني حين تلمس جلودهم برودة أهوية الآلات الكهربائية والإلكترونية.

وليس من النادرة بمكان أن تشاهد فوق السطح المستوي للعمارة الشاهقة ذات الشقق العديدة مثل تلك الخيمة التي يعيش فيها الجدود والجدات.

ولما كانت قطع الأراضي في الرياض غالية الثمن بما فيه الكفاية فإن كل ما وُصف آنفاً يعود بدرجة كبيرة إلى المواطنين ذوي الدخل العالي والثروة الكبيرة ممن يمتلكون البيتين

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والثلاثة فأكثر. وقطعة الأرض الراجعة إلى من يمثل الطبقة المتوسطة ليست في العادة أكبر من البيت المبني نفسه وأمام واجهته عادة فسحة غير كبيرة مبلطة بالبلاطات الرخامية وعلى أحد الجانبين بالتأكيد حوض صغير وفي الخلف أو فوق السقف توجد حجر للخدم وعند البوابة بناية في طابق واحد للحارس أو السائق. وتشاهد في بعض الساحات قطعة من الأرض زرعت فيها نخلات وأشجار برتقال وليمون وسواها من الأشجار المثمرة بالفواكه وفيها كذلك شجيرات مزهرة تنمو عليها زهور موسمية فواحة بالرائحة الذكية ذات النكهة الطيبة.

والسعوديون يبنون المنازل عادة تقليدياً من بهّوين للضيافة أحدهما للنساء والآخر للرجال على حدة. وفيها حمامات بخارية مكتومة وأحواض سباحة تغلى لها المياه وأرضية فسيفسائية وعدة مخادع أي غرف نوم تبعاً لعدد الأطفال والأقرباء والإمكانات المادية والمالية. ويتميز التقسيم الداخلي بالترف من زينات مبتكرة للسقوف ومجاميع الثريات البلورية. ناهيك عن قصور الأمراء والأميرات حيث الجدران ملبسة بالاستائر الملصقة من الحرير بالألوان كالإستبرق تزينه التوشيات المطرزة يدوياً.

وفي مرة من المرات كنا أنا وزوجي ضيوفاً على أحد رجال

المال والأعمال السعوديين وقد دعانا رجل الأعمال هذا لمشاهدة بيته المشيد والمؤثث لتوه.

وتجمع المدعوون متعلقين حول نافورة غير مرتفعة وسط بركة صغيرة بقلب بهو الضيافة ولكن أصحاب الدار وبخاصة صغارهم كانوا كبيرى الرغبة فى عرض مسكنهم الجديد على ضيوفهم بالتجول فى أنحاءه للفرجة والاستعراض والتعرف.

وقد تبغنا أثرهم بكل سرور وارتياح. كان البيت مرتباً بذوق رهيف. أبواب الغرف على كلا الجانبين من بهو الجلوس ذى الطابقيين موصولة بسلايم يتلوها ممر مزجج خلفه أصيص زرعت فيه نباتات نادرة (ويا للعجب؛ متى تم لها الوقت لكي تنمو إلى هذا الحجم فى البيت الجديد؟!) وتخيم فوقها قبة زجاجية داخل الباحة، وفى وسطها شاهدنا حوضاً بيضوي الشكل ينتهي من أحد جوانبه بمسقط مائى على درجتين. وفى قعره لوحة فسيفسائية على شكل سجادة شرقية تقليدية. ورداً على نظراتنا المتسائلة أجاب صاحب الدار المنتشى بتأثير رد الفعل هذا لدينا بأن هذا كله ليس سوى قطع فسيفساء. وأؤكد لكم أن ذلك كان من البراعة فى الصنعة ومن الشبه بالعمل الصياغى تابعت لبعض الوقت النظر فيه بإمعان غير قادرة على التصديق بأن هذه

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

السجادة ليست سجادة حقيقية منسوجة من الخيوط الصوفية. وفي الرياض غير قليل من المباني الرسمية غير العادية من حيث عمارتها. ويتولد الانطباع بأن حكومة المملكة العربية السعودية راغبة وقادرة لكي تعرض للعالم أن المملكة نادرة وتتميز في الكثير من النواحي عن البلدان الأخرى على سطح الكرة الأرضية وعلى سبيل المثال مبنى وزارة الداخلية. إنه معد على هيئة صفيحة معدنية متعددة الدرجات ومن حيث الشكل تشبه جناحي جسم طائر كبير من الصحون الطائرة الخيالية المذكورة في قصص وأفلام الخيال العلمي وهو يبدو من الخارج مثلاً على ما فوق العصرنة. أما الأبهاء الداخلية على ما قص لي زوجي أيلمان أراسلي فإنها تبدو وكأنها قصور قديمة من تلك المذكورة في الحكايات الشرقية. وثمة بناية تشبه بحجمها العملاق مقبضاً زجاجياً ينتهي بكرة بلورية في عشرات من الأمتار حجماً! وفي المداخل السامقة على علو عدة طوابق للبيوت فوهات وأعناق بتناغم في تشكيلها، وبانسجام الزجاج والمعدن والمواد المركبة العصرية والأنواع النفيسة من الحجر.

وقبل هنيهة قصيرة من الزمن، في بداية الألف الجديدة شفق مرتفعاً بسرعة مدهشة كأنما انشق من الأرض بقدرة

قادر المركز الملكي وهو مجمع واسع في وسطه مبنى شاهق بعلو ثلاثمائة متر وهو يستحق تماماً أن يوصف بكونه أحد العجائب الجديدة من عجائب الدنيا السبعة. وعلى الأرجح سوف يغدو هذا المبنى رمزاً لمدينة الرياض وذلك لأن نماذجه المصغرة منتشرة الآن على الواجهات الزجاجية للمخازن وفي محال بيع الهدايا التذكارية، ورسومه مطبوعة على الفانيلات الرياضية. ويمكن إطلاق وصف منجزة الفن المعماري أيضاً على المجمع الرياضي بإستاده المريح وهو الملعب الرياضي الواسع وأكبر مضمار للألعاب في منطقة الشرق الأوسط.

وفي القسم الشمالي الغربي والأكثر ارتفاعاً من الرياض امتدت على مساحة ثمانية كيلومترات مربعة المنطقة المسماة بالحي الدبلوماسي والتي بدأ تشييدها في السبعينيات من القرن الميلادي الماضي حين صدر القرار الحكومي بنقل وزارة الخارجية وجميع البعثات الدبلوماسية من جدة إلى الرياض. وتشرف بنائها بقامتها على خلفية المنطقة (وهي ربوة منتظمة الشكل هندسياً بقمة دائرية. وتتماثل هيئة هذه الربوة بشكلها مع طريق السيارات الدائري لمدينة الرياض، أما أساسها فمُنحدر إلى ناحية الغرب). وهذا هو أضخم الوديان في هذا

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

القسم من شبه الجزيرة وحوافه منحدره بشكل حاد. وهذه الخواص بالذات كانت أساساً لإنشاء تضريس اصطناعي نادر المثال. وقد بني المنتزه على طول عدة كيلومترات وهو ذو تعرجات متكررة. وقد جُلبت لتشبيده وتنظيمه كتلة ضخمة من الرمل والصدفيات.

وبواسطتها صنعت على حواف الوادي المقطوعة بناية مبهمة وغامضة الشكل مع مصطبات ومقاعد حجرية حيث يمكن قضاء أيام العطل والراحة بشكل رائع مع الأسرة والأصدقاء. وشق ستاد مفتوح وأعليت ذروات التلال وحولت إلى مدخل للمدينة، (ويمكن التساؤل: أية تقنية عصرية جبارة استخدمت هنا). ونظمت ترع مائية غير كبيرة بمصاطب على الضفاف والحافات. وهي تجتذبك للجلوس عليها فوق حجر دافئ وسماع هسهسة الحشرات ونقيق الضفادع المتكاثرة هنا. وفي هذا الهدوء تسرح في الأفكار والاستسلام لشريط الذكريات. والهدوء هنا عجيب والهواء كذلك صافٍ وشفاف والحرارة أخفض بدرجتين إلى ثلاث درجات منها في أطراف المدينة. وهذا يفسر برده بارتفاع بناء وزارة الخارجية وكذلك النباتات وترع المياه. وجميع مباني السفارات والممثلات غارقة في الخضرة. أما العديد من

الأحواض والبرك ومساقط المياه فإنها ترطب الجو وتبرده (علماً بأن الطقس في الرياض شديد الجفاف).

وعلى الأرصفة وفي الخط المركزي من الطرق في الحي شكلت صفوف متراسة من النخل معطية الظل المنقذ من لهيب الشمس. وقد نظمت مفارقها على هيئة ساحة حلقيه بالشكل «الدوار» مع ساحات خضراء دائرية في وسطها شملت الأشجار وزرعت الأزهار. والحي الدبلوماسي محوط بسياج مانع عدا الموضوع الذي تشكل فيه التلال عارضاً طبيعياً.

ولا يمكننا الدخول إلى هذا الحي إلا عبر الجادة الرئيسية التي تقطعه من الشمال إلى الجنوب. وعند المدخل الأساس إلى الحي موقع الحرس الكبير والدوار الرئيس. وتعرضه الصواري التي ترتفع عليها في أيام الأعياد رايات الدول المعتمدة ممثلياتها وبعثاتها لدى المملكة العربية السعودية.

وفضلاً عن السفارات ومقار الممثلات تقع في الحي الدبلوماسي فروع المصارف الكبرى والمدارس والنوادي الرياضية والمركز النسوي الفاخر الذي تطلق عليه تسمية مناهل. وهنا يستطيع الكبار والصغار أن يمارسوا أحب الأعمال المتنوعة ابتداء من دراسة القرآن وحفظه وتعلم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

اللغات واستعمال أجهزة الكمبيوتر وممارسة فن الرسم والسيراميك (الفخاريات) والنقش على الحرير، وانتهاء بلعب التنس والسباحة والمصارعات الشرقية والكثير سواها.

وثمة المجمع من صالونات الحلاقة والمطاعم والمقاهي وكذلك قاعات فسيحة لإقامة وتنظيم المعارض والأسواق الخيرية. وعقيلات الدبلوماسيين ضيفات دائمات على هذه المؤسسة المضيف. أما النسوة المحليات فيفضلن أن يمضين هنا قسماً كبيراً من أوقات فراغهن. وأغلبيتهن يصحبن أطفالهن مع أعضاء في المركز. يتلقى أطفالهن التحصيل التعليمي والتدريبي في شتى الفروع الدراسية وتتاح لهن الفرصة للعناية بمظهرهن الخارجي وتعهد جمالهن وشكلهن ويقمن بالمشتريات أو يتبادلن أطراف الحديث في فضضة مع الصديقات عند تناول فناجين القهوة وارتشافها. وبالطبع فإن العضوية والصفوف الدراسية تتطلب دفع أجور ولكن هذا - كما أعتقد - ليس عبئاً ثقيلاً على أناس مثل مواطني ومواطنات المملكة العربية السعودية.

ويقيم مركز مناهل سنوياً المآدب والولائم لأجل عقيلات السفراء وتجري أثناءها ألعاب على هيئة أسئلة وأجوبة على أسلوب «حزّر فزّر». وذات مرة حالفني الحظ فربحت الجائزة

الأولى وهي دعوة عشاء في مطعم لشخصين (وأقول بصراحة إن الأسئلة كانت سهلة للغاية). وعلى طول الجادة الرئيسة في الحي أنشئ مجمع ضخم يبلغ زهاء الثلاثمائة متر طولاً وهو شبيه من حيث الأسلوب بالبنائيات القديمة وبلون داكن، مع كراجات للسيارات في نفق أرضي تحت البناية كلها. وأقيمت في المجمع مكاتب إدارية وصالة رائعة لحفلات الاستقبال الرسمية وسوق كبيرة «سوبر ماركت» ومخازن لبيع التحف التذكارية وفندق. وعلى مستوى الطابق الثالث من بناية المجمع كان ينقسم بممر إلى قسمين وفي هذا الممر النظيف من ستة إلى ثمانية أمتار نظمت حديقة حقيقية من نوع «الجنائن المعلقة». وأنا أحب التنزه هنا. نخلات سامقة وأشجار الأكاسيا ذات التيجان الكثيفة على شكل المصباح والشجيرات الديكورية للزينة والظل البارد الظليل والسماء العالية المنظورة من خلال مربعات الفراغ المغطاة وغياب الناس التام. وهذه كلها تشكل جواً غامضاً للشرق العريق الذي احتل الشغف به قلوبنا واستقر في أعماق نفوسنا منذ مطالعتنا القديمة للحكايات السحرية في طفولتنا البعيدة.

وغير بعيد عن صالة الاستقبالات فيما بين مخازن البيع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الصغيرة والمقاهي وسواها من المحال المختلفة الأغراض نظمت مساحة فسيحة لاستراحة المواطنين الذين يروق لهم قضاء أيام العطل هنا والأماسي في أيام الدوام العادية. ويأتي سكان الرياض إلى هنا بصحبة عوائلهم الكاملة مع عربات الأطفال الصغار وأحذية العجلات المتزحقة والدراجات الهوائية وسلال للأطعمة، ويشغلون الموائد والمناضد المصفوفة في الباحة ويفرشون السجاجيد والأبسطة وتطول جلساتهم إلى ساعات متأخرة من الليل.

أنا وزوجي أيضاً مع أصدقائنا كذلك ليس نادراً ما نأتي إلى هنا لغرض الاستراحة والاستجمام في أعقاب مسيرة لمسافة كيلومترات عديدة من السابلة السالكة على طول الطريق. وقد كررنا بشكل خاص زياراتنا إلى هذا الموضع عندما نزل أحفادنا ضيوفاً علينا. ويمكن هنا ارتشاف كوب شاي أو فنجان قهوة وطلب الدندمة (الآيس كريم) وقطعة من خبز اللحم الإيطالي الحقيقي. ويمكن التدريب على أجهزة اللعب الأتوماتيكية أو مجرد الجلوس والتطلع إلى مشاهد صغيرة من حياة الأسرة السعودية. ومهما كان غريباً فإنه لا يثير الأعصاب مطلقاً ضجيج الأطفال الذين يتقاذفون الكرة أو يركلونها أو يتزحلقون

على أحذية العجلات والذين ربما يصطدمون غير قاصدين بمائدتك أو منضدتك. ويمكنك التطلع إلى التكبسية الحجرية الصقيلة كالمراة وبدون أية شروخ أو نتوء كذلك الباحة والربوات الواسعة والأمنة للمتزلحين والمتزلجين والزوايا المخصصة لأحواض الزهور والكنّاسين والمنظفين المعتنين والسقاة ورجال الأمن المستعدين دوماً لتقديم المساعدة.

ولأأعب من التعجب بصدد الكيفية التي تحرص بها السلطات على مواطني بلادها وعدم الرسمية والشكلية والإمعان في التفكير بشأن تنظيم راحتهم واستراحتهم وأوقات فراغهم وأشكال حياتهم. وتتفق على هذه الأهداف مبالغ طائلة من النقود، وليس لأن الأموال لديها كثيرة فحسب وإنما لأن الأمر ينبغي أن يكون على هذا الوجه خاصة. وقرب أي محل تجاري ومتنزه في البلاد نظمت ساحات ومجمعات لتسلية الأطفال علماً بأن ذلك يجري تحت رقابة الموظفين وملاحظتهم لكي تتاح الفرصة للأمهات للقيام في طمأنينة بالعمليات والصفقات الشرائية، أما الآباء فلكي يتوجهوا إلى أداء فريضة الصلاة في أقرب مسجد. والأطفال عموماً يحتلون الموقع المفضل في سياسة المملكة. ولأجلهم أعدّ العديد من مدن الأطفال خارج المدينة حسنة التجهيز والضمان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المدرسي الابتدائي التام والتعليم الثانوي والعالي المجاني مع مخصصات دراسية محترمة وكافية وخدمة طبية كاملة بدون مقابل كما هو الشأن أيضاً بالنسبة إلى البالغين.

وفي أعلى موضع من الحي الدبلوماسي أقيم قصر حفلات الاستقبال الرسمية وعقد الندوات والحلقات الدراسية وتنظيم المعارض المسمى بـ (قصر طويق) وهو بشكله وخلوه من النوافذ وبدوراناته الملتوية الدائرية يشبه فعلاً الطوق، وقد سمي بذلك نسبة إلى جبل طويق المعروف. وشكله الخارجي مبتكر جداً ولم يسبق لي قط رؤية ما هو شبيه به. ولعلي أستطيع تشبيه القصر بإوزة كبيرة مقلوبة. علماً بأن قسمه الأوسط يصل إلى ارتفاع عمارة سكنية في ثلاثة أو أربعة طوابق. أما كلتا نهايتيه المدورتين فتبدآن من أرضية المنتزه الداخلي من موضع قدميك مع ارتفاع تحليقي وسلّم حلزوني. ومن هنا يمكنك الارتقاء بيسر إلى سطح السقف العلوي والوصول عبر ظهر الإوزة إلى أعلاه وإغلاق الدائرة ثم النزول على السلم والمنحدر من نهايته المقابلة. ومن هنا ينفس منظر رائع وعلى قدر حركتك تشهد حوائيك وفي باحات القصر الداخلية تضاريس اصطناعية مع نباتات نادرة وغريبة وبرك عميقة مغطاة بأسقف زجاجية.

وفي المساء ترى قصور الأمراء خارج المدينة والسماء اللازوردية المضاءة بحزمة الأنوار فوق مدينة الرياض. وتشغل ثلث الحي الدبلوماسي المتنزهات وأحراش النخيل (ومجموع عددها في مدينة الرياض ثلاثمائة). وهذه مجموعة حقيقية من الخضرة كالحزمة الخضراء. وبالطبع يتطلب إنشاء مثل هذا جهوداً بشرية هائلة ونفقات طائلة ونقل الأتربة من شتى أنحاء المملكة وحتى من خارج الحدود. وقد سبق لي التحدث عن مشكلات توفير المياه. وفي الوقت الحاضر المصادر الطبيعية للماء ومصانع تحلية المياه تسد الطلب ولكن الحكومة قد كلفت العلماء بالمهام الخاصة بموضوع دعم تزويد البلاد بالمياه مستقبلاً. وحتى الآن تسقى الأشجار وتمتلئ الأحواض. أما النافورات ومساقط المياه والشلالات فتواصل عملها ليل نهار على مدى ٢٤ ساعة. وينفق بسخاء أيضاً على إضاءة المتنزهات.

وفي القسم الجنوبي الغربي من الحي الدبلوماسي في جزئه المنخفض امتدت غابة نخيل جميلة يستطيع أي مواطن القيام بزيارة إليها. وفضلاً عن ذلك نُصبت فيها خيام خاصة ورفوف تحتوي على مناقل وسواها من اللوازم المريحة للمتزهين وهواة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

إعداد الطعام وتناوله في الهواء الطلق أثناء النزاهات في أيام العطل. وأشجار السدر الفخمة وتيجان النخيل المثقلة بحملها في الربيع من الأعذاق الحاملة للعديد من الكيلوغرامات بالتمور المذهبة رطباً والزهور الفواحة بالرائحة الذكية أو أشجار الموالح الثقيلة بأثمارها والمساقط المائية غير الكبيرة مع الضفادع وأسراب البط الوحشي التي تنزل هنا للراحة والشرب. كل هذا يجتذب إلى هنا عشاق الطبيعة في أي موسم كان وحتى أثناء الصيف. وهنا تحت الظل الظليل على ضفاف غدير غير كبير احتفلنا غير مرة بالأعياد وأيام الميلاد من قبل العاملين في سفارتنا مجتمعين وفي كل مرة وأنا أنظر إلى الانعكاس الدقيق الواضح للنخيل في الماء الساكن وأنصت إلى تغريد الطيور وأصوات الهوام والحشرات غير المرئية شعرت باستغراب الإعجاب بالإمكانات غير المحدودة لدى الطبيعة الحية في حالة اتخاذ موقف العناية والرعاية إزاءها إذ هي ترد على ذلك بالعرفان والشكران حتى في وسط البيداء.

ويفضل السعوديون الاستجمام في استرخاء مستلقين على مصاطب خضراء جالسين على السجاجيد محاطين بالسلال المحتوية على أطعمتهم وحاجاتهم أو عند ملاعب الأطفال

وساحات لعبهم التي يمكن القول مجازاً: إنها منظومة كالقلائد في خيط السابلة السالكة. وهذه الساحات مجهزة بذوق مرهف. وكذلك عرائش المناظر المخرمة من الأخشاب المنجورة والمحزوزة بالنقش اليدوي والأكوخ المصنوعة أسلوبياً على غرار الخيام والبيوت القديمة، والأحواض غير العميقة والأراجيح والربوات والأدوات الرياضية الصالحة للاستعمال والجاهزة لخدمة أصحابها الصغار. وبالطبع فإن الأطفال في جميع البلدان متماثلون ويحدث أن بعضهم يحطم الألعاب، ولكن يراقب ويلاحظ كل هذه الأشياء جيش كثير التعداد وإن كان غير ملحوظ من المستخدمين.

والعوارض الديكورية مشذبة والترع المائية منظفة والدروب منثورة بالتربة الناعمة. أما النباتات السامقة في الممرات المشجرة المخصصة للنزهة تحت أشعة الشمس الملتهبة فهي نظيفة وبانتظار زوارها. ولكنهم ويا للغرابة قليلو العدد! ويحدث أنه في غضون نزهة لمدة ساعتين لا تصادف حتى شخصاً واحداً وبخاصة في الأيام الاعتيادية. ومعظم السعوديين العاديين يفضلون إمضاء أوقات الفراغ في متنزهات المدينة والمراكز التجارية إذ يتنقلون راكبين إلى ضواحي الرياض فيجلسون

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بجوار سياراتهم عند حواف الجادة متطلعين بتأمل نحو الأفق أو إلى نجوم السماء الليلية وبهذا الشكل ربما يتم لهم إطفاء غليل الشوق إلى أمهم الصحراء.

ونحن - أنا وزوجي - نأتي راكبين إلى الدرب قبل وقت قليل من غروب الشمس. وبعد قطع مسافة بضعة كيلومترات بسرعة نتوقف عند أحد المرتفعات في حافة لنشاهد كيف يهبط قرص الشمس الكبير ذو اللون البرتقالي الباهت أمام أعيننا وراء خط الأفق الدقيق. كنت قد ذكرت في بداية حديثي هذا كيف أدهشتني الأنوار الساطعة المشعشة لمدينة الرياض حين وقعت عليها عيناى لأول مرة من تحت جناح الطائرة التي أقلتنا. أجل؛ إن الشوارع الليلية لهذه المدينة وضاءة دوماً كنور النهار وبخاصة في أيام الأعياد والاحتفالات. وتأخذ المؤسسات الخصوصية حصة الأسد من الإضاءة. وعملياً تشغل جميع الطوابق الأولى من العمارات السكنية محال البيع والمطاعم والصيدليات وصالونات الحلاقة ومشاغل أصحاب الحرف والفروع الخدمائية الأخرى وهي حرفياً مفعمة تبعاً لقوة الخيال لدى أصحابها بكل أنواع الإعلانات الكهربائية المضيئة، وبفضل هذا تبدو الشوارع وكأنها شاشة معرض زجاجي وضاء موحد

مفتوح الباب على مصراعيه أمام المشتري.

وليس بوسعي حتى إيراد الرقم التقريبي لعدد المخازن في مدينة الرياض، وعلى الأرجح يوجد مثل هذا الإحصاء إلا أن عددها من الكثرة بحيث يمكنني أن أستخدم في وصفها التعبير القديم «بلا عدد». وهي تتراوح ما بين المتواضعة في حجرة واحدة غير كبيرة والضخمة التي تشمل طابقين وثلاثة طوابق في بضع مئات من الأمتار المربعة، ناهيك عن المراكز التجارية عديدة الطوابق التي تضم عمارة سكنية بكاملها. وجدران واجهاتها تمثل حائطاً ضخماً من الزجاج عارضة محتوياتها على كل الطوابق بشكل ديكوري فسيح بحيث إن المشتري يبدأ - وهو ينظر إليها من وراء زجاجات سيارته الخصوصية - بالتفكير في نوعية صفقته الشرائية. وثمة كثرة هائلة في مخازن بيع الأثاث التي رتبت فيها بكل ما يلزم من قطع الأثاث المنزلية الأمامية والمصاحبة مغيرة حاجياتها الرائعة بما هو الأحدث منها والأكثر عصرنة منها مناوبة كل نصف عام من الزمان.

ويتولد لديك انطباع وكأن الأثاث من أدوات الطلب اليومي في الشراء. وتجلب الاهتمام وتستجلب الأنظار مخازن أجهزة الإضاءة بالألأة الأصابع البلورية الماسية المشعشة للشركات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الضخمة في الأشكال والأحجام كافة. وتعود الشهرة خاصة إلى محال الحلويات والساكر حيث الشكولاتة والتمور والحلوى الشرقية تباع في صناديق مبلورة أو مرصعة وفي مزهريات بلورية وإذا رغب في الأقل ثمناً ففي أوعية لدائنية ملونة ومزوقة بشكل مبتكر وجذاب. أما مخازن بيع الأدوات المنزلية ولوازم التدبير المنزلي فإنها خاصة تماماً بتلك الكثرة من الأشياء الجميلة والبديعة إلى حد أن أية امرأة ترى مثل هذه البدائع لن تذهب من هنا فارغة اليدين بل تشتري منها المزيد فالمزيد بدافع الإغراء والإغواء في الدعاية والإعلان.

وبالطبع كان يمكن تأليف كتاب منفرد عن مخازن المبيعات في الرياض بل وفي سواها من المدن بالمملكة العربية السعودية وبالأخص كبريات مدنها. ولكن الاستنتاج العام هو التالي: أنها تعرض الغزارة والترف وبالطبع المعرفة الدقيقة بنفسية المشتريين. ويعمل على هذا اختصاصيون مهرة. وكل متخصص في تجميل الواجهاً يرتب لا المحل التجاري وحده بل وكل المجال الرحيب الواقع أمامه بما في ذلك المقطع القريب من رصيف الشارع. والمحال الصغيرة أيضاً تستخدم لجذب انتباه المشتريين مختلف المؤثرات الضوئية والمعلقات الملونة والآليات

الصغيرة أو تعرض التحف التذكارية، وعلى سبيل المثال دلة قهوة بحجم أربعة أمتار. وإذا كانت مزروعة أمام المحل التجاري نخلة أو نخلات فهي أيضاً يمكن تزيينها ولف جذعها على طوله بزينات ومزوقات. وخلال الآونة الأخيرة أصبح بمثابة الموضة نصب كشافات كهربائية دوارة ضخمة وقوية جداً ترسل أشعتها النافذة والثاقبة تارة نحو الأرض وما فيها وتارة أخرى نحو السماء فتحول الليل إلى نهار. أما بخصوص الأرصفة فإن كل صاحب محل تجاري يزين محله والرصيف المقابل على ذوقه وهواه. فإذا شاء فرش عليه بساطاً وثيراً وإذا أراد بلّطه بالمرمر أو كساه بالبلاطات الرخامية الديكورية. وأحياناً ثمة من يبدأ من قسم رصيف المارة. وهكذا فإن المشاة العابرين قليلي العدد يعانون أحياناً صعوبة في المرور بين كل هذه المعوقات. ولكن الاهتمام منصبٌ هنا على أولئك الذين يركبون سياراتهم الخصوصية.

وتزين بشكل جميل وبديع للغاية المزارع الشارعية الصغيرة العائدة إلى مخازن بيع الزهور والباقات وفي مساحة غير كبيرة (٥، ٢ × ٤ أمتار). ينظمون حديقة حقيقية فيها وناפורات ومساقط مياه وطواحين مصغرة تعمل مراوحها بقوة حركة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الماء. والمشتري المنتظر وهو يخطو على السجادة الناعمة من العشب النامي بين النباتات الفواحة بالنكهة العطرة يجد نفسه محمولاً على الشراء من هذه الأزهار المغرية.

وقسم كبير من السعوديين يفضلون شراء السلع الصناعية من الأسواق. وخلافاً لأسواقنا تمثل أسواقهم صفوفاً طويلة من المخازن المريحة غير الكبيرة على هيئة حوانيت ودكاكين مجمعة في حيز واحد. وعلى سبيل المثال: يتألف سوق الديرة في القسم القديم للمدينة من ٤٠٠ نقطة مبيعات، ولكن ثمة مجموعات أكبر حجماً ومحتوى. ومن الممكن فيها شراء كل شيء من إبر الخياطة إلى قطع الأثاث الكبيرة والسجاجيد على اختلافها.

وهي مشهورة خصوصاً بالروائح والعطور والزيوت العطرة الطبيعية والحناء. وهنا ترى المساومة عند الشراء وإذا كنت تستطيع إظهار براعتك كأجنبي في الإلمام باللغة العربية واللهجة المحلية الدارجة بحيث تنال الإعجاب وتثير العجب فليس من الغريب أن تسامح في السعر وتحصل على تنزيلات في الأثمان. وبودّي إيراد بضع عبارات عن المطاعم والمقاصف. والأخيرة تقع عادة بجوار المحال التي تبيع السلع اللازمة يومياً كحوانيت المخابز واللحوم والخضار و«السوبرماركت» وصالونات الحلالة

والخياطة. وهذه المقاصف معدة للرجال فقط وفي بعضها أماكن خاصة بالعوائل. أما المطاعم فإنها في الرياض بكثرة كثرة بشتى النواع والألوان القومية كالتركية والهندية والمغربية واليابانية والكورية والإيطالية والعديد سواها. وهي في العادة صالات فسيحة مقسمة إلى أركان بعوارض خشبية بديعة النقوش والزخارف أو الحواجز العازلة والستائر بحيث ينعزل الجلساء والضيوف عن بعضهم بعضاً في حلقات تضم المتعارفين والأصدقاء. والمدخل إليها مقسوم عادة إلى بابين للرجال وللعوائل بحيث إنهم عند الولوج إلى الداخل لا تقع أنظارهم على بعضهم بعضاً، وذائفة الصيت على نحو خاص المطاعم الصينية المتميزة بزیناتها الخاصة وجدرانها مزوقة «ديكورياً» بالأقمشة الأطلسية ذوات الألوان الزاهية ومتدلية من السقف شتى أنواع القناديل الملونة والأجراس الصغيرة والجلال الرنانة. والبرك الاصطناعية ذوات النافورات والأحواض الزجاجية الضخمة وهي أعلى من قامة الإنسان وتعم فيها أنواع عجيبة وطريفة من الأسماك والأحياء البحرية لتسلية الرواد، وهنا بوسعك طلب الجلوس في قاعة مغلقة غير كبيرة وقضاء الوقت مع أصدقائك ومعارفك.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والعاملون فيها أنيقون يستقبلون الضيوف ويودعونهم بابتسامة عريضة وبوجه بشوش ويحملون إليك بالتأكيد في ختام المائدة داخل علب خاصة كل ما حجزته من طلبيات ولكن لم تتسع المعدة لاستيعابه من ألوان الطعام. وبالطبع يقدمون لك آيات الشكر على الزيارة داعين إياك إلى تكرارها ومرحبين بك سلفاً ومسبقاً. وجدران الواجهات في جميع المطاعم الصينية كذلك مزوقة بصورة مبتكرة جداً ولهذا حين التجوال في الشوارع تستطيع بكل سهولة ويسر العثور على مثل هذا النوع من المطاعم الفاخرة. و«الكنتاقيات» (المطاعم الكورية) وكذلك «البيسيريات» وفروع «ماكدونالدز» مزينة ومزوقة بشكل ساطع وتقليدي أيضاً. وثمة نوع آخر من المطاعم ملحقة بالفنادق الكبرى والفاخرة، وهذه أيضاً قاعات صغيرة وأخرى كبيرة تشغل عدة طوابق.

وفي مثل هذه الأماكن تنظم في العادة مختلف حفلات الاستقبال وضمنها الدبلوماسية وكذلك الاحتفالات والولائم والأعراس وما إليها. ونحن ننظم الاحتفال السنوي باليوم الوطني لجمهوريةنا في قاعة الاحتفالات بفندق «قصر الرياض» وهو نفسه الذي نزلنا فيه في اليوم الأول من وصولنا إلى هذه

البلاد. وهذا ليس بمحض المصادفة إذ إن زوجي منذ ذلك اليوم عقد أواصر الصداقة مع المدير الرئيس لهذا الفندق. وظهر لنا أنه وزوجته على جانب كبير من اللطف والرقّة وهما منحدران في الأصل من الأردن. وعلى الأرجح أنه على أساس من المحبة المشتركة لهذا البلد الرائع قد تصادقتا ومنذ ذلك الحين أخذ بيدي لسفارتنا - لبلادنا أيضاً - كل تبجيل مقدماً لتنزيلات كبيرة في الأسعار لتنظيم الاحتفالات بأعيادنا وإقامة حفلات استقبالنا. وخلال شهر نيسان (أبريل) من عام ٢٠٠٢م نظم في هذا الفندق نفسه بفخامة كبيرة وأبهة معرض السجاجيد الأذربيجانية تحت رعاية أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز. وبوجه عام إبّان أعوام طوال من العمل الدبلوماسي لزوجي استطعت الاقتناع بمدى الأهمية بالنسبة إلى هذا العمل في العلاقات والصلات الشخصية مع الناس.

وفي ختام حديثي عن المطاعم هنا أود الاكتفاء بإضافة أن هذه المطاعم متميزة على نحو مدهش عن المطاعم التقليدية بالغياب التام للمشروبات الكحولية والموسيقى. ولكن الأطعمة فيها ممتازة سواء الفاخرة منها والأكثر تواضعاً الأمر الذي يتيح لمعظم الأجانب القادمين إلى هنا لغرض العمل واكتساب الرزق

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وفي أغلب الأحوال بدون عوائل أن يتناولوا وجبات الطعام في أمثال هذه المحال. وتجذب الكثير من المقاصف الصغيرة جداً التي تقدم الشاورمة التركية والأكلات السريعة برائحة اللحم المشوي والمقلي من يمر بجوارها. ومثل هذا الرغيف المطوي على الحشوة الشهية الفاتحة للشهية يساوي ثلاثة ريالات سعودية أي: أقل من دولار، وهذا في متناول أي فرد وضمن قدرة جيبه.

ولأجل متعة المواطنين وتسليتهم عدا سباق الإبل الذي سوف أتناوله بالحديث لاحقاً في أدناه يعمل بنشاط مضمار لألعاب القوى. ومسابقات الخيل، كذلك مباريات كرة القدم تستثير ضجة كبرى بين الشبان وهو ما يشعر به أحياناً حتى في الشوارع (وخصوصاً عقب انتصار الفريق المحلي) فالشبان يسوقون سياراتهم الخصوصية بأقصى سرعتها في رحاب الشوارع وبعضهم جالسون على أسقف السيارات وهم يهللون ويلوحون بكوفياتهم في مرح وحبور. وتنظم سباقات الخيل حسب جميع القواعد الدولية ولكن - بالطبع - بدون السماسرة والمراهنات وعلى الرغم من ذلك تسترعي الاهتمام الحي.

ومن مجموع ثلاثمائة حديقة ومنتزه في العاصمة السعودية

يحظى أحد المتنزهات بشهرة خاصة لا لدى الأطفال وحدهم وإنما أيضاً لدى البالغين. وهو حديقة الحيوان الممتدة على مساحة شاسعة حيث الأقفاص والحظائر التي تعرض على زوارها أنواع الحيوانات. وثمة جزائر وتضاريس رائعة وترع ماء اصطناعية ونافورات وساحات عشبية حسنة التشذيب ومحاطة بسياج من النباتات المزهرة. وتدهشك العناية الفائقة إلى حد عجيب بتنظيم وترتيب حديقة الحيوان ونظافة الحظائر والأقفاص والغياب التام لأيّة رائحة كريهة ومقرزة فيها. والأنواع المختلفة من هذه الحيوانات تعيش في ظروف مقاربة للظروف الطبيعية لمعيشتها. ولهذا فإنها تتناسل وتتكاثر بشكل طبيعي وتبعث السرور والفرحة بمنظرها وعلائم صحتها التامة. ومعروض منها على نحو واسع بشكل خاص القرود ابتداء بالانسانيس الصغيرة التي يمكن أن تجلس على راحة الكف وانتهاء بالفوريالات الضخمة والأرانغوتان وبالطبع الريميتيلات. والأخيرة مجلوبة من شتى أنحاء الحلقة الحارة من أحزمة الكرة الأرضية، والحيوانات المحلية أيضاً ليست قليلة فيها، ومن بينها كان أكثر اهتمامي بالأفعى ذات القرون المنتشرة في أراضي المملكة. ولديها على الرأس قرون صغيرة تتمايل على

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

سطح رأسها عندما تندس في الرمال. وهي إذ تتجانس من حيث اللون مع الوسط المحيط والمنظر الطبيعي العام تكون غير ملحوظة مطلقاً حتى عن قرب وكثب، ولهذا فإنها على جانب كبير من الخطورة وذلك لأن لدغتها مميتة. غير أنه ذكر لي أن البدو لديهم وسائل ناجعة وفعالة ضد سم هذه الأفعى وكذلك ضد الرتيلاء والعقارب التي تكون في أوقات بعينها من السنة بالغة الخطر.

وكما هو الشأن في الأماكن العامة الأخرى فإن زيارة حديقة الحيوان محددة بدقة: يوم للرجال وآخر للعائلات. وعلى الرغم من وجود مقهى في الحديقة فإن روادها يفضلون الجلوس على العشب في المروج الخضراء للاستراحة وإدارة الحديقة تسمح لهم بذلك. وهم يفرشون هناك السجاجيد أو البسط أو البطانيات ويتناولون الطعام والفواكه. ويقضون اليوم في الهواء الطلق. وفي غضون بضعة أعوام قدم مدير حديقة الحيوان للقسم العلمي سيبيري - وهو اختصاصي رائع وإنسان طيب النفس - الكثير لتطويرها. وقد نظمت في كل سنة زيارات إلى هنا لبعض أصدقائي وكذلك لموظفي سفارتنا وسفارات أخرى فلماذا نظمتها؟ ذلك لأن المدير سمح لنا استجابة لطلب مني بالقدوم

في ساعات الصباح من أيام العطل حين تكون الحديقة خالية من الرواد. كانت حديقة الحيوان غارقة في هذا الوقت في بحر من الهدوء التام بعيداً عن ضجيج المدينة ومشكلات الازدحام وكثرة الناس. ولم تكن تسمع سوى تغاريد الطيور والزعقات المنفردة للوحوش المفترسة من زمجرة وزئير وعواء وهدير والضحكات والكركرات من أطفالنا المتقلبين على العشب. وذات مرة جلبت معي إلى هنا مجموعة من المعوقين جراء العمليات الحربية والقتالية في منطقة قرّة باخ الجبلية الذين كانوا يقضون مدة علاج مجاني في مستشفيات الرياض. وقد أركبوا في حجب مع عربات المقعدين وعكازاتهم في عربة ترامواي خاصة، ونظمت لهم جولة في جميع أنحاء الحديقة مع التوقف عند كل قفص. وقد غمر الفرح نفوس هؤلاء الشبان المعوقين وعمّهم الإعجاب وابتهجوا كالأطفال المرحين ناسين لمدة من الزمن مأساتهم ومصائبهم.

وبين كل التنوع في الحيوانات كانت لدينا بالطبع الحيوانات المحببة. وهي مجموعة قرود الارانغوتان وهي خمسة أفراد منها ونحن هنا عادة كنا نتوقف لمدة لا تقل عن نصف ساعة ملاحظين حركاتها، وهي أيضاً كانت تراقبنا وكأنها تتفرج علينا بدورها.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وبعد سماح الموظف المختص قمنا بإطعامها قليلاً من فاكهة الموز وقدمنا لها بعض التمور. وكانت هذه القروود وهي تتلقف اللقم اللذيذة تبدي لا الحذق والخفة فحسب وإنما أيضاً معهما الخواص الفردية من الطباع، إذ لم تشأ قرودة أن تكلف نفسها بأخذ ما يقدم إليها ولعل قرودة أخرى عدت أن من غير اللائق بكرامتها وعزتها أن تتلقف متلهفة العطايا. أما القرد فإنه على العكس عرض الرغبة الإيجابية النمطية المعهودة في ملء معدته وحشوها بالمزيد فالمزيد. وأخذت القروود تظهر التذلل وتمد أكفها طالبة الملبس والحلوى وثبتت أصابعها عند الصدغ. وعموماً تصرفت على نحو مغاير لتصرف البشر الأمر الذي أثار بالطبع عاصفة من السرور والمرح لدى أطفالنا بل وحتى لدى البالغين كذلك.

ومن دواعي السرور أن أماكن معيشة الحيوانات في حديقة الحيوان - ولا أريد أن أصفها بالحظائر احتراماً لساكنيها!- مشيدة بحيث تكون الحواجز والعوارض بينها وبين رواد الحديقة منخفضة ومريحة للنظر الفاحص سواء للبالغين أو الصغار. ولكن لغرض الأمن والحرص على السلامة ثمة في الداخل على طول الزربية خندق مملوء بالماء وليس بوسع الحيوانات

أبداً تخطيه.

وأذكر هنا حادثة وقعت في حديقة الحيوان قبل بضعة أعوام. وبالطبع كان ذلك حدثاً من الطوارئ غير المتوقعة. في العادة تجري جميع الأعمال المساعدة في غياب الزوار. وكان الأمر على هذا النحو أيضاً في ذلك اليوم ولم نكن نحن بالطبع في الحسبان. تهيأ العاملون في الحديقة لنقل تمساح فتي ولكنه قوي من ترعة ماء صغيرة وضيقة إلى ترعة أوسع. وكانت مجموعتنا في هذا الوقت خاصة في موقع غير بعيد، وقد طلبت من العاملين السماح لنا بمشاهدة العملية وتصويرها على شريط سينمائي. وكان العمل يقتصر على الإمساك بالتمساح بشكل معين وجره لمسافة ثلاثة إلى أربعة أمتار وإنزاله إلى فوهة تفضي إلى الحوض المجاور. وصعد اثنان من العاملين إلى حافة الحوض وأخذا يرميان شبكتهما على الحيوان وتسنى لهما إنجاز المطلوب ولكن حين أحس التمساح الضخم بالأنشطة التي تشده إلى حد الاختناق صار يتلوى محاولاً التخلص منها وبشكل ما استطاع تحرير إحدى قائمته الأماميتين بيد أن الحبل كان لا يزال محكماً بشدة في الإطباق على عنقه. وظن العاملان أن ذلك كان كافياً للسيطرة عليه وراحا يجران التمساح من ذنبه ورأسه

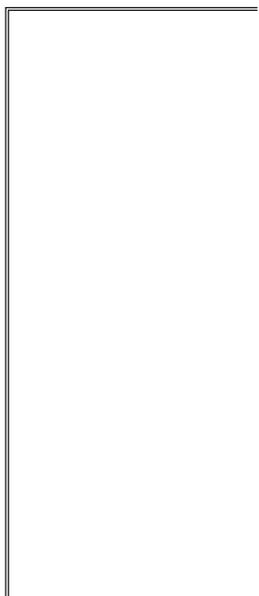
المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وبعد الإمساك به جيداً بدأ يرفعانه. ولا أدري كيف حصل هذا ولكن التمساح وهو مرفوع في الهواء انفلت فجأة وعلى حين غرة أطبق بفيه الرهيبين وعض بأنياابه المهولة العامل في الحديقة. وتدفق الدم وسقط التمساح في الحوض واندفع أحدهم إلى الهاتف طالباً النجدة والإغاثة بالمساعدة الطبية الإسعافية. وينبغي إبداء ما يجب من التقدير اللازم فإن فريق الإسعاف سرعان ما وصل إلى الموضع بعد خمس دقائق فحسب. ونقل المصاب وهو في حالة ذهول إلى المستشفى. بقينا ونحن مدة طويلة لا نستطيع تمالك جأشنا واستعادة هدوء نفوسنا. ثم استوضحت فيما بعد فعرفت أن ذلك العامل بقي على قيد الحياة وخرج من الحادث سالمًا ولم تنفذ أنياب التمساح الحادة إلى العروق ولم تقطع الأوردة والشرايين وبقيت الأوعية الدموية على حالها.

وببساطة يمكن القول: إنه قد ولد في قميص السعادة وهو ذو حظ سعيد. وظلت ذاكرتي تحتفظ بلوحة ساطعة للواقعة التي هزت المشاعر، ومشاعري ضمناً، وما زلت أحتفظ بالشريط السينمائي الذي سجل وثائقياً هذا الحادث الفظيع.

عالم الحيوان



لو نظرت إلى أراضي المملكة من كوة الطائرة لرأيت أن القسم الأكبر منها يمثل صحراء قاحلة، ورغم ذلك - عدا غابات النخيل المزروعة بيد الإنسان وهي التي تحدثت عنها آنفاً والخطوط الخضراء لسفوح ساحل البحر الأحمر وكذلك الواحات الكبرى في القسم الشرقي من شبه الجزيرة - يمكنك أن تشاهد هنا نباتات كثيفة مثل: شجرة الأسمل. وهذه الأشجار تستطيع العيش جيداً في أنواع التربة الرملية الساخنة وليس نادراً ما تزرع خصيصاً عند حدود هذه الأنواع من التربة لتثبيت الكثبان المتحركة. وتشاهد كذلك مختلف أنواع أشجار الأكاسيا التي تزهر بنشاط عاصف في الربيع بكل تدرجات اللون الأحمر وأشجار الميموزا التي تنبت عليها كريات صفراء منتفخة في حجم الثمار الكثيفة من البرقوق والشبيهة بمظلة مسطحة للشجرة الشوكاء، وبعد المطر تزدهر الصحراء بياقات من أزهار النرجس الصغيرة وزهرة الأريس الوحشية باللون الأزرق

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الغامق وتنبسط كالسجادة الأعشاب بعمر عام واحد التي تمثل إضافة غذائية فيتامينية ممتازة إلى الغذاء الشحيح جداً كطعام للإبل والأغنام. وأما في المناطق الجبلية فيمكن مشاهدة أنواع من نباتات الكاكتوس الشوكاء وبعض النماذج من الأشجار السامقة. وثمار الكاكتوس لذيذة جداً من حيث الطعم إلا أنها تتطلب معالجة دقيقة جداً. والسكان المحليون يستطيعون ذلك بكل يسر منظرين بالسكين القشرة الشائكة رأساً ثم يستمتعون بتناول الثمرة الشهية.

ومدن المملكة العربية السعودية الحالية تمثل واحات بالمعنى الحرفي وجميع الشوارع مشجرة وفيها الكثير من الحدائق العامة والمتنزهات الأمر الذي يتطلب من الحكومة نفقات ضخمة نظراً إلى مناخ البلاد الصارم. وقد مد إلى كل شجرة أنبوب فردي خاص للسقي التقطيري (أي: بالقطرات). والنباتات تشدّب على الدوام وبانتظام ويعتنى بها وينافس المالكون الخصوصيون بعضهم بعضاً في تحسين تنظيم حدائقهم والساحات الخاصة بلعبة الغولف والساحات الخضراء. والنباتات في التربة المجلوبة وبسبب غزارة الماء وسطوع الشمس تشهق إلى الأعلى مسرعة في نموها بشكل عجيب، مثل: شجيرة الياسمين المتعرش وهي

تزهـر كثيراً جداً بغير استعجال وعلى مدار السنة وتتشابك مع الأشجار المجاورة وبسبب زيادة الطاقة الحيوية تتموج وكأنها ناقمة بسبب كثرة الازدهار والتشعب الكثيف، مما يحملها على تسلق الجدار والنزول عبره إلى الجهة الثانية محولة الشوارع والأزقة إلى ممرات شديدة الخضرة. وبين هذه الكثرة من الأزهار وبخاصة في الربيع تبني الطيور الكثيرة أعشاشها وتتجاوب أصواتها المتناغمة بين الزقزقة والسقسقة على عادة ذوات الأجنحة، مثل: الحمام البري والبيغاوات المرقشة وطائر الهدهد والزرازير والعصافير. وتخطط السماء الشفافة بشكل حثيث الخطاطيف الرشيقة من طيور السنونو (السند والهند) إذا أسعف الحظ يمكن سماع التغريد الساحر للهازار من نوع البلب العنديبي. أما في الصباح والمساء فيمتلئ الجو بالغناء الحاد من الشحارير.

وعموماً فإن عالم الطيور في شبه الجزيرة العربية يتميز بالثراء والتنوع وبخاصة في المنطقتين الساحليتين. وتحلق أسراب الطيور المهاجرة مرتين من أوروبا إلى إفريقيا قاطعة الأجواء فوق شبه الجزيرة العربية وأحياناً تنزل هنا للتعشيش. وأولى الهجرتين عبر البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، والهجرة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الثانية عبر وادي الرافدين (دجلة والفرات في أرض العراق) والخليج العربي (الفارسي) ثم لاحقاً إلى أثيوبيا وأريتريا. وهي تطير إلى المملكة العربية السعودية أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) وتغادرها في نيسان (أبريل). وهنا تتصيد الأسماك الطيور الوحشية وتتسكع في المياه الضحلة الكراكي البيض واللقائق وطيور البليكان. وتعرض الأوز الوحشية والطوايس الأنيقة الشيقة ريشها.

وثمة تجمعات من طيور الفلمنغو الأوروبية حافرة بأرجلها القوية الطين الغريني مستخرجة منه صغار الأسماك والديدان التي تقع في الحال في حيازة مناقيرها المعقوفة ولعلي لم أشهد مثل هذا التحشد لطيور الفلمنغو إلا في خليج عدن باليمن. وأنداك كان أول موقف عجيب لي معها حين ارتفعت في الجو أسرابها إلى درجة عالية فوق المنطقة البحرية من بين الشقوق المرجانية البيضاء الوردية وتحولت إلى سحبة رمادية فاتحة تفرقت ببطء في قبة السماء الزرقاء (ولم تكن تلك سوى سرب كبير من هذه الطيور). ومن الطيور الكواسر تصادف الشواهين والنسور والصقور. والأخيرة تصاد وتدرّب على صيد الأرناب والسحالي والطيور صغيرة الأحجام وكذلك طيور السهوب

الكبيرة من ذوات العنق الطويلة والسيقان القوية. وهي الهواية المحببة لدى السعوديين التي تعود إلى أعماق التاريخ على مدى عدة مئات من السنين. أما قبل ظهور الأسلحة النارية أواخر القرن التاسع عشر فقد كانت هذه الهواية الفرصة والإمكانية الوحيدة لحصول سكان الجزيرة العربية على اللحوم.

ويشكل الصقر جزءاً لا يتجزأ من الفولكلور السعودي وقد نُظمت فيه القصائد واخترعت الأساطير. أما استخدامه في الصيد فيشكل نوعاً من الرياضة البدنية، وهو طير ذكي وجميل وقابل للتدريب. وإذا جرى الحديث حول صقور المملكة العربية السعودية فإن الطول الأمثل للصقر الجيد من الرأس وإلى الذيل ينبغي أن يكون بطول ذراع الرجل من أظفار أصابعه إلى المرفق. وتعود الصفات الحسنة الأخرى لطيور الصيد إلى الصدر العريض والريش الناعم والبصر الحاد الثاقب والأجنحة الطويلة القوية التي تمنحه القدرة على السرعة النادرة في التحليق وبخاصة ضد الريح. وثمن طير كهذا يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألف دولار.

والصقر فوق متناول الأيدي إلا أنه في الوقت نفسه سريع التأهيل والتعود على مختلف التغيرات ولهذا فإنه صالح تماماً

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

للترويض والتدريب مما يحتاج بالضرورة تبعاً لكل نموذج من عشرة أيام إلى بضعة أسابيع. وصيده وتدريبه يتطلبان غير قليل من الوقت والصبر الكبير والخبرة والابتكارات ومعرفة أهواء هذا الطير. والصقارة لا يأخذون هذه الطيور من الأعشاش والأوكار وهو يمكن أن يكون أبسط كثيراً بل يفضلون صيد الطيور الفتية منها التي تكونت شخصياتها الفردية والتي افتردت عن السرب. ومهما بدا ذلك غريباً فإن الطير المطلوب يجب أن يكون بالتأكيد طيراً من الجنس الأنثوي. وقد ظهر أن الإناث منها خاصة تمتلك الصفات اللازمة للصيد وهي وحدها، تعد صقوراً كاملة. أما ذكورها فإن حجمها يكون بمقدار الثلث من حجم إناثها. وخلال الأزمان السالفة لم يكن البدو معنيين بجنس هذه الطيور وكانوا ينتقونها حسب إمكاناتها ومهاراتها في الصيد، وهكذا كان. وحتى في الوقت الراهن عندما يكون البدو واثقين ومتأكدين أن الطير الذي لديهم أنثى فإنهم يسمونه باسم الصقر الذكر. وهكذا فإن إناث الصقور حالياً استحقت أسماء الصقور الذكور بسبب صفاتها الذكورية.

وثمة عدة أساليب وطرائق تقليدية لصيد الصقور؛ فمثلاً: كان يصنع في الزمن القديم قفص غير كبير من أعواد دقيقة جداً،

أما حالياً فمن أسلاك معدنية كالشعيرات. وتربط بها كمية من الأنشوطات وتوضع داخل القفص حمامة بمثابة الطعام. وينقض الصياد الجناح على فريسته وينشب فيها مخالفه المعقوفة، وعندئذ لا يحتاج اقتناصه إلى جهد كبير. ويستخدم الحمام كذلك بربطه إلى شباك لا تكاد ترى طولها بضع عشرات من الأمتار مشدودة ومثبتة إلى الأرض. وتخفق الضحايا المسكينة بأجنحتها محاولة التخلص والتملص من الكبود وهذا بالطبع يسترعي انتباه الطير الصياد الذي يسقط أيضاً في المصيدة المنصوبة ويقع دونما ريب في أيدي قانصيه.

وبعد أن يصاد هذا الطير أو يقتنص ويعد في رأي المتخصص صالحاً للتدريب يركب على رأسه حجاب جلدي خاص يغطي عينيه. وأحياناً لهذا الغرض يخاط جفناه بحذر بخيط رفيع ويحتفظ به على هذه الحال داخل مبنى لمدة ثلاثة إلى أربعة أيام. وهذا لا يؤثر بأية حال على قوة البصر لدى الصقر. ولكن ما هو جدير بالملاحظة أنه يجعله أكثر هدوءاً. وفي غضون مدة التدريب كلها لا يسمح للطير بالنوم ليلاً، وبين الفينة والأخرى تقدم له قطع من اللحم. ولأجل الترويض والإعداد للصيد، فضلاً عن الحجاب الجلدي، يحتاج الصقار إلى عدة أشياء

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أخرى ضرورية منها فردة قفاز من الجلد أو الكودري تلبس على كف اليد اليسرى لحماية صاحبها من مخالب الطير الحادة. وبعضهم يفضلون محفظة طويلة من الجلد الكودري محشوة بألياف، لهذا الغرض وقفة خاصة شبيهة بقبعة على شكل كتاب مفتوح لاستراحة الصقر خلال المدد ما بين تحليقات الصيد، ويحتاج أيضاً إلى حزام قصير تربط به ساقا الصقر إلى القفة وحقيبة جلدية واسعة توضع فيها فرائس الطيور التي تعد منها وجبات طعام للبدوي. وفضلاً عن هذا لا بد من شيء آخر ذي أهمية لازمة لتربية هذا الطير الصياد هو عصا لشد أجنحة الطيور التي ستستخدم طعاماً.

وأخيراً تحل اللحظة التي طال انتظارها. أصبح الصقر متديراً وجاهزاً لخدمة صاحبه. وهو الآن على علم بأنه في أعقاب أية تحليقة صيد سواء أكانت موفقة أم خائبة سوف يحصل على قطعة لحم. وهذا معناه أنه بالتحالف مع الإنسان سوف يؤمن له الطعام اللازم وهو ما يمنحه الطمأنينة والثقة. وها قد حل الصباح الباكر والصقار يعتلي صهوة الجواد وعلى يده اليسرى الملفوفة بالحقيبة اليدوية يجلس الصقر ورأسه مغطى بالكيس الجلدي. وتنفسح أمامها نصف دائرة

لا تنتهي من البيداء الحجرية تخيم فوقها قبة السماء النفاذة ذات اللون الأزرق الفاتح والمنارة بأشعة الشمس الجانبية. وتهب نسمة هواء خفيفة فتتلاعب بشعر العرف على رقبة الجواد العربي وتحرك أيضاً ريش ذلك الطير الصياد. ويرنو البدوي من موقعه المرتفع بنظراته الثاقبة عبر الهواء الشفاف والمنظر الطبيعي غير المزدحم في مكان ما من السماء الصافية يتردد تغريد قُبْرَة غير مرئية. وينفذ صبر الرجل إذ إن الوقت هنا يجري ببطء، وبغته يلحظ حركة لا تكاد تبين بين أحجار فيتوتر جسمه وتنتقل حالة صاحب الصقر إليه كذلك في لحظتها. ويخلص الصقار ساقِي الصقر من الأغلال ويسحب الحجاب الجلدي عن رأسه وتتطلق من حنجرتة صرخة مزمجرة. وهذه علامة خاصة الدلالة فيحرك الصقر رقبتة ويهز رأسه ويوزع نظراته الثاقبة على الجهات كافة. ولكن ها هو يتجمع للحظة واحدة فقط ثم ينكل في نتره ويحلق قرب سطح الأرض بسرعة متزايدة. ولكن الصقر يسبق بمسافة طويلة صاحبه. وها هو يرتقي في الجو على خط صاعد يسهل عليه الانقضاض على فريسته المرتقبة ومن ثم يخر كالحجر الساقط على الضحية. وتغرز المخالب الحادة في ظهر الأرنب الصحراوي ويضربه

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الصقر بقوة بمنقاره المعقوف كالمحجن. ولكن الفريسة لا تزال تقاوم. وفي ذعر جنوني وعينين جاحظتين يحاول الأرنب بقفزات قوية في نطات التملّص من قبضة يد القاتل الذي لا يرحم ولكن الصقر يواصل الركضة المتقافرة وكأنه فارس على صهوة جواده الجامح يتناهض وينتفض ويفقد توازنه التحليقي إلا أنه يظل قابضاً على فريسته بيدين من حديد.

وأخيراً: تحل لحظة الذروة وينزل الصقر ضربته المميتة الجبارة على عنق الضحية الشقية. ويتوقف النزاع فجأة وكأنما قد حدث الاصطدام بجدار غير منظور وتهبط موجة العجاج ولكن جسد القتل لا يزال يرتعش مرتجفاً لبعض الوقت قبل أن يهدم مفارقاً رمقه الأخير ويستقر الصقر على ضحيته بشراسة جشعة. ويصل الفارس الصياد إلى موضع الفاجعة في الوقت اللازم المناسب وسرعان ما يضع الحجاب الجلدي على رأس الصقر ويخطف جسد الأرنب الذي لا يزال دافئاً بعد مفارقة الروح لتوها مخلصاً إياه من المخالب الناشبة فيه ويقطع بمديته الحادة فلذة من لحم الأرنب ليدسها في منقار الصقر الصياد على سبيل المكافأة. ويضع الفريسة سريعاً في الحقيبة الجانبية لئلا يترك الفرصة للطير الجارح ليمزقها ثم يمسد برقّة وحنان

ريش الصقر ليهدئ أعصابه ويبرد حماسته وحماوته ويخاطبه برقةً بالاسم الذي لقبه به مؤخراً ويلصق أذنه بالحجاب الجلدي الذي يغطي رأس الصقر متنصتاً ومنتظراً الجواب أو رد الفعل منه يرفع الصقار اليد عن صقره غير مرة وربما مراراً ليفرد جناحيه في الهواء ولكن هذه الهنيهة هي مدة الراحة للطير الصياد.

وليس ثمة ما يستغرب من كون البدو يتخذون من طيورهم هذه التي هي أهم وأحذق الصيادين موقفهم وكأنها من أفراد أسرته، فهم يعتنون بها في حذب ولطف ويعالجونها بما يعرفونه من وسائل وسبل ويحافظون عليها كأعز ما لديهم وأعلى مكسب ذي قيمة. وعلى أية حال؛ في ختام موسم الصيد يطلقونها إلى عالم الحرية والإرادة لكي يتسع لها الوقت لتكوين الأسرة ووضع البيض وتفقيس الأفراخ. ومع الأسف تختفي تدريجياً ممارسات كهذه؛ لأن أصحاب الصقور اليوم لا يريدون التخلي عن طيورهم هذه الغالية لحفظ النوع والأنسال. مع أنهم - والحق يقال - يحاولون ما أمكنهم ذلك توفير الظروف المواتمة لهذا الأمر ولكن بدون الحرية.

وعلى العموم فالصيد بواسطة الصقور قد تحول أثناء عقود

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

السنين الأخيرة من ضرورة شاقة لدى البدو إلى ما هو بمثابة صناعة للتسلية وحرفة إمتاع للأمرء والأثرياء.

والإنسان الصياد ليس نادراً ما يتدرب لا على سرج حصان بل في سيارة جيب قوية ومكشوفة ومجهزة خصيصاً لهذا الغرض. ولا تصاد الصقور حالياً في شبه الجزيرة العربية وحدها وإنما تجلب أيضاً من البلدان الخارجية عبر البحار. وهذه العملية شاقة وغالية الكلفة، ولهذا فإن الصقور عندما تصبح أخيراً في ملكية الارستقراطيين ترتفع أثمانها إلى أكثر من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف دولار عن الصقر الواحد. وتتمن بقيمة نفيسة خصوصاً الطيور المقتنصة في الرحاب الواسعة لسهول سيبيريا وقزاخستان الشهيرة بوجود الصقور البيض.

وقبل بضع عشرات من السنين كان يمكن أن تشاهد في أراضي الجزيرة العربية الطيور الضخمة التي لا تطير وهي النعام. وكانت تعيش في الجزء الشمالي من الجزيرة وترعى في مجاميع غير كبيرة كالإبل. ولكن الطلب على لحومها الطرية اللذيذة وريشها الناعم الشهير وبيوضها عالية الفيتامينية وشحمها الذي يستعمله السعوديون في دعك الجلد وتدليكه إنقاذاً من حرارة الشمس أو موجات البرد ورجفات الاستبراد؛

قد أفضى إلى جعل هذه الأنواع الرائعة من ممثلي عالم الحيوان تختفي وتزول. والآن لا يمكن مشاهدتها إلا في حديقة الحيوان بمدينة الرياض وهو ما سأحدث عنه بعد قليل.

وبما أن القسم الأكبر من أراضي المملكة العربية السعودية تشغله البوادي فإنه ليس من المستغرب أن عالم الحيوان فيها ليس ثرياً. وترعى في الرحاب غير المتناهية الشحيحة شتى أنواع الغزلان التي يتعرض عدد كبير منها مع الأسف إلى الذبح والقتل بشكل كارثي. وموضع الشهية هو اللحم اللذيذ والرقيق إلى درجة غير عادية لهذا الحيوان البديع الوديع. والعرب المقتدرون مالياً يصيدونه وهم على سيارات الجيب السريعة وكذلك المها بقرونها المستقيمة. وفي المناطق الجبلية تسرح القطط البرية والضباع وبنات آوى والوعول الجبلية. أما بخصوص الحيوانات الصغيرة مثل: أبي بريص والحرذون والعظاية والجرذان والأفعى والضب والقنفذ فإنها موجودة في جميع المواضع. وبوسع الثعالب والأرانب عبور الطريق دونما خشية أمام سيارتك، ولكن بالطبع لا على الجادات السريعة وإنما في الدروب الصحراوية البعيدة عن العمران. أما في جبال الجزء الجنوبي الغربي من البلاد فتسكن قطعان النسانيس وهي قرود شبيهة بالكلاب.

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

وذات مرة كنا مسافرين أنا وزوجي إيلمان أرسلني قاصدين مكة لأداء العمرة حين كانت تقف عند معبر جبلي حشود من هذه القروء. وفي البداية خيّل لنا من بعيد أن أناساً يقفون على الدرب وكان ذلك بادي الغرابة وبعث التعجب بالنسبة إلى جادة سريعة ومتعددة خطوط المرور. وبدأ زوجي يستخدم الكوابح ويضغط على المنبه في الوقت نفسه، إلا أن هذا لم يخلف أي انطباع لدى القروء الجالسة أمامنا، أما عند اقترابنا منها فقد أصبحنا في الحال محاطين بالقروء. ولحسن الحظ كانت نوافذ السيارة مغلقة. وسرعان ما قفزت بعض هذه الحيوانات إلى سطح السيارة ومخزن الحقائب وحتى على السقف. وتلك التي جلست على التخت تقوم بإشارات وإيماءات مفهومة تماماً وهي تضرب نفسها على بطنها وتدخل أصابعها في أفواهها الفاخرة وتمد راحاتها إلى الأمام مبيّنة أنها تحتاج إلى الطعام. وكان مفهوماً من جميع الدلائل أنها تعودت على تلقي العطايا من أصحاب السيارات المارة. ولكن مع الأسف كانت جميع احتياطاتنا الغذائية موجودة في صندوق الحقائب الخلفي، ولم يكن بوسعنا لأسباب مفهومة أن نخرجها منه في ذلك الحين. ولا أدري كم كنا سنبقى واقفين اضطراراً لو لم تأت من ورائنا سيارة

استلقت أنظار القردة. وقذف ركابها الأكثر خبرة واستعداداً إلى قارعة الطريق كيساً يحتوي على الفواكه وسرعان ما تحول جميع القروء ليتقاسموا القسمة والنصيب، وهكذا استطعنا مواصلة الطريق بسلام. وفي حالة الغضب أو عدم الرضى ليس من المستغرب لو عمدت القردة إلى قذف الحجارة، ولكننا قد حالفنا الحظ السعيد. وطوال ما بقي من الطريق ظللنا نتذكر الهيئات التي أظهرتها لنا قردة من هذه القروء وهي التي كانت جالسة فوق السيارة وكيف كانت تحك جسمها المترهل بشكل يميمت من الضحك.

وفي الرسوم النادرة على الصخور في القسم الجبلي من ساحل البلاد الغربي الذي يحمل اسم عسير، وهو الواقع على طريق القوافل التاريخي من اليمن إلى مكة؛ رأينا العديد من التعابير بالرسوم عن فرسان يمتطون سهوات الخيول، وآخرين يقتعدون أسنمة النياق والجمال والصيادين بالأقواس والسهام وبالرماح الطويلة والقصيرة، وكذلك الحيوانات الأليفة والوحشية حتى الأسود والنمور التي لا يمكن اليوم مع الأسف مشاهدتها سوى في حديقة الحيوان. وبين المجموعة غير الكبيرة من الحيوانات الأليفة في هذه الرسوم تقع الحصاة الكبرى من

نصيب الإبل.

وليس هذا بالمصادفة المحضة إذ خلال عهد ما قبل النفط كان هذا الحيوان النادر المثال بالإضافة إلى الأغنام والشاء والماعز المصدرَ الأساس لحياة سكان الجزيرة العربية. وبالطبع كانت لدى صيادي الأسماك وصيادي اللؤلؤ في المناطق الساحلية مصادر أخرى عدا الإبل، ولكنهم كانوا يمثلون جزءاً صغيراً من سكان البلاد الأصليين. وهكذا فإن الجمل كان بالدرجة الأولى دليل الكفاية في الحالة المادية والمالية. وكان ينبغي على البدوي أن تكون لديه العشرات من الجمال والنياق و ٥٠ رأساً من الغنم والماعز وكلب صيد من نوع السلوقي وفرس. وعندما ظهر السلاح الناري كانت البندقية سلاحه. وكان مهر العروس يضم فضلاً عن الملابس واللوازم البيتية أيضاً النقود التي كان يشتري بها عادة بعد ذلك الإبل والغنم، ومع مرور الزمن كانت تتكاثر ويمكن أن تصبح دعماً مادياً معتمداً للنسوة والزوجات السابقات في حالة الطلاق أو الترمُّل.

وكانت قائمة أغذية وأطعمة سكان الجزيرة العربية شحيحة جداً تنحصر في الألبان ومشتقاتها والتمور واللحم على ندره. وكان أكثرها انتشاراً بل وفي الوقت الحاضر أيضاً لحم

الضأن. وهو يختلف عن لحم الإبل أصلب وأدسم، بل وكانوا يذبحون الأغنام بكثرة وذلك لأن مدة الحمل لدى الشياه أقل بكثير منها لدى النياق (لدى الأخيرة ١٣-١٤ شهراً). وبالمناسبة فإن حليب الشاة أدسم بكثير من لبن الماعز ناهيك عن حليب الناقة، ولهذا فإن الجبن والزبدة واللبن المحمض كانت تصنع من حليب الشاة. ولغرض تزويد أفراد أسرة البدوي بالمادة الغذائية الأساسية وتأمين رضاعة الصغار كان من المألوف وضع أثداء المطفلات من الشياه في أكياس خاصة من الأقمشة أو الجلود.

والآن أيضاً ليس من النادر أن تشاهد في القرى والأرياف أكياس المخالي الأنيقة الذهبية الألوان بخيوط مذهبة تتأرجح وتتلامع بين سيقان الإناث الولود من المواشي. وفي وقت ما كانت حياة البدوي متوقفة تماماً على الحيوانات الأليفة ولهذا كانت الحاجات إليها غذائية، وعلى مدى السنة الكاملة تنقل الناس ومواشيهم على الدوام من موضع لموضع بحثاً عن الكلاً. وخلال الأمطار الشتوية - الربيعية كان من الأبسط والأسهل بكثير إيجاد الغذاء في الوديان الماطرة وقرب الغدران المؤقتة الضحلة بين الكثبان الرملية. بيد أنه خلال أشهر الصيف الجافة من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

شهر آيار (مايو) حتى أواسط تشرين الأول (أكتوبر) كانت العشيرة تنتقل نحو حدود الواحات وغابات النخيل الظليلة ونحو المصادر المعروفة للمياه والآبار وبالقرب من المستوطنات الريفية حيث كان أبناء القبيلة يستطيعون بيع الصوف والبسط والمنتوجات الجلدية والمصنوعات المحلية أو إجراء تبادل سلعهم بالمواد الغذائية.

وإذا كانت الإبل والمواشي تمثل ضرورات حياتية بالنسبة إلى البدوي - لأنها كانت تعطيه كل ما يلزمه لمواصلة العيش، ويستخدم الصوف في حياكة السجاجيد والبسط والملابس والخيم والخرج والحقائب وأشياء أخرى، ومن الجلود كانت تصنع السطول والأوعية والمهود للمواليد وتخاط الأحذية والبرد - فإن الخيول مثلت بالدرجة الأولى مصدر الفخر ورمز النجاح لدى مالكيها.

وثمة بضع روايات عن أصل النوع العربي الشهير الذي ظهر في شبه الجزيرة العربية قبل ٤ إلى ٥ آلاف عام وفيما بعد حوت إلى أليفة. وبعضهم يعتقد أن الخيول جاءت من وادي الرافدين بخيراته الغزيرة. ويرى آخرون أنها جاءت من مصر، أو ربما استحوذ عليها إبان الغزوات العديدة. غير أن سكان الصحراء

يتناقلون أساطيرهم مشافهة.

وكما ذكر سابقاً فإن هضبة نجد مكتنفة بالجبال العالية والصحاري الجرداء. وفي ظروف كهذه لم تكن لتستطيع أن تعيش سوى أكثر الحيوانات تحملاً وقدرة. وقد ساعد المناخ الجاف على إنتاج جياذ جيدة الصحة خفيفة الحركة. أما الحياة الصارمة والشحيحة فقد ساعدت على تشكيل هذه الصفات والإمكانات البدنية والمعنوية الرقيقة والتصرفات الأرسقراطية لهذا المخلوق الرشيق والصبور (وبودّي احتراماً وإعجاباً أأ أقول عنه: إنه حيوان).

والأفراس العربية محوطة بهالة رومانتيكية، وهو ما ساعد عليه كثيراً الأدب العربي الإسلامي حيث يوصف ما تتسم به من عقل ومودة وجمال وبهاء ورهافة حس. وليس عبثاً أو بالصدفة أن ولي العهد السعودي الأمير عبد الله المحب الولوع بالخيول والخبير الضليع بها يعير عناية كبرى لتطوير رياضة الخيول وازدهارها في البلاد.

وتعرف أساطير كثيرة عن البسالة وقدرة التحمل العجيبة والنفس القوي والقدرات الكبرى على السرعة في الجري لدى الحصان العربي. وسيقانه المعروفة مهياًة بشكل رائع للعدو على

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

دروب الرمال والحجارة الحادة في الساحات الحممية.
إلا أن الجواد في الوقت نفسه يتطلب الاهتمام الكبير والتعهد
الزائد. ويقول ساكنو الصحراء: إن تربية خمسة أطفال أسهل
من العناية بمهرة فتيية. والأطفال محتاجون إلى الاهتمام الخاص
على مدى عامين أما الفرس والجواد فعلى مدى العمر كله.
وعلى الرغم من الغياب التام تقريباً للعلف المعهود والمطلوب
حسب مفاهيمنا يهتم المالك الحريص على أن يكفل لجواده كل
ما هو ضروري ولازم وليس نادراً على حساب أسرته نفسها.
وحتى في أصعب وقت يضيف إلى طعام حصانه التمر
المجففة واللحم المقدد والجراد المجفف - الأكلة المفضلة لدى
ساكني الصحراء -. أما في حالة غياب الأطعمة اللازمة فيسقيه
حليب النوق. ويرى بعض العلماء أن مثل هذا الطعام الشحيح
قد ساعد على تكوين هذه الجياد غير الضخمة جداً والرقيقة
العظام، ولكن هذه النماذج الصمودة بوجه الحياة من أسرة
الجياد هي حتى الآن تصلح أساساً لا محيد عنه للاصطفاء
النوعي في العالم بأسره.

ومن سالف الزمان كان يبدو - شأن الاختصاصيين
العصريين بتكثير الجياد المجودة - دقيقين جداً ومتشددتين

في الحفاظ على الدم الأصيل والعريق للنوع العربي من الجياد الذي لا تشوبه حتى ولا قطرة واحدة من الدم الغريب. ولدى السكان المحليين ينتشر تقليد دعوة الشهود أثناء نزوات الأنسال حتى لا يطرأ مستقبلاً ظل من الشك بشأن أصل المهر القادم وفصله أي: حسبته ونسبه.

وهكذا نرى أن الجواد يتطلب من مالكة الاهتمام الدائم والحرص الخاص الأمر الذي لا يمكن قوله عن الجمل وهو الحيوان الذي لا يمكن بدونه تصور حياة الرحل.

والبعير يكاد يكون الأعم والأهم من جميع الحيوانات الأليفة القادرة على التكيف للحياة في الظروف الصارمة والعمل على نحو واحد في الحالات العرضية الطارئة. ويستعمل في الطعام لحمه وشحمه وحليبه، وتصنع من وبره أنسجة وأغطية وخيام وحبال وأفرشة، ومن جلده تحضر القرب والأحذية والحقائب والأحزمة وسواها من المصنوعات والمنتجات، وتستخدم عظامه في الحرق والأسمدة وبرازه (البعر) في الوقود. وعلاوة على ذلك؛ قبل ظهور السيارة كان الجمل عملياً واسطة النقل الوحيدة وكذلك قوة النقل والسحب في شبه الجزيرة.

وإبل الجزيرة العربية - خلافاً عن المعهودة لدينا في آسيا

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الوسطى - وحيدة السنام - بينما هي عندنا ذوات سنامين - وارتفاعها متران فأكثر ويبلغ وزن الواحد منها أحياناً ٥٠٠ كغم. وعيناه الذكيتان النافذتان نصف مغمضتين بسبب أشعة الشمس الساطعة بقوة والرمل النفاذ، ورموش الأعين وطفاء وكثيفة وعلى طبقتين لأجل الحماية. وله منخران ضيقان طويلان إلى حد ما وينغلقان بشدة في حالة الرياح الرملية القوية. والفكان قويان جداً قادران على كسر عظام اليد لرجل بالغ إذا أطبقا عليها. وجسمه رهيب إلى حد ما ويثير الرعب. وله ساقان دقيقتان ورشيقتان بقدمين غير كبيرتين. والأضلاع واسعة والصدر رحيب والسنام على الظهر يقابل من الأعلى تماماً البطن من أسفل. ورقبته طويلة ومقوسة وله أذنان صغيرتان نسبياً ونهايتهما حادة ومدببة على رأس مرتفع بفخر. وهذا كله يولد الانطباع بالعظمة والازدراء التام لكل ما هو حواليه.

ويمكن القول عن الجمل: إنه الأول في كل مؤشراتته الحياتية. ولو كان للحيوانات سجلها الخاص بالأرقام القياسية على غرار سجل غينيس المشهور لكان البعير على الأرجح قد تفوق على كل مخلوقات الأرض و«بصق» عليها كما يقال في التعبير المجازي من حيث القدرة على التكيف للظروف الطبيعية. وذلك لأن

جميع منظوماته العضوية الحيوية نادرة المثال.

أما سنام الجمل فهو بمثابة المستودع الذي يحفظ فيه كمية كبيرة - إلى حد ١٥٠ كغم - من الطعام والماء. فإذا ما تناول من الطعام ما هو فوق المقدار اللازم فإن الزيادة تتحول إلى شحم خاص يحتوي على الماء ويحفظ في هذا المستودع. أما عند حاجة الجسم فإنه يأخذ منه الطاقة والسائل المطلوبين. ولهذا بوسع الجمل الاستغناء عن الشرب مدة أسبوعين. أما عند توافر النباتات الحاوية على الماء فيمكنه الاستغناء عن الماء عدة أسابيع. إلا أن هذا لا يعني أنه يستغني عن ماء الشرب عندما يكون متوافراً. بل على العكس فهو لا يترك أية فرصة تسنح لكي يشرب. وفي العادة - خصوصاً حينما يكون الماء مستساغاً - يشرب الجمل ١٠ - ٢٠ من اللترات في الدقيقة الواحدة، أما في المجموع فهو يشرب ١٠٠-١٥٠ لتراً. وعندما تهطل الأمطار يفضل البدو سوق إبلهم ليلاً وتركها بقرب الغدران والوديان حيث بوسعها إطفاء غلة عطشها على مهل في البراد. وعموماً لدى هذه الحيوانات إحساس مرهف بشكل فريد في نوعه حيال الماء. إنها تحس بوجوده حتى وهو تحت طبقات من الرمل وعلى مبعده مسافات سحيقة. وقد حدثت حالات قادت فيها

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

هذه الحيوانات مالكيها الضالين البائسين إلى الآبار المدفونة والواحات. وتحكى قصص عديدة عن كيفية عثور الرحل في الأزمان السابقة على المنقذ من الهلاك المحتوم بسبب قدرة الجمال على حفظ الماء في أكياس معدتها.

وفي مثل هذه الحالة العارضة كان الإنسان يذبح الحيوان ويشرب ذلك الماء المشوب بالاخضرار وغير المستساغ عند الشرب لكي يبقى في الأقل على قيد الحياة.

وسنام البعير بمثابة علامة قياس لحالته البدنية والصحية. فإذا كان معلولاً أو جائعاً لمدة طويلة تظهر على السنام اليبوسة ويتغضن ويستلقي على الظهر مترهلاً أو يكاد يضمحل إلى حد الزوال. وعند الجمل المعافى والشبعان يكون هذا الجزء من جسده صلباً. بالمناسبة؛ فإن الرحل - وهو بمثابة السرج - مصنوع على هيئة تربيعة خشبية يوضع ويثبت على السنام. وقد قمت عدة مرات بنزهات على ظهر الجمل. وأقول الحق وبصراحة: إن ذلك كان على شيء من الفطاعة والذعر رغم أننا أركبنا على جمال هادئة تماماً وأليفة ومدربة جيداً في أمثال هذا. وأثناء سباقات الإبل يؤثر ركبوها الجلوس خلف السنام على وسادة عادية رغم أنه يبدو من الخلف غير ممكن

تقريباً أن يتسنى لهم السيطرة على الحيوان بواسطة الزمام للشد والإرخاء.

وفي شتاء سنة ١٩٩٩م وجهت الدعوة إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين لدى المملكة العربية السعودية لحضور الاحتفالات التي أجريت ضمن فعاليات الذكرى الاحتفالية بمرور مائة سنة على تأسيس المملكة تحت رعاية ولي العهد الأمير عبد الله. وقد وصلنا إلى منشأة رياضية معرضية ممتازة في الضواحي على بعد أربعين كيلومتراً عن مركز مدينة الرياض يطلق عليها الجنادرية كانت مزدانة بالرايات واللافتات وعلامات الترحيب وشعارات العيد. وكانت منصات الزوار خاصة بالمشاهدين والمتفرجين المحاطين بصفوف من الحراس الكثيرين. وهبت الريح الشمالية غير الرقيقة ولا الشفيقة إلا أن المزاج كان رائعاً وعالياً. وعقب مرور بضع دقائق طرأت على منصات الجالسين انتعاشة وغمغمة وظهر الأمير عبد الله بمعية حاشيته. وصدحت أصوات الأبواق ونزلت إلى الساحة طائرة صغيرة من طراز قديم. وتحت عاصفة التصفيق الشديدة والطويلة قامت بعدة جولات أمام المنصات في استعراض عام. وظهر أن هذه الطائرة من ماركة «داكوتا بومينغ» هي أحدث

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

جهاز طائر في زمانه. وقد أهداها إلى الملك عبدالعزيز في عام ١٩٥٠م الرئيس الأمريكي روزفلت. وشعشت الطائرة بالبريق تحت أشعة الشمس الساطعة وبدأت وكأنها جديدة تماماً إذ أنفق على ترميمها خمسة ملايين دولار بالتمام والكمال، كما ذكر في الألبومات اليوبيلية الجميلة المطبوعة بمناسبة هذه الذكرى.

والأمر أشبه ما يكون بأن السعوديين لم يبخلوا في الإنفاق حفاظاً على هذه التحفة التاريخية. وبعدئذ جرى استعراض غير كبير للعسكريين ثم سباق إبل، وقد بدأ على نحو غير ملحوظ. كانت منبسطة أمام المنصات رحاب صحراوية غير مخفية بأي شيء عن الأنظار وبدون أية علامات أو إشارات. وفي انتظار المسابقات الموعودة في البرنامج كان المتفرجون يتبادلون أطراف الأحاديث فيما بينهم. والنسوة ملتفات بعباءاتهن. واشتد عزف الريح الباردة. وعلى حين غرة ظهرت على بعد بضعة كيلومترات داخل عمود من الغبار بقعة داكنة متحركة. وتركزت جميع الأنظار عليها. وعقب مرور بعض الوقت صار مفهوماً أن مجموعة كبيرة من الجمال تزحف في طوق دائري عملاق.

وعندما اقتربت الكوكبة على المسافة المنظورة بدا لي وكأن بعض الدمى مربوطة إلى الجمال فكانت هذه الدمى تترجح

بشكل غير طبيعي وتتأرجح، وراحت السيوف المسلوطة المشرعة تتلاوح على وتيرة الحركة. ولكن عندما دنت الكتلة المتدافعة إلى مسافة تقارب الكيلومتر وظهرت أمام المنصات مباشرة اكتشفت باستغراب أنها كانت أطفالاً صغاراً شبه عراة ولا أعرف كيف استطاعوا الثبات على مثل هذا الوضع المتأرجح القلق وانطلقوا بمثل هذه السرعة الكبيرة وهم مرتدون قمصاناً خفيفة وحفاة الأقدام مقاومين الريح الباردة الهابة في وجوههم. ولكن عندما وصلوا بعد قطعهم زهاء العشرين كيلومتراً إلى خط النهاية كانت وجوههم تشع بالابتسامات والفخر. وراح صوت المعلق الرياضي يلعلع من المذيع طافحاً بالفرح والنشوة متموجاً فوق المنصات. وقام البالغون الذين رفعوا الفائز في السباق من فوق ظهر الجمل المبيض بسبب الملح المفروز مع العرق الذي غطى جسمه ووبره. وظهر صبي صغير لا تتجاوز قامته ارتفاع ركبة البعير ولا يتعدى عمره الرابعة فحسب. إنه لأمر غريب.

وجرت مراسيم تقديم الجوائز بروح احتفالية تتجلى فيها الفخامة. تقدم الفائز إلى مقصورة الأمير عبد الله وكانت ظاهرة على الجوكر الصغير أمارات الجدية والاعتداد بالنفس.

وردً بابتسامة مؤدبة على مصافحة الأمير عبد الله ولي العهد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الذي سلمه شهادة الفائز وصباً بمبلغ مليون ريال سعودي (زهاء ثلاثمائة ألف دولار أمريكي) ودفعه إليه وقبله في حنان. وكان الفائز بالجائزة الثانية صبيّاً في الثامنة من عمره. وعدا شهادة الفوز تلقى أيضاً صكاً نقدياً بمبلغ نصف مليون ريال سعودي - شارك في هذه المباريات ٢٥٠٠ من الإبل على أساس ٢٥٠ في كل مرة -.

ولكن لنعد كرة أخرى إلى إبلنا ولنحدث أيضاً عن إمكانات التكيف الرائعة لديها وعن طرائق معيشتها وتحملها في الظروف الصحراوية المتطرفة. يتنفس الجمل ويستنشق أبطاً من اللبائن الأخرى وحرارة جسمه أعلى ويعرق متأخراً عنها، ولكن عندما يحدث ذلك يغدو وبره بمثابة العازل الذي لا يتيح للجسم أن تزداد حرارته عن الحد المقبول. أما أثناء الجو البارد فإنه على العكس يحافظ على الحرارة البدنية. وخلال الشتاء يتنامى الوبر على السنام والغارب (الرقبة) والكتفين والهامة (الرأس) ويبلغ طوله أحياناً طول نهاية ذنبه (ذيله). ومع اقتراب فصل الصيف يتساقط الوبر. ويمكن الحصول من وبره على متموجات يمكن مقارنتها من حيث النعومة بالصوف.

وجسم الجمل ينتج القليل جداً من الماء، وتفرز كليته بولاً

عالي التركيز، وله رائحة ليست بالزنخة وذلك بسبب النباتات التي يتناولها عادة. وفي القديم وربما حالياً كذلك كان البدو يستعملونه في غسل الشعر. وربما لهذا السبب وبفضل استعمال الحناء السوداء (الخضاب) وتسمى أيضاً بالبصمة والحمراء (وهي العادية) يحق للحسناوات من البدويات الفخر بتجعدات شعرهن الكث والرائع واللماع على سواهن من المحليات والغريمات.

والإبل ليست شديدة التكليف من حيث نوعية الطعام. وهي تأكل وريقات أشجار الأكاسيا علماً بأنها تفعل ذلك بشكل منتظم وفي جرعات ليست بالكبيرة غير منتقلة من شجرة إلى أخرى قبل قضم أوراقها وتعريتها على نحو كامل إذا وجدته ولا تتقزز من أكل الشجيرات الصحراوية ذوات الطعم المالح. ولكن مهما كانت عليه النبتة من حسن المنظر فإن الجمل لن يتناولها طعاماً إن كان فيها شيء من المحاليل الكيماوية. وخلال الأوقات الصعبة من غياب العلف المطلوب تكتفي الإبل بكمية غير كبيرة من التمور والشعير والسمك المجفف وقشرة الشجر (الحناء) المعدة لها سلفاً على سبيل الاحتياطي.

وحليب الناقة غنيٌّ بالفيتامينات حتى ولو كان طعامها

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

شحيحاً. وهو أشبه ما يكون من حيث التكثف والطعم بالألبان المعسلة غير أن القبائل القاطنة بعيداً عن الآبار كانت تستخدمه في أوقات الجفاف لإطفاء غلة العطش. وطعم حليبها يتوقف على الطعام الذي تتناوله الإبل ولهذا فإنه يكون أحياناً أميل إلى الملوحة أو الحلاوة وفي بعض الأحيان حاداً. ويتخثر على جانب من الصعوبة على الرغم من حرارة الجو. ولا يمكن الحصول منه على الزبدة بسبب انخفاض نسبة دسامته، ولكن تصنع منه أحياناً أنواع يابسة خاصة من الجبن على هيئة كريات غير كبيرة من الممكن حفظها بشكل جيد لمدة طويلة من الزمن بدون ثلاجات، ويمكن تناولها طعاماً بعد بلّؤها بالماء.

وتعطي الناقة الواحدة من ٦ إلى ٧ لترات من الحليب في اليوم. ومن الطريف أنها لا تسمح بحليبها إلا بحضور راعيها وعند صعوبة ذلك ففي وجود دمية تمثله. ويجرى الحلب مرتين في اليوم وبالتأكيد بالأيدي النظيفة، التي بدونها كما يؤكد البدو الرحل فإن الناقة تفقد قدرتها على الدر.

ولحم الإبل شائع الاستعمال في المملكة العربية السعودية بالرغم من شدة قساوته. وكانوا في السابق لا يذبحونها إلا تكريماً للضيوف. أما الآن فالحالة تغيرت بالطبع وفي أي سوبرماركت

وفي المدينة والريف يمكنك شراء لحم الإبل. ولكنك لن تجد على الأغلب لحم الناقة في أي مكان كان. وليس هذا بالمستغرب إذ يحتفظ بها بالدرجة الأولى لمواصلة النسل. والناقة أم رفيقة وحنون وشديدة العناية بصغارها. وفي غضون أشهر عدة عقب ولادة فصيلها لا تسمح بالوصول إليه لا للحيوانات الأخرى ولا للناس. وفي هذه الحالات يمكن أن تبدي العنف وبروح عدوانية.

وإذا حلت مصيبة ولقي مصرعه فإن أمه تقف بلا حراك عند جثمانه وتبكي بدموع حقيقية. ولا تغادر مكانه إلا بصحبة الفصيل الذي نفق. وفصائلها الأخرى تقلد سلوك والدتها وتقتدي بها في هذا. وعندما يفطم رضيعها عن الثدي تشد على أنفه قطعة من الشجر تؤذي الناقة في حالة محاولته الرضاعة. وعندها ترفض إرضاعه وتمتنع عن ذلك فينتقل تدريجياً إلى تناول العلف من عشب المراعي. وبالطبع في حالة حدوث ذلك أثناء فصل الشتاء عندما تزهر البيداء فإن الفصيل سرعان ما ينمو ويقوى ويقف على سيقانه الدقاق.

نحن وإياكم اعتدنا عدّ الإبل حيوانات هادئة تماماً وطبيعة ولا تبدي مشاكستها إلا على ندرة تبصق على من يلحُّ إلى حد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الإملال على الدنو منها من رواد حديقة الحيوان. ولكن كما اتضح فإن الأمر ليس في الواقع على هذا النحو. أجل؛ إنها تتحمل الألم بصبر، تصبر على غياب الطعام والماء وعلى التنقل على مدى أيام عديدة وعلى ظهورها حمل يبلغ أو يتجاوز ثقله المائتي كيلوغرام عبر الصحراء الرمضاء. بيد أن الرجل كانوا دوماً يفضلون لأمثال هذه الأعمال استخدام النوق وذلك لأن الذكور من الإبل تكون أحياناً عسيرة وشديدة العدوانية. وينبغي أن يكون المرء حذراً ويقظاً على نحو خاص خلال الشجار حين يهاجم بعضها بعضاً، وأحياناً حتى تهجم على الإنسان. ويمكن أن تكون بالغة الخطورة الإصابة بعضاتها أو رفضها. ولهذا توضع الكمادات على أفواه من يبدو منها كثير الخطر. وحين يكون الجمل منفعلاً أو حانقاً ينفخ فمه كالكرة بسبب رخاوة لهاته، ويمكنه قذف السائل المخضر المقزز من معدته الأولى.

وبالطبع ليس هذا بالبصقة العادية بالمرة، ويمكن بلوغ كميتها الليتر. أما بخصوص الناقة فإنها أهدأ كثيراً وأكثر تحملاً.

والنوق تنوء تحت عبء الحمل الثقيل معانية حالة من الإعياء والإنهاك وعارضة تأثير عذابها في صورة أنين وبكاء بدموع حقيقية. وثمة خاصية أخرى غير مريحة تماماً من الطبيعة التي

تتميز بها الإبل الذكور وهي كونها انتقامية ثأرية جداً وحقودة. وترتبط بخلقها هذا غير قليل من القصص الحقيقية المروية التي قصتها عليّ صديقاتي السعوديات.

ذات مرة قرر راعي قطيع غير كبير من الإبل سقي جماله من غدير ضحاح تكون نتيجة مطر غير غزير. تقدم نحو أحد الجمال وكان من المتزعمين بين الآخرين، وأخذ يحثه على النهوض. ولكن الجمل عاند ولم يكن راغباً في التحرك. وحاول الرجل بالزعقات وحتى الضربات بالعصا حمله على الانصياع ولكن هيهات. ومن المعروف أنه إن لم يتقدم الزعيم فإن الجمال الأخرى أيضاً لن تتحرك من مكانها. وظل البدوي ساعة كاملة يعالج الجمل العنيد وأخيراً تركه وشأنه حين لاحظ في تعابير عينه من الشرر ما لا يبعث على الطمأنينة.

وحل المساء وتحركت الإبل بمحض إرادتها نحو الغدير وعادت مليئة المعدة بالماء منتفخة الجوانب قوية السنام. ولكن هذا الرجل العارف بطبيعة خلق الجمال كان في منتهى الحذر. في الليلة الدهماء فرش لنفسه البساط على منحدر قريب من الخيمة ووضع في مكانه المعتاد للمبيت كيساً طويلاً مملوءاً وغطاه بالبطانية. وظل بعيداً وهو ينتظر بصبر. كانت الليلة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

مقمرة وكان البدوي يرى بشكل جيد قطيعه الفارق في النوم. مر بعض الوقت وساد الهدوء المطبق التام. وكاد يقرر أن احتراسه الزائد لم يكن في محله، وفجأة طرق سمعه صوت تكسر غصين. وذلك البعير نفسه مدد ساقيه الأماميتين ثم استقام ناهضاً. وحبس البدوي أنفاسه. تحرك البعير ببطء نحو جهة الخيمة. وعندما بلغها توقف وكأنما يتأمل ثم اندفع إلى الداخل. ألقى بكل ثقله على فراش راعيه وراح كأنما يفرش ما عليه فرشاً بمرافقه وصدرة. وينبغي القول: إنه في هذه المواضع تتكون لدى الجمل على مدى الحياة مسامير قوية صلبة كالحجر الصلد في الركب والكلكل (البطن). وشاهد البدوي هذا المنظر وكله وجل لإدراكه أنه لولا فطانتته وحصافته وسعة حيلته لما بقي سالمًا من هذا الانتقام الفظيع. ونهض على قدميه منفعلًا وخطف عصاه وبقفزتين أصبح من الخيمة على قاب قوسين أو أدنى. وإذ سمع البعير الضجة نهض على أرجله وواجه خصمه. وبعد عدة لحظات انهار مفارقاً الروح. ويظهر أن قلبه لم يتحمل هذه الخيبة العميقة.

وإليكم قصة أخرى وقعت في موضع جبلي بالطائف. ذات مرة أصبح أحد الرحل شاهداً بالصدفة حين وقعت عيناه على بعير وناقة يتزاوجان وحملهما ذلك على الكف عن هذا الفعل.

وينبغي ذكر أن هذه الحيوانات خلافاً لمعظم الحيوانات الأخرى شديدة الحياء والخفر. وذلك الرجل العارف بهذه الخليقة توارى بسرعة وحاول في ذلك اليوم والأيام التالية عدم الاقتراب من ذلك البعير. وفيما بعد باعه تحسباً من حدوث ما لا تحمد عقباه .

ومرت عشرة أعوام. وذات مرة من المرات قاد ذلك الرجل نفسه إلى إحدى الأسواق. وبغته رأى في صفه بعيره القديم إياه. وعرفه من سمته المكوية كعلامة على الملكية والعائدية. ولكن أعجب ما في الأمر هو أن البعير أيضاً عرف مالكة السابق. وأدرك الرجل في اللحظة والتو ذلك من نظرة بعيره الحانقة وهرب بسرعة راكضاً على طول الصفوف قافزاً عبر الأكياس والسلال الحاوية على السلع وهو يدوس على الشياه الغافية وحملاتها المتكومة. واندفع البعير وراءه على الأثر معقباً وسرعان ما لحق به وبلغه. وبسهولة ألقاه أرضاً وداس عليه. وعندما وصل رجال الشرطة إلى موضع الحادث بسلاحهم كان الرجل قد فارق الحياة وأصبح في عداد الأموات.

وبالطبع فإن أمثال هذه الحوادث نادرة الوقوع. ولهذا ليس عبثاً أنها تظل في ذاكرة الناس وأحاديثهم مدة طويلة وتظل

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تنتقل من فم إلى فم كالروايات المأثورة والأمثال المذكورة. ولكنها تحتوي على الدرس والعبرة وتعلم أن «سفينة الصحراء» أي: الجمل على الرغم من كونه قد غدا أليفاً ومروضاً من زمن بعيد ولكنه على أية حال يتطلب أن يتخذ إزاءه موقف الحذر والاحتراس وكامل التلطف والتوقير. ولما كان الجمل للرحل على مر القرون المصدر الوحيد للرخاء بل وربما كان بالطبع يمثل الجزء الأساس من حياتهم كلها فإنه ليس من المستغرب توافر عدد كبير إلى حد لا يكاد يصدق من الأسماء والصفات لهذا الحيوان (يذكر علماء اللغة العربية الرقم ٥٧٤٤ بوصفه عدداً لهذه التسميات). والاسم الشائع هو «الجمل» أما الأسماء الأخرى فهي مرتبطة بالمراحل والحالات والخواص المعينة لهذا الحيوان. وثمة تسميات لكل سنة من عمره ولكل واحد من جنسه ومراحل عمره الأولى ثم العقيم منها والمستخدم في النقل والركوب والسليم والمريض وعيوبه الجسدية وعاداته الملازمة وتبعاً للون جلده ووبره والعدد العديد سوى ذلك. ولقب «سفينة الصحراء» أيضاً ذو دلالة على صاحبه. ومعظم إبل المملكة العربية السعودية سعودية ذوات لون أصفر فاتح وبعضها بني غامق وبيضاء وداكنة. وفي نجد توجد الأنواع الأفضل والأكثر تحملاً هي تقليدياً القاتمة والداكنة إلى

حد السواد، غير أن الإبل ذوات اللون الأبيض تعد بدرجة كبيرة جزءاً من الفولكلور (الفن الشعبي والأدب الشعبي) في الجزيرة العربية. والبدويات يفضلن دوماً الملابس المنسوجة من غزول وبر الإبل الأبيض. أما الصبايا فهن يحلمن دائماً بالسفر داخل الهودج الموضوع على سنام جمل أبيض.

وكثيراً ما كانت الإبل في الزمن القديم فريسة للعدو الغازي نظراً لكونها القيمة الرئيسة لدى القبائل. وبما أن الحروب القبلية دارت رحاها بكثرة كاثرة فإن هذه الحيوانات قد انتقلت غير مرة من يد إلى يد. وبعبارة أخرى: كانت تعود عاجلاً أو آجلاً إلى مالكيها الأوائل. والرجل الذي فقد في المعركة صديقه الذي لا يقدر بثمن وهو جملة الذي كان على مدى العديد من الأعوام ليس مجرد المطعم بل العضو الكامل من أفراد الأسرة لم يكن يستطيع بأية حال من الأحوال أن يسلم بهذه الخسارة وهذا فقدان. وفي أمثال هذه الحالات كانوا يستأجرون العين أي: الجاسوس الذي مهمته بعد الوصف الدقيق من صاحب الجمل المفقود البحث عن أثر ذلك الجمل في بلاد العدو وإفادة صاحبه الأول بمكان وجوده وصاحبه الجديد وبذلك يحصل على المكافأة الموعودة. ومن ثم كانت تجري العملية لاسترداد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الجمال وإطلاق سراحه من ربيعة الأسر.

وكان هدف الغزوات للرحل ليس خطف الأشخاص والحيوانات فحسب وإنما أيضاً إيماناً بإمكان تأكيد الذات وعرض القدرة والبسالة. وليس نادراً في المعارك استخدام تكتيك خاص. الإبل الأكثر قدرة في معارك القتال وهي السوداء، مقبلة على المعركة، ترتبت في صف موحد كالبناء المرصوص كان يسير خلفه الفرسان حاملي الرماح. ويتحدثون بأن هذا الجدار الأسود الذي يشكل عقبة كأداء كالعمارة البحرية كان يخلف ذلك الانطباع المرعب في قلوب الأعداء ونفوسهم، بحيث إنهم كانوا يولون الأدبار ويلوذون بأذيال الفرار. وعلى وجه العموم؛ فإنه عن بسالة هذه الحيوانات ومهاراتها وإخلاصها تُروى إلى الآن شتى الأساطير الطريفة والممتعة.

وبعد انتهاء المعركة كانوا يجلبون الماء في القرب ليشرب الناس والحيوانات وتغسل جراحهم بوصفه علاجاً. وكان البدو يعرفون غير القليل من الوسائل والسبل الفعالة لهذا الأمر. وتعد أبسط طريقة قديمة وضع مادة ساخنة على الجرح أو الموضع المتألم وأكثر ما يكون ذلك حجراً وهذه هي إحدى طرائق الكي الذي هو آخر الدواء، مثل العملية الجراحية في الطب الحديث وهذا مهما كان فيه من مفارقة كان ينفع على الرغم من بقاء الأثر.

وقبل بضعة عقود من السنين كانت القوافل الطويلة تجوب
 رمال الجزيرة العربية المتموجة كبحر بلا ساحل. كانت تسير
 في دروب سالكة على آثار من سبقها ابتداء من الأجداد القدامى
 قبل ٣,٥٠٠ إلى ٤,٠٠٠ سنة. وعندئذ بدأ درب الحرير الشهير
 من الصين وطريق الروائح من مملكة القيصرة بلقيس (سبأ)
 وهي اليمن حالياً إلى بلاد الشام ووادي الرافدين والبحر
 الأبيض المتوسط. وكان التجار بعد قطعهم مسافات شاسعة
 لا حياة فيها من حيوان أو نبات يوصلون السلع والمأكولات والماء
 العادي للبيع أو التبادل التجاري ولكنه الغالي والعزيز بهذه
 الدرجة في هذا الجزء من المعمورة. والأسر البدوية كذلك
 كانت تنتقل دوماً بحثاً عن المراعي. وكانت قوافل الحجاج
 من سائر أنحاء الأرض تتقاطع عابرة بوادي الجزيرة العربية
 وتصل إلى مكة والمدينة المقدستين. والمئات وأحياناً الألوف
 من الجمال المحلية تسير بسرعة إلى ٥ كيلومترات في الساعة
 الواحدة في سلسلة موحدة متحركة بصورة رتيبة وسط الرمال
 المتقلة أو الحقول الحممية السود مع وقفات قصيرة ونقلات
 طويلة في أشد أوقات النهار حراً وقيظاً، وأحياناً في آناء الليل
 على مدى أسابيع وأشهر.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وعلى أنغام الحداء التي إما أن تعد الجمال بقرب الوصول إلى الماء والعشب في المرعى وإما تطلب بالمقابل منها الحفاظ على قواها وعدم الضلال عن الدرب. وعلى وقع هذه الألحان سريعة أو بطيئة يكون سير القافلة.

والنساء - مع الأطفال والمجوهرات والأمتعة غالية الأثمان - جالسات داخل هودج خاصة محمولة على الإبل وقد أسدلت عليها الستائر القاتمة التي تحمي من أشعة الشمس وزوبعة الرمال ونظرات عيون الأعراب. وهذه الهودج لها أسماؤها تبعاً للغرض منها، وبعضها كان يمثل منتوجات من أعمال الفن. وهي مصنوعة من قماش خاص وبعضها مشدود بجلود الغزلان ومزين بالنقوش والرسوم والبسط المرقشة والمبرقشة والشعارات والرموز والأشرطة والفتائل المصفورة. وهذا البيت المصغر غير المستقر مثل الخيمة البدوية كان المسكن لهن إذ إنهن يمضين فيه قسماً غير قليل من أيامهن.

وليس نادراً ما يوصف الجمل بأنه «سفينة الصحراء». وهذا اللقب الشائع ينسجم في واقع الأمر مع طبائع هذا الحيوان الولوع بالعمل. ومن ركب على ظهره يمكنه التأكيد على أن الجلوس على السنام أو بحدائه يجعلك تشعر وكأنك راكب متن سفينة خفيفة.

وهذه الحركات القلقة المتذبذبة تجعل المستجد يتعذب كما لو كان يعاني دوار البحر بيد أن الشخص يعتاد ذلك تدريجياً ويصير مثل البحار الخبير لا يشعر ولا يحس بأية أمارات للمعاناة. ناهيك عن الرحل الذين يشعرون وهم يركبون الجمال أنهم أكثر اعتياداً من شعورهم وهم جالسون أو سائرون على الأرض نفسها. في حين أن خف الجمل المحاط بالجلد السميك مكيف ومهياً على نحورائع أيضاً لتربة الأرض الرملية والحصى والحجرية وحتى الصخرية. والانتشاءات الجلدية المتصلبة (المسامير) في الركب والصدر والبطن (الكلكل) حيث يلتقي الجسم مع الأرض تحمي هذا الحيوان من الجراح والرضوض المؤلمة.

ها هي القافلة تسير على حافة الأرض الصحراوية ممتدة على شكل سلسلة طويلة تحت أشعة الشمس غير الشفيقة وغير الرفيقة وعلى الرنين الرتيب من الجلاجل الأجراسية المعلقة على الأعناق الطوال لهذه الحيوانات المعذبة التي تنوء تحت عبء الأحمال الثقيلة فوق طاقتها. ولقد قطعت إلى الآن أياماً عديدة من الدرب وفي الأمام أساييع. والراكبون الذين تغطي وجوههم طبقة من الرمال وكأنهم ليسوا بأحياء وقد امتزجوا بحيواناتهم ويبدون وكأنهم أصبحوا جزءاً من الأحمال لا بشراً

المملكة العربية السعودية

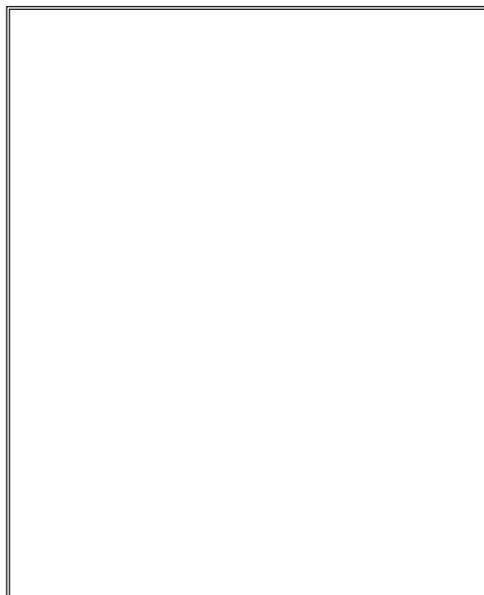
بعيون زوجة دبلوماسي

يعيشون ويشعرون. وبعض الجمال على العكس تصدر الأنثاء الخفيفة وتنقش جلودها وترتعش وتبكي من جراء التعب والإرهاق والإنهاك. وعلى حين غرة ترفع الريح إلى الهواء عند الأفق البعيد سحابة لا تكاد تلحظ من الغبار. وعقب مرور دقيقة واحدة تلتف حول كل شيء في الحوالي زوبعة رملية عاصفة.

وتنزع الريح النفاذة طبقة الرمل الخفيفة من أعالي الكثبان وتدفعها بقوة صوب القوافل السائرة. ويستدير الجمل الأمامي القائد بظهره في استدارة حادة نحو التيار القوي الثقاب ويثني ساقيه تحت بطنه ويهبط إلى الأرض باركاً. ويغلق رموشه الوطفاء ذات الصفين ويغمض جفونه الضيقة كالصدف على اللؤلؤ. وتقندي به الجمال الأخرى... وها هي الراحة المنتظرة طويلاً! ينتعش الأشخاص ويقفزون إلى الأرض مترجلين ويلتفون متلفعين بالعباءات الرجالية ويصطفون ملتصقين بالجمال فهنا الأمان التام كما أن الشعور بالعطش لا يؤلم كثيراً ويمكن الانتظار ساعات بطولها.

والبدوي سعيد إذ يجد ملجأ كهذا محمياً وهو يعرف أن هذا الدفاع عنه هو أكبر هدية يرسلها الله العلي القدير إليه ولهذا ينبغي تقويمها حق قيمتها والحرص عليها كل الحرص.

سوق الذهب وجولة في الصحراء



يعرف الجميع حق المعرفة أن المملكة العربية السعودية بلاد ثرية بشكل أسطوري وتحفظ بجدارة بالمرتبة الأولى في العالم من حيث استخراج النفط. وبعبارة أخرى يمكن وصفها بأنها تملك أكبر احتياطي للذهب الأسود في العالم. ولكن ليس هذا وحده. توجد في أراضي المملكة احتياطات كبيرة ويجري احتواء وإعداد مكامن النحاس والزنك والرصاص والنيكل والخامات الحديدية واليورانيوم والملح والغاز الطبيعي والمطمورات النافعة الأخرى. أما بخصوص الكوامن المشار إليها آنفاً فإني أتترك وصفها للاختصاصيين . ولكن بوذيّ التحدث بمزيد من التفصيل عن الذهب والفضة اللذين لهما احتياطات كبيرة بما فيه الكفاية. وبالأحرى عن المنتجات التي تصنع منهما بأيدي أمهر الصاغة الذين يشتهر بهم الشرق ويفخر. لا أحب ذكر الأمور الساذجة ولكن على أية حال سأطرح فكرة معروفة هي أن المصوغات والحلي في جميع الأزمان محطّ اهتمام معظم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

النساء وبخاصة الشرقيات. ولهذا اشتهرت البلدان العربية دوماً بأسواقها ومجالها التي تبيع المصوغات الذهبية. وسوق الذهب تُدهش بل وتُدْهَلُ القادمين. إنها عبارة عن صفوف طويلة من الحوانيت ومخازن البيع الصغيرة المضاء والواجهات الزجاجية التي تمتلئ رفوف عرضها وهي غاصة حرفياً بشتى المصوغات المتنوعة. وفي العادة تقع الأسواق في القسم القديم من المدينة وتشغل مساحة تصل تبعاً للإمكانات المتوافرة إلى حد بضعة كيلومترات مربعة. وأثناء أعوام عديدة رأيت غير قليل من أمثال هذه المحال، وغير مرة زرت إحدى أقدم الأسواق في الشرق الأوسط وهي سوق الحميدية بدمشق الواقعة على مسافة ستين سنتماً أخفض من مستوى شوارع المدينة التي احتفظت بروح القرون السالفة. وهناك غير بعيد سوق صغيرة للفضة مشيدة على هيئة قصر مرمرى في طابق واحد بناפורات جميلة تتوسط الباحة المركزية حيث يمكن اقتناء لا المصوغات والحلي وحدها بل أدق المصوغات الصدفية البلورية والتحف القديمة. وانطبعت في الذاكرة كذلك السوق الذهبية البغدادية الشهيرة. وبالطبع السوق المخفية وراء الأسوار القديمة في عاصمة اليمن صنعاء حيث كانت الأقمشة والأنسجة تباع بالوزن

واللؤلؤ يقاس سعراً بأنواع المسك ويجري التعامل بالعملات الفضية ثقيلة الوزن ومنها ريات الإمبراطورة تيريزا النمساوية. أما في الساحة والميادين في أيام الجمعة فقد كانت تقطع رؤوس المجرمين والمحكوم عليهم بالإعدام ضرباً بالسيف. أما إذا تجرأت بالمرور عبر الأزقة والممرات الغاصة بجميع أنواع السلع في هذه المتاهة العجيبة والتعمق في قلب السوق القديمة فإنه سوف تتفسح أمام ناظريك صفوف طويلة من حوانيت بيع الذهب حيث يمكن شراء قلادات رائعة من المعادن الكريمة (الذهب والفضة والبلاتين... إلخ) وأيضاً المصنوعات المقلدة والمغشوشة.

ومهما كان من أمر فإن سوق الذهب هي اللازمة الأكيدة في أية مدينة شرقية تعد في تاريخها عدداً من القرون أو العديد من الأعوام. وفي الرياض أمثال هذه الأسواق عدة ولكن الأساسية منها اثنتان واقعتان قرب ذلك الحصن نفسه المسمى بالمصمك الذي استولى عليه الملك عبدالعزيز سنة ١٩٠٢م. واستدلالاً بالبنائيات القديمة الباقية حتى الآن فإنني على ثقة ويقين بأنه في ذلك الزمن البعيد والسحيق وحتى أقدم من ذلك بكثير أيضاً جرت المتاجرة النشيطة بالحلي والمصوغات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة والسلاح الأبيض (السيوف والخناجر) والسجاجيد وسواها من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المصنوعات اليدوية النفيسة. وقد عثرنا في أعماق هذه المتاهة على محل صغير تباع فيه السجاجيد الأذربيجانية القديمة. غير أننا لم نستطع الحصول على الجواب الشافي المعقول عن السؤال عن كيفية وصولها إلى هنا. وبجوار السوق القديمة يقوم مجمع قصري ضخم لاستراحة السكان يضم بنايات مفصولة بعضها عن بعض بساحات فسيحة مكسوة أرضيتها ببلاطات رخامية ومزروعة على قطرها بالنخلات الملكية. وهنا بوسع الأطفال اللعب والجري والتزلج على الأحذية ذوات العجلات والدراجات الهوائية في الوقت الذي يستريح فيه الوالدان - وفي الأغلب الآباء - على المصاطب الخالية المثبتة على الأرض.

وندخل إلى إحدى بنايات المركز التجاري ونتجاوز العديد من محال المبيعات بما فيها من شتى البضائع والسلع حيث يرحب بالمشتريين كأحب الضيوف لا بسبب روح الضيافة الشرقية التقليدية فحسب وإنما أيضا لكونهم كما بدا لي أقل عدداً من مخازن البيع نفسها. ثم نرتقي بالمصعد الكهربائي إلى الطابق الثاني وهنا ينفسح أمامك منظر خيالي أسطوري تماماً. في اللحظة الأولى لا تستطيع أن تفهم أين أنت ويعيشي عينيك البريق الذهبي للعديد من المصوغات والقلائد التي تغطي الجدران

من الأعلى إلى الأسفل. وكل مخزن بيع كأنه بحق خشبة مسرح تعرض ديكوراتها الرائعة. أما بدل الجدران الأمامية المرفوعة فتتدلى من السقف نفسه بارتفاع متر ونصف المتر ستائر ذهبية مصنوعة من السلاسل الذهبية العديدة مع الكريات والليرات بحيث إن المشتري لكي يلج إلى الداخل يتعين عليه إما أن يحني رأسه وإما أن يزيح الستار بيديه عن وجهه.

ولعلي ربما لم أشاهد في أي بلد من البلدان مثل هذا الأمر. والإحساس الأول يقلب الفكر. ولكن تدريجياً تنشأ بعض الأسئلة ومنها مثلاً: كيف يغلق أصحاب المخازن محالهم في الليل حفاظاً على الثروة التي فيها؟ وهو سرعان ما وجدت جوابه عندما شاهدت في الجدارين الجانبيين شبكتين حديديتين مخفيتين قابلتين للتحريك. أما بخصوص السؤال التالي وهو: من أين يمكن إيجاد ذلك العدد من النسوة في هذه البلاد لكي يرتدين كل هذه الكمية من المصوغات؟ فإني أتركه مفتوحاً دونما جواب.

ويمكن هنا العثور على الحلبي والزينات حسب كل ذوق. وأغلبيتها مصنوعة من الذهب السعودي وهو عالي القيراطية (٢٢ قيراطاً) من المعدن الكريم ذي اللون الأصفر القاتم. وتحظى بالرواج الواسع ما تسمى بالكفيات وهي مصوغات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تشبه القفازات المخرمة غير الكاملة - عبارة عن سوار مربوط بمختلف السلاسل المنتهية بخواتم على هيئة حلقات ثلاث أو خمس تلبس في الأصابع - . وتدهش التصور الأحزمة الذهبية الضخمة لتزيين خصور الحسنات المحليات اللاتي لسنَ في أغلب الحالات شبّهات بقدود أغصان البان - وبالمناسبة فإن النسوة السعوديات شأنهن شأن ممثلي الجنس الآخر، يتميزن في العادة بالوزن الكبير - . أما في حالة إدارة الحديث عن المصنوعات الصياغية الأخرى فإنها من الكثرة بحيث إن الأعين تزيغ عند رؤيتها وتظل تتنقل مذهولة. وفي أعماق السوق القديمة يمكن العثور على الحلّي القديمة المحفوظة بشكل جيد والمصنوعة من الفضة مع الفيروز (الشذر) والعقيق اليماني واللؤلؤ وسواها من المجوهرات والأحجار الكريمة. وفي الواجحات الزجاجية المضاءة بالنور القوي تلمع ببريق أقوى من بريق الماس ما تسمى بـ(أحجار البرلنتي السعودية) وهي نوع من أحجار الكوارتز التي يستطيع العثور على قطع منثورة منها أي راغب بشرط أن يعرف موضع وجودها ويجد لديه متسعاً من الوقت ومزيداً من الصبر للبحث عنها بجِدٍّ ومثابرة.

وهكذا بعد سماعي طيلة الأعوام الستة التي أمضيتها في

المملكة عن هذه الأحجار السعودية البرلنتية أذهب على أية حال إلى الاستنتاج بأنه يجب القيام برحلة إلى الصحراء في سبيل البحث عنها، وخصوصاً عقب انتشار الشائعات بأن الدولة تزعم ابتداء من العام القادم أن تأخذ في يديها زمام المراقبة والإشراف على أمثال هذه البحوث. وأرجو من السكرتيرة الاستيضاح بشأن من يزاول نقل السياح للبحث عن الأحجار الكريمة وفي الوقت نفسه أتلقى موافقة الإعجاب من فرقتي.

وفي صباح باكر من أيام شهر آيار (مارس) تصل مجموعة تضم عشرين سيدة يعتمرن قبعات عريضة الحواف برفقة رجلين محبين للاستطلاع هما السفير النمساوي والملحق العسكري البريطاني في السيارات الخصوصية إلى «فندق صحارى» ومن هناك يجب أن تبدأ الرحلة.

وهنا كان في انتظارنا باص مريح - فيه جهاز تكييف الهواء وبيت الراحة -. وتلقى التعليمات الخاصة من الدليل وهو فتى أسمر السحنة ونبداً التحرك. طريق سيارات رائع بحركة مرور وحيدة الاتجاه تقطع كما السهم الصحراء المخضرة إذ هطل بالأمس مطر من سحابة عارضة وأجابت الأرض بالشكر والحمد وعلى الفور ازدادت الأرض وتغيرت هيئتها إلى بساط أخضر بالأزهار.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وعلى كلا الجانبين من الطريق نلاحظ مجاميع غير كبيرة من الإبل السود وبينهن على قلة نياق وجمال باللون الأبيض. وفي وسط الإبل البالغة تتلاعب الفصائل التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع بطون والديها عن سطح الأرض. وهذه الإبل تأكل بتكاسل النباتات اليابسة وقبل عامين من هذه الأحداث التي أصفها قدم ابنان راشدان لسفير أحد البلدان الأوروبية خلال العطلة الدراسية في ضيافة والديهما. وسافرا معاً إلى الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية لمزاولة هواية صيد الأسماك وفي طريق العودة وقع لهما حادث فاجع. رأى الذي كان جالساً وراء مقود السيارة المجموعة غير الكبيرة من الإبل على الطريق، ولم تكن ثمة أية علامة تنذر بالخطر الداهم ولذلك لم يخفف من سرعة السيارة وبغته قفز أحد الجمال إلى الطريق وحاول سائق السيارة المناورة ولكن لم يستطع التحكم في القيادة، ومن ثم لقي أحد الشابين مصرعه، أما الثاني فقد نقل إلى المستشفى وهو في حالة خطيرة.

تعرف السلطات المخولة بمراقبة طرق المرور وحراستها الطبائع الخاصة لـ(سفيننة الصحراء). ولهذا نصبت على كلا جانبي الطرق بين المدن والجادات الخارجية عوارض خاصة وبعد كل فاصلة أو مرحلة من الطريق حفرت تحتها ممرات

تحت الأرض للإبل والمواشي كبيرة القرون. أما الطرق الأقل اتساعاً فهي مملوءة بالعلامات التحذيرية التي رسمت عليها الجمال. ولكن مع مزيد الأسفل لم تكن لسبب ما حواجز وعوارض ولافتات في ذلك الموضع الذي وقعت فيه الفاجعة.

إذن فنحن سائرون عبر طريق على النطاق المحلي. الصحراء هنا ليست وحيدة النوع كما هي العادة وكما يفكر الكثيرون ويظنون. وهي تارة ترتفع في تلال غير عالية متكونة من أنواع الرمال المترسبة المتماسكة وتارة أخرى تتحول إلى حقول حممية سوداء منبسطة وممتدة إلى ما وراء الأفق أو إلى سهل رملي غير متغير مكسو بشجيرات شوكية قصيرة. وعلى ندرة يمكن رؤية مجموعة غير كبيرة من الأشجار، عادة قرب الوديان - وهي المجرى الجاف للسيول الناجمة عن هطول الأمطار - وبجانبيها خيمة سوداء أو مخططة للبدو ومعهم بالتأكيد سيارة شحن من ماركة نيسان أو تويوتا ينقلون عادة في ملحقتها رؤوس أغنام ومعز أو أطفالهم.

يسود في حافلتنا المزاج الرائق، بعض الراكبات يحاولن الغناء ولكن ما من أغنية مشتركة تجمع بينهن سوى أغنية إنجليزية واحدة مطلعها «أرجوك الصحة والعافية» إذ إن الفرقة تضم نسوة من قوميات متعددة جداً. وبنقسم إلى مجاميع حسب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الاهتمامات والميول. والصحراء خلف زجاج النوافذ تبدأ بالاضطراب منتقلة إلى بحر متلاطم الأمواج من الرمال، والكتبان كأنها مركبة بمهارة من الطبقات الرقيقة مثل صحن من هريس البطاطس يقدم في مطعم فاخر. ولها لون خاص هو الزعفراني - البرتقالي المشرب بالحمرة. ولماذا يبدو عليها هذا اللون خاصة؟ أحاول بشكل متعب استذكار المعلومات الجغرافية التي تعلمتها في عهد الشباب، ولكن عبثاً وبدون جدوى. والدليل الذي يعرف أو ينبغي أن يعرف كل شيء يجهل ذلك بدوره، ولكن المنظر بديع جداً. قرص الشمس لم يرتفع بعد كثيراً نحو كبد السماء والتعارض اللوني ما بين جوانب الكتبان المتعرضة لأشعة الشمس وظل المنخفضات كبير الفروق يقرب من اللون الرمادي الغامق. وحسب رأي المولد شديد السمرة حتى منتصف النهار وساعة الظهر ستصل إلى هنا عشرون سيارة من نوع جيب يقودها شبان لكي يستمروا في غضون اليوم متنافسين بعضهم بعض في مباريات بالعجلات الوحشية لسياراتهم فيقلبون هذا الجمال إلى ضجيج وعجيج، وبجلبة دوي محركاتها سيوقظون الصحراء من نومها ويزعجون منامها الهادئ الطبيعي الأصيل. وأخيراً نصل إلى المطلوب. ثمة مطعم من مطاعم الطرق

والعاملون فيه ينتظروننا بناء على نداء مسبق. فرشت البسط والسجاجيد ونصبت الموائد ووجبة الإفطار جاهزة. ولكن ليست لدى أية واحدة منا الشهية اللازمة لتناول الطعام بل نحن متحفزات ممتلئات بشعور لهفة الصياد.

وتدريجياً تتوزع جميع الرفيقات على البيداء المنبسطة وكأنها صينية (قصة) هائلة الحجم نثرت عليها الحصى من مختلف الأحجام. وبينهن تتوارى تلك الأحجار نفسها المسماة بقطع البرلنتي السعودية التي عرض علينا بعض نماذجها دليلنا عندما كنا لانزال في الحافلة. بادئ ذي بدء أخذنا نجتمع كل ما نعثر عليه منها مما يشبهها كثيراً أو قليلاً، ولكن بالتدرج نبدأ بالتمييز، وسرعان ما أخذت تسمع إما هنا أو هناك هتافات الإعجاب والرضى. والأحجار الصغيرة المعثور عليها قليلاً ما تختلف عن الأخريات، فهي مثلها غير شفافة ويعلوها الغبار. ولكن حين تمرر خلال الأشعة المائلة للشمس الصباحية فإن الفرق سرعان ما يظهر للعيان. وكلما كان النموذج أكثر شفافية وإشعاعاً كان معنى ذلك أنه أكبر قيمة وأعلى. والأحجام غير كبيرة، فالقطر يتراوح من نصف سنتمتر إلى سنتمتر ونصف سنتمتر وإن كان يصادف منها ما هو أكبر حجماً. وقد حالف الحظ السعيد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

إحدى سيداتنا إذ عثرت على حجارة منها بحجم نصف الإصبع. ومن أمثال هذه النماذج - إن لم يكن فيها شروخ داخلية - يمكن صقل نطفة رائعة بحجم القطرة مثل دلالية تعلق كالنوط.

من أين ظهرت مثل هذه التراكمات من الحصوات الكوارتزية؟ يصعب عليّ التنبؤ بالجواب، ولكن الأمر الجلي الواضح هو أن عروقاً كوارتزية ضخمة في وقت ما وموضع ما حفرت وتبعثرت فانتشرت في هذه البقاع. لم يلاحظ ما هو شبيه بهذا على قدر علمي في أمكنة أخرى من الصحراء الشاسعة ومترامية الأطراف. والأجانب من أرباب الأعمال في غضون أكثر من عشرين عاماً ينقلون مرتين في الأسبوع إلى هذه البقعة الصغيرة نسبياً السياح المتعطشين فضولاً، وحتى الآن لا يزمعون الكف عن ممارسة عملهم هذا، ومثل هذه الرحلة مع وجبة إفطار وغداء خفيف تكلف ثمناً غير بخس. وبهذه النقود يمكن شراء ٥ إلى ٧ أحجار بديعة وجاهزة ومصقولة. ولكن لا أحد في رأيي يأسف على النفقات التي تحملها لأن أية نقود مهما كانت لا يمكن بها شراء الإحساس الذي لا يتكرر والانطباع الذي تخلفه الصحراء الصباحية غير المتناهية بمواقع سراها الخفيفة ولهفة الصياد التي تمتلك النفس بالكامل وروح المنافسة وفرحة العثور على اللقيا المنتظرة في مفاجأة سارة.

حفلة زواج



على الرغم من كون المجتمع السعودي وجد نفسه بقدره قادر في عهد التمدن العصري فإنه يبقى، وأظن أنه لن يفلت قريباً من أسر تقاليدهِ العائِدة إلى عهد سعيد، وذلك لأن سجية أبناء هذا الشعب ليست من المرونة، مثل: الاقتصاد أو الإنتاج مثلاً. والتقاليد هي السائدة والأمرة، وهي قائمة ولا تستطيع التحول، ناهيك عن الاختفاء والزوال في ظرف حقبة قصيرة كهذه الحقبة.

وإلى مثل هذا تعود أيضاً مراسيم عقد القران وإقامة حفلة العرس وكل ما يسبق ذلك ويلحقه والدخول في مرحلة الحياة الجديدة بالنسبة إلى المتزوجين الجدد في أية بقعة من بقاع الكرة الأرضية. إن ذلك لحدث بالغ الأهمية ولكن في المملكة العربية السعودية يعار هذا الأمر أهمية خاصة، ولهذا يسهم في هذه العملية منذ أول بدايتها - عادة - كل الأقرباء من كلا الطرفين.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والسعوديون في جملتهم شعب مرموق، إنهم أشخاص فارعو القوام ورشيقون بقسمات وملامح ملحوظة وشعرهم كثيف، وابتسامتهم المعتادة والمعهودة تكشف - في العادة - عن صف منتظم من الأسنان الناصعة كبياض الثلج، الأمر الذي يبدو لي أنه نتيجة النوعية الجيدة من الطبيعة والعناية الحسنة الصحيحة والطبيعية، ويستخدمون في ذلك السواك وهو أعواد من أغصان شجرة الأراك التي تنبت في منطقة مدينة الطائف، ويمكن شراء الحزمة منها لدى الباعة الريفيين قرب المخازن الكبرى للمبيعات والمراكز التجارية. وينبغي قضم نهاية العود بالأسنان لتليينها ثم تدلك بهذه الأعواد الخاصة اللثات وتتنظف الأسنان. وطعم هذه النبتة طيب ومنعش للغاية. وبالنسبة إلى الكثيرين من الرجال يصبح هذا عادة معتادة وبمثابة اللعبة المسلية، سيما وأن السعوديين قليلاً ما يدخنون. وربما يفسر هذا أن الإسلام يحرم التدخين كونه مخدراً للعقل، إضافة إلى ذلك فإن الصوم السنوي في شهر رمضان بأكمله لا يساعد على انتشار واستحكام هذه العادة الضارة والبغيضة.

وثمة خاصية أخرى للمظهر الخارجي لدى السعوديين تستدعي الالتفات والانتباه إليها، هي العين. فالأعين عندهم

كبيرة وواسعة تظللها رموش وطفاء كثيفة وطويلة، ولها حدقات سوداء واسعة على بياض ناصع كبير المساحة يلمع بالشعاع ويخالط بياضه اللون الضارب إلى الزرقة، وكل هذا هو ما يسمى في الأدب العربي شعراً ونثراً بالبحور الذي تغنى به الشعراء في أعين الحسنات. ومثل هذه الأعين لا تكون على الأرجح إلا لدى سكان الصحراء ذوي الإرادة الحرة والتصرف المطلق، الذين تعودوا على مدى القرون والعصور أن يتجهوا بأبصارهم في تركيز نحو قبة السماء الزرقاء الصافية اللامتناهية.

والسعوديات جميلات بشكل خاص وإن كنت - والحق يقال - قد قيض لي الالتقاء في الأساس مع ممثلات الشريحة المتعمة من المجتمع، حيث يمكن أن يتم الاصطفاء والانتقاء بشكل اصطناعي. والوجوه النسائية في الشوارع مبرقة بقناع الحجاب، ولهذا لا تقع أعين الرجال في المملكة على النساء. واختيار العروس بوصفها زوجة المستقبل متروك لذوق ذوات القربى القريبات والبعيدات. فالأمهات والعمّات والأخوات هن اللاتي يبحثن في شتى اللقاءات والحفلات والأعراس ومختلف الجلسات والتجمعات ويدرسن المرشحات الشابات. ولكن أولئك الحسان، وهن أيضاً يفهمن دونما ريب خطورة اللحظة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وأهميتها، يستعرض ويعرضن أنفسهن وأزياءهن وملابسهن بكل روعتها وجمالها. وإذا كانت الصبية أو الفتاة من أسرة ثرية وخالية من العيوب والنواقص وبريئة من العلات، فإن المتقدمين لخطبتها سوف يتعاقبون في سلسلة لا تتقطع. وإذا كانت إحداهن بديعة الجمال باهرة الكمال فإن الكثيرين من الشبان سيكونون مستعدين لطلب يدها.

وبعد انتقاء المرشحة للخطبة فالزواج ووقوع الاختيار على إحداهن عقب الملاحظة والإمعان في النظر؛ تتولى الخاطبات فيه الدرس الأكثر دقة لخواص الخليقة والسجية والعادات وإمكانات أسرة المرشحة، ويتم تبادل الصور الفوتوغرافية للعروسين اللاحقين. فإذا كانت المواصفات والمعلومات والمعطيات جميعها مناسبة لكلا الطرفين يتوجه الممثل الأكثر وجهة وتبجلاً عن أسرة الخاطب إلى بيت العروس المختارة ويطلب يدها. ثم يسمح لعروسي المستقبل بالالتقاء في دار الخطيبة بحضور الأقرباء. وفي الوقت نفسه ينظم عقد القران وتوضع شروطه، بحيث تستطيع الخطيبة - عروس المستقبل - طرح شروطها وطلب كل ما تراه لازماً كمقدار النقود للمهر، والصداق، والأحجار الكريمة، والمجوهرات، واحتفاظها بعد

الزواج بلقب أسرتها مثلاً، وتأمين البيت المستقل والسيارة، والكثير سوى ذلك. ويطرح الخطيب أيضاً شروطه وطلباته. وإذا ما وافق الطرفان على هذه العروض والاقتراحات يمكن التحضير لعقد القران ثم حفلة العرس. وأود الإشارة إلى أن الخاطب ملزم من الناحية المالية بأن يضمن لأسرة المستقبل كل شيء ويتكفل به، فهو الذي يدفع نفقات العرس ويقدم الهدايا إلى خطيبته وأقربائها، ويدفع المبلغ المنصوص عليه في عقد القران بوصفه مهراً وصداقاً، ويجهز الفيلا أو الشقة وكذلك الأثاث والأواني واللوازم الأخرى الضرورية للحياة العائلية. وكثير من الآباء المعاصرين يقدمون أيضاً إلى بناتهم المحبوبات العزيزات النقود على الرغم من كون الخطيبة غير ملزمة من جانبها وفقاً للعادات الجارية والتقاليد المرعية بتقديم أية بائنة نقدية، إلا أنه إذا وقع مستقبلاً ولاحقاً الطلاق فإنها تحصل على مبلغ محترم بوصفه تعويضاً.

وينبغي القول: إنني عشت أعواماً عديدة في المملكة وراقبت حياة المرأة السعودية وتوصلت إلى استنتاج مغاير بالمقارنة مع استنتاجاتي السابقة الابتدائية وهو قد يكون رأياً غير نمطي بأن وضع السعوديات له غير قليل من المزايا والأفضليات.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وبعد الاحتفال الفخم بالعرس تحصل الزوجة الجديدة على بيت جديد أو شقة، أي أن كأسها ستكون مملأى إلى حافتها وقطبها. أما حماتها (أي أم زوجها) فلن تدخل عليها مسكنها إلا بوصفها زائرة في الضيافة لا غير. وعند ولادة الأطفال لن تعاني جراء السهر وقلة النوم ونقص الراحة في ساعات الليل جالسة بقرب المهد، وذلك لأن خادمتها ستتولى مساعدتها. وستكون في منتهى الطمأنينة بصورة مطلقة حين ترسل ولدها الحبيب وقلدة كبدها إلى مدرسة مجانية مجهزة وفق أحدث وأعلى طراز للتربية والتعليم مع سائق سيارة مخلص فتكون خالية البال من الهم والغم والقلق واثقة بأنه لن يخطف ولن يسرق ولن يتعرض لحادث انفجار ولن يعلمه جاره في الرحلة المدرسية ولا زملاء صفه وسواهم من التلامذة التدخين أو شم أبخرة الصمغ بوصفه نوعاً من المخدرات من حيث التأثير. ولن تضطر إلى حمل الحقائب الثقيلة المحتوية على الأطعمة لولدها بل تنقله سيارتهم الخصوصية مع سائقها أو في سيارة تاكسي أو على الأرجح والأغلب توكل هذا العمل إلى المساعدة المنزلية أو المديرية الاقتصادية أو الخادمة الشخصية، وذلك لأن النسوة يشكلن نصف الأسرة. وسيكون بوسعها مواصلة العمل، إذا كانت

راغبة في ذلك، أما في حالة انعدام رغبتها ففي وسعها قضاء الوقت في تعهد الأسرة واستقبال الزائرات والذهاب في ضيافة إلى الصديقات والانتماء إلى عضوية النوادي النسوية والذهاب إلى المعارض الفنية أو التجارية والصناعية أو مزاولة أعمال الخير والإحسان وغير ذلك من الأعمال الاجتماعية والشؤون العامة. أما في موسم الصيف القائل فلها أن تتوجه بقصد الاستراحة والاستجمام في خير المصائف وأحسنها في أوروبا وآسيا وأمريكا.

وهكذا لن تكون شاكية من وضع النساء المتباين في المجتمع السعودي، لا سيما وأنه قد طرأت عليه خلال الآونة الأخيرة تغيرات اجتماعية - سياسية جوهرية. وخلال حقبة الأربعين عاماً ونيفاً السابقة منذ عام ١٩٦٠م عندما بدأ تطبيق النظام التعليمي المدرسي للإناث؛ تزايد عدد التلميذات باطراد وهو يتجاوز حالياً عدد التلاميذ الذكور. ويعود الفضل الكبير في ذلك دونما شك وأدنى ريب إلى الأميرة عفت عقيلة الملك فيصل التي يلقبها أبناء الشعب بلقب «الملكة الأم». ومن حيث التعليم العالي فإنه يحافظ على النسبة نفسها إن لم يحسب عدد الطلبة الذين تلقوا التحصيل خارج الحدود، فهناك الطلاب أكثر عدداً من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الطالبات. ومن المتوقع أن هذا الفرق سائر تدريجياً إلى الزوال. والأقوال التي أدلى بها مؤخراً ولي العهد الأمير عبد الله بخصوص التنبؤات والتطلعات المستقبلية تدل على توقع التغيرات الإيجابية في وضع المرأة في البلاد. وكان قد قال ما معناه: «علينا أن نفتح جميع الأبواب على مصاريعها أمام الإناث ما دام ذلك لا يتناقض مع التعاليم الإسلامية والأخلاق القومية».

وأثناء أعوام مكوثي مع زوجي في المملكة حضرت مراراً حفلات الأعراس السعودية، وكنت شاهدة عيان على الاحتفالات الدالة على الترف بمناسبة عقد قران الأميرات من العائلة المالكة وفي أعراس الوجهاء وأبنائهم وبناتهم في الأسر المتمكنة الثرية وحتى في الأعراس الريفية. ولأجل إجراء هذه المراسيم الابتهاجية تنفق الدولة مخصصات طائلة موجهة الدعوات إلى المهندسين المعماريين الأجانب من الطبقة الأولى لتشيد القصور الرائعة، وليس نادراً وجود المجمعات ذوات الصالات العديدة وممرات العرض، حيث يمكن أن يجلس فيها بضعة آلاف من الأشخاص مجتمعين في آن واحد معاً.

والأعراس تكون نسائية ورجالية. والأخيرة منها تقام في الأوقات نفسها مع النسائية ولكن في أمكنة أخرى. وعلى حد

علمي فإن الرجال في الأعياد والاحتفالات يجتمعون بعضهم مع بعض خلف الموائد الحافلة بكل ما لذ وطاب ويشاركون في الأهازيجات الجماعية ويستمعون إلى الأنشودات القومية. أما بخصوص النسوة فاستطيع التحدث عنهن بمزيد من التفصيل عن علم ويقين. جميع أمثال هذه الاحتفالات بغض النظر عن الأوضاع المالية لربات الدار اللاتي يقمن هذه الحفلات على السلم الاجتماعي تجري تقريباً بشكل مماثل ففي غضون ساعة ونصف الساعة إلى ساعتين قبل الوقت المحدد تجتمع الضيفات ويتم إجلاسهن حول الموائد أو على صفوف الكراسي المرتبة بنظام، ويتبادلن أطراف الأحاديث ويتطلعن إلى ملابس وزينات بعضهن بعضاً متفحصات ومقومات ويتناولن ألوان الحلويات المتنوعة والشكولاتة ويرتشفن المرطبات ويشمنن البخور والروائح الطيبة النكهة ويلاحظن الشابات المشاركات في الاحتفال. وكل هذا يشغل ساعتين أخريتين، ثم تلعو أصوات الدفوف، وتفتح ببطء الأبواب المزدوجة المنقوشة بحزوز الحفر والنتوءات المنمنمة في آخر الصالة، وعلى ضوء الكشافات الكهربائية الساطعة تظهر العروس وحيدة أو مع خطيبها تبعاً لعادات الأسرة (في بعض المناطق من المملكة العربية السعودية

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تتعالى في هذا الموقف الزغاريد). ويتقدم الشابات بخطى بطيئة ومنتظمة على البساط السجادي الذي يقطع الصالة من وسطها بالعرض. وفي الجهة المقابلة حيث نصب فوق دكة واسعة ومشعة بالأنوار والأضواء كرسيان مزدانان بالزهور والأكاليل (في حالة ظهور العروس لوحدها دون الخطيب يكون منصوباً كرسي واحد لها). وأمام الزوجين المحتفى بهما يسير أطفال صغار في ثياب جميلة حاملين المباخر المجرّمة وتغص الصالة بنكهة الروائح الطيبة غالية الثمن. ويختم الموكب كذلك أطفال بأيديهم باقات الزهور ويمسكون بأذيال حلة العروس (أي بدلة العروس). وتمشي المجموعة كلها ببطء شديد متوقفة لبضع ثوان عقب كل خطوة، بحيث إن قطع المسافة من الباب إلى الكراسي تبعاً لطول الصالة يستغرق قريباً من نصف الساعة. وبوسع الضيفات أثناء هذه المدة الاستمتاع بالمنظر الرائع، غير أنه ليس من العسير تصور ما يشعر به العروسان طيلة هذا الوقت العروسان تحت كل هذه النظرات الثاقبة والاهتمام العام البالغ والثريات الوضّاء الساطعة. وبالأخص العروس المزينة بالحلي الثقيلة وهي في تصفيّة شعر بديعة ومبتكرة وترتدي فستاناً مثقلاً مزيناً بالقلائد ومطرزاً بالخرز الملون وأحياناً يزن

عدة كيلوات. غير أن ذلك - كما أعتقد - ليس أصعب اللحظات والمواقف ولا أثقلها وطأة في الحياة العائلية المقبلة.

وأخيراً يصعد الموكب على الدكة ويشغل محله المخصوص له. وفي الحال تقف ثلة من الصبايا الشابات من الضيفات عند قدمي العروسين مباشرة وعلى الدرجات المؤدية إلى الدكة، وهن أيضاً يتعرضن ضوء الكشافات ويصبحن تحت أنظار المدعوات، ولهذا فهن مرتبكات ومنفعلات وخدودهن محمرة وفيهن حماوة الحرارة. وتحل أنسب اللحظات للأمهات والعمّات والخالات لعرسان المستقبل لأخذ الخطيبات. ولكن في هذه اللحظة يتكوّن عند الدرجات المفضية إلى الدكة طابور حي من قريبات العروسين ومعارفهن المقربات وهن يتقدمن إليهما للتهنئة. ويحدث أنه خلال مدة طويلة من الوقت تظهر من باب الاحتفالات مجموعة من الرجال هم أقارب العروسين، وهم أيضاً يتقدمون إليهما ويقدمون لهما التهانى. وفي هذه الحالة، رغم أن قسماً كبيراً من الصالة تلفه نصف العتمة تدلي أغلبية النسوة القريبات من المكان عليهن العباءات التي أخذت من مكان ما وكذلك نقاب الحجاب. وبعد انسحاب الرجال وخروجهم تسفر النسوة جميعهن وتجري احتفالات العرس على

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

رسلها. وفي وقت ما قرب منتصف الليل أو بعده بساعة زمنية واحدة توجه الدعوة لتناول طعام الوليمة الدسمة، وبعد ذلك تستكمل فقرات الحفل المتنوعة.

ومن الطريف أن الكثيرات من الضيفات لسن من معارف أي من العروسين ولا من ذوي قرباهما. والسعوديون شغوفون بحفلات الزواج الفخمة المزدحمة بالناس، ولهذا فمن المألوف توجيه الدعوة لا إلى الأقرباء والأصدقاء وحدهم، وإنما معهم أيضاً إلى معارفهم وكذلك أقرباء هؤلاء المعارف وأصدقائهم. ويقدم بعض الضيوف والضيفات الزهور، سواهم وليس معهم أية هدايا مهما كانت، وعلى هذا جرت العادات. ولكن خلال اليوم التالي أو الذي يليه تجتمع حلقة الأقرباء والقريبين من المعارف والأصدقاء من جديد وهذه المرة مع الهدايا وبإلها من هدايا! وهذه الهدايا المقدمة من المتعارف عليه أن تسجل بالأسماء والتوقيع. ثم في وضع هادئ بالطبع تحلّ ربطاتها وتشاهد ويفرح بها وتحصى في قائمة يسجل فيها اسم المهدي ونوع الهدية، لأنه في المستقبل على الأرجح وبالتأكيد سوف تأتي مناسبة لتقديم الهدايا أو فرصة سانحة لذلك أو عرس وعندئذ يتوجب تقديم هدية مماثلة إلى هذا المهدي أو قريبه أو ربما

أغلى منها بقليل.

وذات مرة سعدت بحضور عرس أميرة هي إحدى حفيدات الملك عبد العزيز، وكنت واحدة من مجموعة مدعوات هن عقيلات سفراء الدول الأجنبية المعتمدين لدى المملكة. ومنذ المدخل إلى أفخر فندق في المدينة «إنتركونتيننتال»، حيث كان ينبغي الاحتفال بالعرس، أدركت أنني سأغدو شاهدة عيان على شيء ما فوق العادة. وعلى مسافة بضعة كيلومترات عن الفندق كان متعزراً أن تقف حتى أصغر السيارات حجماً، وصلت إلى المدخل الرئيس واحدة تلو الأخرى سيارات فخمة وخرج منها وسط موجة فائحة من أغلى العطور الضيوف في عبااءات رجالية سوداء مطرزة الحواشي بالإبريسم الذهبي. وفحص بطاقات الدعوة المؤشرة بعلامات «سريون» عديدون مزودون بأجهزة فحص واستماع خاصة.

وفي الردهات الفسيحة يوجد عدد غير قليل من الضيوف الذين قد وصلوا وهم في أبهى الحلل وأحدث الأزياء، والقول بأنهم يرتدون البدلات الأنيقة هو أقل ما يقال. النساء يزدهين في أزياء عصرية فائقة الجمال والبهاء، ومتجملات بأغلى وأنفس الحلى، وعليهن أبداع تصفيفات الشعر، والوجوه لامعة تبرق

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

كالنجوم في السماء والكواكب في الأفلاك، إنهن كن أنفسهن نجومًا وكواكبًا.

كانت منصوبة في الصالات أجهزة التلفاز التي تنقل وقائع الاحتفال ليشاهدها الذين لم يكن بوسعهم مشاهدته عن قرب لسبب من الأسباب وهو عدم العثور على مكان لهم في الصالة المركزية، حيث ينبغي أن تجري مراسيم عقد القران وأفراح العرس. والقضية هي أن السعوديات يؤثرن في العادة الذهاب إلى الحفلات والأعراس ومعهن أطفالهن، وفي بعض الأحيان حتى الرضع منهم، وذلك واحد من التقاليد، وهذا بمثابة عرض لتضامن الأقرباء وأقرب الأصدقاء سواء في السراء أو الضراء. ثم لكي تستطيع الأمهات الاستمتاع بحرية بمباهج الاحتفال تتعهد الخادومات رعاية الأطفال وملاحظتهم. نصبت لهن شاشات تلفزيونية كبيرة الحجم. والأطفال يتراكمون أحراراً وهم في أزيائهم المتميزة الخاصة بالحفلات ويمارسون اللعب حتى يدركهم الإنهاك ويفعل فيهم الوقت فعله فيهدؤون وتسكن شأفتهم. وحينئذ يخلدون إلى النوم مستسلمين لأسر النعاس، والنوم كما يقولون سلطان، فيرقدون على الكراسي والأرائك أو على أيدي مربياتهم أو في أحضانهن إن كانوا من صغار السن.

كانت الصالة الرئيسة تمثل في تنظيمها وتزيينها ما هو بمثابة الميدان الدائري التاريخي المعروف لدى الرومان ولكن في شكل مربع: الصفوف الطويلة من الكراسي المخملية للمقصورة الكبيرة تنتهي نزولاً نحو الممشى الرئيس المفروش بالسجادة. وأجلسونا في أكثر الأماكن امتيازاً غير بعيد عن المنصة التي فوق الدكة المرتفعة. ووجدت نفسي جالسة وسط قريبات الأسرة المالكة، وهن نساء في شتى الأعمار المختلفة ولكنهن جميعهن معتنيات بأنفسهن إلى أقصى حد ومعطرات ومتبسمات. ورأيت عليهن مصوغات نادرة ويمكن حتى القول: إنها أشبه ما تكون بمعروضات المتاحف الكبرى تحلي الصدور وقلائد على النحور بحيث بدت لي الحلي التي أضعها على نفسي حقيرة فقيرة. ولاحظت على أصبع إحدى السيدات المعمرات خاتماً رائعاً سماوي اللون كتلته بحجم ١٧ قيراطاً تقريباً وهو ضخم إلى درجة لا تصدق، بحيث لو رأي في مكان آخر لكان الأقرب إلى الذهن أنه صناعي زائف.

كان الوقت أكثر من الكثير وسرعان ما تعارفت مع جاراتي. وينبغي قول ما يجب وإعطاء كل ذي حق حقه، فالسيدات لطيفات جداً وبشوشات، والسبب في ذلك روح الضيافة والإكرام

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

التقليدية، وربما على الأرجح الحياة الهادئة المطمئنة والخالية تقريباً من أية مشكلات. وسواء كان الأمر هذا أم ذلك مهما كان التدبير الجماهيري والاحتفالي الذي تجد نفسك فيه تستقبل خير استقبال وتجلس في المكان الملائم المناسب ويتم التعارف معك. وتساءل من أين أنت وكم من الوقت تقيم في البلاد وهل يعجبك المقام هنا وإلى أي مدى وكم لك من الأطفال..؟ وهكذا دواليك، وبنسبة ٨٠٪ يحتمل توجيه الدعوة إليك للنزول ضيفاً في حفلة لشرب الشاي أو تناول وجبة من الطعام أو أكلة خفيفة. وبما أن معظم السعوديات لا يشتغلن بعمل وغير مشغولات جداً بأعمال التدبير المنزلي والاهتمامات البيتية فإنهن يقصدن كل يوم تقريباً شتى اللقاءات والمعارض والأسواق. وأتذكر أنه خلال الأعوام الأولى من إقامتي تقابلت كثيراً مع العديد من النساء وذهبت إلى بيوتهن زائرة ومدعوة في ضيافة لم أستطع يوماً أن أحفظ في ذاكرتي أسماءهن. وتجمع لدي عدد كبير من بطاقات الزيارة التي أسجل عليها حتى اليوم بخط دقيق هذا أو ذلك من التفاصيل الجديرة بالتذكر من وقائع اللقاء، لكي أتذكر في المستقبل صاحبة البطاقة ولئلا أنسى طلعتها وشخصيتها.

وفي هذه الأثناء ظلت وقائع الاحتفال بذلك العرس مستمرة

ومتواصلة، وطافت بضع عشرات من الخاديات الشابات بين صفوف الجالسات وهن حاملات مجامر البخور ويقفن هنيهة عند كل مدعوة لتبخيرها وتعطيرها. إنهن كن قاتمات البشرة جداً ويرتدين جميعاً الزي نفسه وعلى أعناقهن كانت تتدلى صفائر ذهبية ضخمة - ولا يمكن تسميتها إلا بهذا - تصل إلى حزام الخصر. والطريف في الأمر هو أن تصفيفة الشعر لديهن جميعاً كانت هي نفسها، كانت عقد الشعر مسرحة بشكل منبسط ومشدودة إلى الخلف وكأنها مربوطة بنهايات الحواجب والأصداغ. وكانت رؤوس الخاديات مغطاة بعصابات سود شفافة مشدودة بشدة من تحت الحنك كأنما تضغط على الخدود. وكن جميعاً شبيهات بعضهن بعضاً كما لو كن توائم. وذكرت جارتني التي كان صدرها يزدان بقطعة كبيرة من البرلينتي الماسي رداً عن سؤالي أنه عقب إلغاء نظام الرق في سنة ١٩٦٢م اقترح على المحررين إما العودة إلى بلدانهم وإما البقاء في المملكة، والكثيرون منهم ليس لهم في الوطن لا أقرباء ولا مسكن «كانت ثمة عادة في الممارسة هي أن يبيع الحجاج من أثيوبيا (الحبشة) والسودان وبلدان أخرى بنيهم وبناتهم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

لدفع تكاليف طريق العودة» فلم يريدوا ترك أسيادهم وظلوا لديهم، وكان مصيرهم بشكل مختلف ومتباين، ولكن منهم من بقي ليعمل في القصور وكان له الحظ الأوفر. والآن لأولادهم وأحفادهم، نظراً لإخلاصهم على مر السنين، عمل حسن الأجر (استدلالاً بالزينات الذهبية الضخمة) وتغذية جيدة وخدمة طبية. وقد شكوا لهم عوائل ويعيشون حياة لائقة في وطنهم الثاني.

أما بخصوص التسريحة غير العادية فإنها كانت قبل أربعين عاماً موضة شائعة لدى السعوديات الثريات و«العبدات» قد قلدن سيداتهن. وهي الآن تعد عنوان الأناقة بين من يتولين الخدمة. وعادة شد العصابة من تحت الحنك لم تكن دون سبب، كما هو الشأن بالنسبة إلى كل ما يتعلق بالجمال الأنثوي، سواء أكان ذلك في الطبقة العليا لبلد أوروبي ما، أم في خيمة للرحل تتكوم فوقها الرمال الصحراوية وتدل الدلائل جميعها على أنه في ذلك الوقت - عندما ظهرت هذه الموضة - لم تكن البدويات الشاببات قد تعودن بعد على الطعام المتنوع الغني بالشحوم، بل الأحرى لم يكن لديهن ما يكفي من الطعام البسيط وكن يرعين القطعان تحت أشعة الشمس الحارقة

وينجزن العمل المنزلي الشاق، وكن نحيلات. أما الموضة فإنها - وهي متقلبة الأطوار - مدللة تختار دوماً شيئاً ما غير عادي ولا نمطي. ولهذا عد مقياساً للجمال الوجه المكور المدور بخدود ممتلئة. ومن هنا جاءت - ولا تزال حتى الآن - هذه العادة في شد العصابة من تحت الحنك. بينما ليست بين صديقاتي السعوديات الشابات حتى ولا واحدة تعرف هذا، وقد استغربن كثيراً عندما سمعن مني الحديث عنه.

بلغ الوقت هزيعاً عميقاً من الليل، ولكن نهاية حفلة العرس لا تزال بعيدة ولم يبد منها بعد أية علامة على قرب الانتهاء. وبعض المدعويين - ومنهن أنا - اضطررن إلى مغادرة هذا العيد، أو المهرجان. وكانت الشوارع جميعها المفضية إلى موضع الاحتفال غاصة بأنواع السيارات. وذكر رجل البوليس بمساعدة مكبر الصوت اسم بلادي. وكانت السيارات تقترب واحدة تلو الأخرى لتنتقل صاحباتها إلى مقارهن. وحالف الحظ بعضهن إذ استطاع السائق الوقوف بالسيارة قرب المدخل. أما أنا فقد نقلتني السيارة عقب مرور نصف ساعة على مناداة سائقها عبر شوارع الرياض الخاوية على عروشها. وتحدث السائق بلهجة الإعجاب عن ألوان الطعام التي قدمت إليه بوصفه سائقاً من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

السائقين (وفي العادة في التدابير التي يشارك فيها عدة ألوف من الضيوف والمدعوين كالأعراس وحفلات الاستقبال في القصور وأمثالها يدعى السائق إلى خيم منصوبة ومجهزة خصيصاً، حيث يستطيعون الاستراحة والتمتع بأطعمة الاحفال).
ها قد مرت مدة خمسة أعوام على ذلك العرس ولكنني أتذكره بأدق تفاصيله.

دولة السعوديين الأولى



إلى الشمال الغربي من الرياض على طول وادي حنيفة الملتوي وهو نفسه الذي يحد الحي الدبلوماسي من الغرب، امتدت منطقة شاسعة تسمى الدرعية. وقد غدت في غضون بضعة عقود من السنين فحسب عاصمة الدولة السعودية الأولى، وهي الدولة الواسعة المزدهرة التي بلغت شأواً لم يسبق له مثيل، إلا أنها انهارت تحت زخم ضغط الأعداء لكي لا تقوم لها قائمة. وهي مجموعة من المستوطنات تشكلت على مدى يربو على الخمسمائة عام، على الرغم من أن واحات منفردات قامت في هذا الجزء من هضبة الجزيرة العربية خلال الألف الثالثة من السنين قبل الميلاد، والسبب في ذلك وجود مصادر الماء وقطع من الأراضي الخصبة. وقد أصبحت الدرعية عاصمة عندما نشأ أواسط القرن الثامن عشر تحالف بين محمد بن سعود الحاكم آنذاك والشيخ محمد بن عبد الوهاب الداعية إلى اتباع الإسلام الأول الذي ارتبطت باسمه ولادة الحركة الدينية

المعروفة في الغرب باسم «الوهابية».

والسعوديون الحاليون لا يستخدمون هذا المصطلح؛ لأنهم لا يرون أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تياراً مستقلاً في الإسلام، بل هي دعوة إلى تطهير تعاليم النبي محمد بن عبد الله ﷺ من التراكمات والترسبات المتكوّنة في وقت متأخر والتفاسير المنحرفة، وإلى العودة إليه في شكله الأول القائم على أساس من القرآن الكريم والسنة الشريفة. وكانت أواسط القرن الثامن عشر الرواية الوحيدة الممكنة للتركيز وإدراك العرب أصالتهم القومية على خلفية العنعات والحزازات والحروب القبلية الدائمة وشتى أنواع التيارات الدينية والعبادات بما فيها شبه الوثنية. ويوجه المحللون الغربيون إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته تهمة عدم القبول والشراسة تجاه أتباع الاتجاهات الأخرى في الإسلام، إلا أن هذا يشكل موقفاً أحادي الجانب إلى حد ما، بيد أنه بقيت خارج نطاق عناية المحللين العلماء الدارسين نداءات الشيخ محمد بن عبد الوهاب الداعية إلى الأخوة الإسلامية الشاملة، وإلى المراعاة والالتزام بقواعد أخلاقية، مثل: العدل، والإخلاص، والطيبة، والشرف، والتعاون، والمساعدة المتبادلة التي اجتذبت

الميول واكتسبت قلوب الكثيرين من الناس. وعقب مرور قرنين على ظهور نظرية الشيخ أكد الملك عبد العزيز رداً على التهمة المشار إليها والموجهة إلى المملكة العربية السعودية بكونها قد اختارت اتجاهاً جديداً في الإسلام قائلاً: «إنهم يقولون إننا وهابيون، إلا أننا في واقع الأمر مسلمون لا غير، نتبع تعليمات القرآن الكريم وسنة النبي محمد ﷺ كما فهمها وفسرها أسلافنا الكرام العظام».

وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم سواه فإن التحالف الديني - السياسي ما بين حاكم إمارة غير كبيرة هي الدرعية وهو محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب قد لعب الدور الأساس في تشكيل الدولة السعودية الأولى عندما أصبح نقطة انعطاف في تاريخ الجزيرة العربية وأفضت في خاتمة المطاف إلى إقامة المملكة العربية السعودية.

وعقب هذا التوحيد المرحلي في عام ١٧٤٥م بدأ التطور السريع لإمارة الدرعية. والسييل المتدفق للسكان (بلغ تعدادهم في ذروة الأوج ١٣ ألف نسمة) قد أثار ضجة إنشائية بنائية، فقد شيد ٢٨ مسجداً و٣٠ مدرسة دينية، وظهرت شريحة أرباب الحرف من نساجين وصاغة وخياطين وسراجين، وكذلك الصقالون

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

«صانعو الأسلحة» في البداية السلاح الأبيض ثم الناري . وقد أخذ أهل الدرعية يصنعون باروداً جيد النوعية على غرار الصناعات الإيرانية.

وعلى قدر توسع الإمارة نمت وتوسعت أيضاً عاصمتها، وتطورت فيها التجارة وقدمت مقابل الألبسة والحريير والنحاس والسلاح والبن الإبل والخيل والتمر ومنتجات الحرفيين. وتوجهت القوافل التجارية إلى كل من الشام ومصر واليمن وإيران وتركيا. وزاد رخاء السكان، وفتحت المدارس التي كان رجال الدين فيها يعلمون القراءة والكتابة وقراءة القرآن. وهم الذين جمعوا مكتبات عامة كبيرة حفظ فيها غير القليل من البحوث التاريخية. وكان القضاة يصدرن الأحكام مهتدين ومسترشدين بالقرآن الكريم. وزودت البيوت بالأثاث، وكانت تفرش بالأغطية الصوفية وعلى ندرة القطنية غير المتوافرة بكثرة. وغطيت الأرضية بالسجاجيد وحتى في البيوت الفقيرة. واستعملت الصحون النحاسية والأكواب الخشبية، وكانوا يتناولون الطعام على الأرض أمام سفرة جلدية مدورة، علماً بأن الذكور والإناث لدى ذلك كانوا على حدة. وكان السكان البالغين من الرجال جميعهم مشغولين في شتى مجالات الحياة

الاقتصادية. وكان قسم غير صغير منهم مشغولاً بالخدمة في قصور الأسرة الحاكمة علماء وحراساً وخداماً. ولكن على أية حال اشتغلت الكتلة الأساسية من الناس في الحقول الزراعية. وفي الزمان السحيق كانت تجري من مناطق جبال الحجاز ذات الظروف المناخية الأفضل بكثير أنهار حقيقية نحو الشرق. وقد اتحدت في الجزيرة العربية الوسطى وبلغت ساحل الخليج العربي (الفارسي) وجرفت هذه السيول التربة الرملية والكلسيات الخفيفة والصدفيات مساعدة على تكوين أنواع من التربة مسقية وخصبة، التي أصبحت سبباً لوجود واحات في هذا الجزء من الجزيرة العربية الوسطى المعزول وقليل الصلاحية للمعيشة. وتوجد المياه الجوفية هنا قريبة بما فيه الكفاية وسطح الأرض، ولذلك حضر السكان منذ القديم الآبار مؤمنين الماء لأنفسهم وحيواناتهم وزروعهم. وعندئذ ظهرت الزراعة المروية وشكلت منظومة كاملة للري يمكن رؤية بقاياها حتى اليوم. كذلك واستخرج الماء بمساعدة القنوات ونواعير من أنواع الخشب الصلبة والقرب الجلدية مع الأحجار الكبيرة المعلقة عليها لغرض التثقيل. وحركت المنظومة الحمير أو البغال. والآن يستخدم المزارعون من حيث الأساس المضخات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الكهربائية ولكن لا يزال ممكناً في أمكنة ما رؤية لوحة كهذه. ولقد شهدت بعيني بغالاً مشدودة للعمل في أرض مزرعة في منطقة الجنادرية، وكانت هذه الحيوانات تسير على درب مسلوكة ذهاباً وعودة تسوقها عصا أو سوط المراقب.

ومن الآبار في كل المساحة المزروعة إلى شتى الاتجاهات، فقد حفرت السواقي وأنشئت الجوابي الحجرية التي لا تزال باقية بصورة جيدة، وبعضها يستخدم حتى في الوقت الحاضر. وركبت في أسس أسوار المدن أنابيب بزل طينية لتصريف المياه الزائدة مباشرة إلى الوديان التي كانت تتحول في أوقات هطول الأمطار الغزيرة إلى سيول دافقة. ولقد أفضى وجود الماء والأراضي الجيدة وجمعيات الأقرباء للتعاون في الزراعة والعمل اليومي الشاق لتحول الدرعية بسرعة إلى واحة كبيرة موحدة، وموضعاً معداً لمعيشة الناس، وجنة حقيقية لحياة الحيوانات والطيور والحشرات. وقد جرى هنا زرع القمح والخضراوات والشعير والذرة. وكانت مساحات الأراضي المزروعة والبساتين والحقول بالطبع في تبعية مباشرة إلى كميات المياه. وكانت الحبوب تزرع في الخريف وتسقى رأساً عقب الحراثة (في العادة بمحاريث خشبية) سائلين الله بخشوع إنزال الأمطار. ويجري العمل

كثيراً حتى نهاية نيسان (أبريل) قبل موسم القيث الكبير. وفي الصيف كان الماء يستخدم في سقيا النخيل والبساتين والحقول. وكان زعيق نواكير الآبار هو الخلفية الصوتية الدائمة في الأرياف ليلاً ونهاراً. ولم تكن الفواكه والخضراوات تزرع إلا في ظل النخيل. وهذه الممارسة يحافظ عليها في الوقت الحاضر كذلك.

توسعت دولة آل سعود، وحتى عام ١٨٠٨م كانت تسيطر على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية بما في ذلك الحجاز، بيد أن دولة الأتراك العثمانية غير الراضية عن تقوية حاكم الدرعية أرسلت من مصر قواتها التي طردت السعوديين من الحجاز، وذلك في سنة ١٨١٨م وصلت القوات بقيادة الجنرال المصري إبراهيم باشا إلى أسوار العاصمة، وتجمع هنا إلى ذلك الحين كل من استطاع الخلاص بالفرار المخلصون لبيت السعوديين من سكان واحات ومدن نجد التي كانت قد احتلت. وقد استمر حصار المستوطنات ستة أشهر. وفي غضون هذه المدة كانوا عرضة للقصف المدفعي المتواصل بلا انقطاع. ودمرت الأسوار التي كانوا يظنون أنها منيعة، وقضي على البيوت والقصور. وقد أفاد شاهد عيان أن القنابل «كانت تسقط كالمنطر الهاطل».

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ولم يستطع الفرسان الدرعيون المسلحون بالرمح والمحميون بالدرع بأية حال من الأحوال إظهار بأسهم وظلوا قابعين في المدينة المحاصرة. أما الثلاثون مدفعاً المنصوبة على أسوار الحصن فقد ظهر أنها كذلك عديمة الجدوى وغير فعّالة. وأخذت صفوف المدافعين عن الدرعية تتناقص تدريجياً، وظهر أثر نقص العتاد والأغذية والماء. وفي خاتمة المطاف لم يستطع المحاصرون الصمود فاستسلموا. وقطعت رؤوس الأمير وأقرب حاشيته، وقطعت كذلك جذوع النخيل كلها «لئلا وتؤتي أكلها من التمور أبداً». أما الزروع الواسعة فقد أحرقت، ودمرت المستوطنات ونهبت.

لقد تحولت هذه الدولة المزدهرة إلى أنقاض، وأصاب الفوضى جهازها الإداري، وقضت القوة الحربية على الموارد الشحيحة أصلاً. أما السكان فقد قضى عليهم أو شردوا وشتتوا في أرجاء الصحراء. وبعد مرور خمسة أعوام أعاد الإمام تركي بن عبد الله هذا الأقليم إلى أسرة السعوديين، ولكنه قد اتخذ مدينة الرياض عاصمة له.

وظلت الدرعية على مدى القرن مجرد أنقاض، حتى تولت في عام ١٩٨٦م دائرة إحياء التراث على عاتقها أمر إعادة

تشبيدها. وهي العملية التي ما زالت مستمرة حتى اليوم. وقد قمنا مراراً بكامل أسرة العاملين في السفارة بالسفر إلى هناك (ويستغرق الطريق زهاء نصف الساعة انطلاقاً من مركز مدينة الرياض). وفي كل مرة أكتشف لنفسي هنا شيئاً ما جديداً علي.

وكانت الدرعية قبل وبالأخص أثناء ازدهارها لأسباب مفهومة تماماً تمثل لقمة سائغة بالنسبة إلى العشائر المجاورة لها. ولهذا كان حكامها دوماً حريصين على صيانة أمنها، مشيدين لها أسواراً عالية وبسمك نصف متر مع أبراج حراسة ضخمة على أسس صخرية عند كتلتي حافتي وادي حنيفة. وأحاطوا بأسوار متينة أيضاً المستوطنات المنفردة وحتى بعض القصور. والمستوطنات المحفوظة أكثر من سواها والمرممة تجتذب إليها السياح، وهي مدينة طريفة فيها بضع مئتين من البيوت الطينية بطابق واحد أو طابقين وعلى الأقل عشرون قصراً ومساجد وحمامات ودار الخزانة وميادين وشبكة متشعبة والأزقة الضيقة وفي بعضها يستطيع بالكاد أن يمر خلالها شخصان متقابلان لا غير. وهذه المدينة كانت مقر سعود الكبير كما سماه فيما بعد أبناء ذريته.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ونعبر القنطرة المنصوبة عبر وادي حنيفة (وتمر حالياً عبر قاعه جادة خارجية) متجاوزين بوابة قديمة، ونجد أنفسنا في ميدان غير فسيح تظله من إحدى جهتيه غابة نخيل. وهنا ينبغي إيقاف السيارة والارتقاء مشياً على القدمين إلى المدينة. ولكن تدهشنا في اليسار رأساً أنقاض طينية فخمة تشهق نحو السماء الزوايا الحادة الشزراء لأسوارها نصف المتهدمة والممتدة على مسافة ١٥ متراً.

ومجمع القصور هذا العائد إلى سعود الكبير والمسمى سلوى يضم ست بنايات ومسجداً جامعاً وديوان ضيافة ومجلس شيوخ وبئراً. وكل هذا قد تأثر بقوة من القصف المدفعي الشديد قبل مائتي سنة، وكذلك بتأثير تقادم الزمن عليه وهو ينتظر ساعته للحصول على الترميم. ولم تبق درجات السلم الذي كانت هنا للمرور بين الطوابق وسطح السقف، ولكن يبدو واضحاً أنها كانت بناية من ثلاثة طوابق، وأنها بناية نمطية ذات طراز جميل الفن المعماري في منطقة الجزيرة العربية الوسطى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وبالطبع فإن قصور ذلك العهد لا يجمعها أي جامع بالتصور المفهوم عن تشييدات من هذا النوع. وهي لا تختلف عن بيوت

المواطنين العاديين سوى بالأحجام والتقسيم الداخلي. وقد بنيت المساكن والقصور أيضاً من البلاطات المجففة تحت أشعة الشمس والمصنوعة من خليط الطين المحلي والقش (التبن)، أو عجت من ذلك الطين نفسه مع مزجها بالشظايا الصغيرة من الحجر. والبيوت البسيطة كذلك شأن بيوت الأغنياء كانت تمثل مجمعات مستقلة لها باحاتها الداخلية ومستودعاتها وحظائرها للمواشي ومطابخها المكشوفة. والجدران الخارجية بلا شبايك ولكنها كانت مزينة بثغرات مثلثة الشكل تتجه رؤوسها نحو الأعلى، وقد ثقبت بترتيب معين بحيث تشكل نقوشاً هندسية تقع عادة في أعالي البناية. وهي لم تكن مجرد زينات معمارية، وإنما أيضاً ساعدت على تهوية أقسام البناية، الأمر الذي كان على جانب كبير من الأهمية في طقس نجد القائف اللافح. وأسطح البيوت المنبسطة المستورة التي كان يفضي إليها سلم ضيق كانت تستعمل للاستراحة المسائية والرقاد الليلي في موسم الصيف.

وتوزعت غرف السكنى على طول البناية، وتطل أبوابها ونوافذها الصغيرة على أعمدة الباحة المركزية الداخلية. وقد تحكمت في تحديد حجم النوافذ شمس الصيف الحارقة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وموجات البرد القارس الشتوية. وهذا التقليد يحافظ عليه حتى الآونة الأخيرة. والنوافذ صغيرة الحجم جداً في معظم بيوت السكنى العديدة الطوابق في المدن السعودية. ولا يشكل استثناء بهذا الصدد سوى إطارات النوافذ في الفنادق ومكاتب الشركات. ولكن في الأعوام الأخيرة بظهور التركيبة الشبائكية العصرية والزجاج السميك يتغير الوجه العام للمباني نحو الأفضل.

وفي القسم الداخلي الخاص بالحریم (النساء) في بيوت الدرعية كانت تحفظ الأغذية الفائضة عن الحاجة والأفرشة والوسائد. وكانت أقسامها في القصور واقعة في الطوابق العلوية، ومن هناك كان باستطاعة النسوة مشاهدة ما يجري في صالات الضيوف السفلية من خلال نوافذ خاصة مشبكة. وأخيراً كانت أسوار القصور مكلّلة أي تنتهي في أعلاها برؤوس مسننة وصفائح غير كبيرة في الزوايا والأركان، وقد صبغت على سبيل الزينة بالكلس أبيض اللون.

وهكذا نجتاز الباحات بكسارات الجدران وحطام الأعمدة التي كانت شاهقة والأزقة الضيقة ما بين البنايات والغرف ونرتقي على بقايا السلالم. وأخيراً نصل إلى الباحة الداخلية

في قصر السالمية . وهي لم تتظف بعد من الأنقاض جراء ذلك القصف القديم، ولكن البناء يكون انطباعاً كبيراً بأحجام أعمدته وضخامة القطع المتبقية منها. وقد انعزلت خفية عن فرقتي وإذا بلوحة الحياة في ذلك الزمن البعيد التي وصفتها بشكل حي أقوال شهود العيان على ذلك الزمان تتشخص في تصوري ماثلة .

ومن جهة الشرق بدأ ييزغ الفجر ببطء ولم تشرق الشمس بعد ولم يصعد قرصها من الأفق والجو لا يخلو من البرد، بل ويمكن القول إن الهواء بارد ولهذا تلفت النسوة في ملابسهن. وفي الباحة يسود دوي رتيب.

والأشخاص من الكثرة بحيث لا يمكن عددهم تخميناً، على الرغم من أن وسط الميدان كان خالياً وفارغاً من الناس. والناس يواصلون القدوم ويجلسون على الأرضية الحجرية، وبعد مضي بعض الوقت يظهر أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأعمامهم وأخوالهم مع أبنائهم وإخوانهم، وكل واحد منهم بصحبة حاشيته وخدمه، ويتقدمون إلى وسط الميدان ويتخذون مقاعدهم هناك. ثم يظهر أبناء الأمير سعود واحداً تلو الآخر مع الشخصيات البارزة والمرموقة ثم الوجهاء والعبيد، وكذلك شغلوا مواقعهم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في الميدان. وعند ظهور السادة والقادة ينهض الجميع واقفين احتراماً. وتمضي مدة أخرى من الوقت وأخيراً يظهر سعود الكبير نفسه تحيط به حلقة من العبيد السود المسلحين بسيوف ثمينة مزينة بالفضة والذهب تلمع كالبدر في حالك الدجى. وعندها يتولد ويتضخم الصوت الحاد غير المرتفع الشبيه بهسيس شجرة يابسة محترقة. إنه صليل العديد من السيوف التي تتضارب بعضها ببعض. وهي علامة التحية والتبجيل بحق الحاكم الحكيم والعاذل. ويمر الأمير سعود بصحبة رجال حاشيته وكاتبه عبر الممر الحي المتكوّن من صفوف الحاضرين. وأخذ يحيي الناس الذين يحيونه ويرد عليهم التحية. ويسكن الضجيج ويجلس الجميع مستقرين في جلستهم ويسود الصمت المطبق. وتهياً الناس للاستماع والإنصات بخشوع إلى كلام الله تعالى...

وتنتهي الدروس الدينية. ويتبادل الأمير سعود لبعض الوقت أطراف الحديث مع الوجهاء وعلماء الدين، ومن ثم ينهض ويدخل إلى إحدى الصالات القريبة لاستقبال أصحاب المظالم والشكاوى وطالبي الحاجات وليستمع إلى مطالبهم حتى ترتفع الشمس عالياً تماماً في السماء ويحين موعد استراحة القيلولة

في وقت الظهيرة.

وأحب الإشارة إلى أن هذا التقليد الوارد من أعماق القرون وهو إتاحة الفرصة لكل فرد من الرعية أن يبوح بما في نفسه مستمر في المملكة إلى الوقت الراهن كذلك. وأي سعودي بوسعه أن يأتي إلى مليكه ويرفع إليه الشكوى من الظلم والإجحاف أو يطلب شيئاً ما. وأؤكد لكم أن طلبه سوف ينظر فيه ويبت. ولقد لاحظت مراراً هذا في شاشة التلفاز. وذات مرة ولدت إحدى معاريفي - وهي روسية زوجة سوري متخصص لا يعد فقيراً - طفلاً الثالث بعيب كبير جداً في القلب وحرر زوجها رسالة إلى الملك فهد يطلب مساعدة مادية. وأجريت للوليد عملية جراحية بالغة التعقيد في أحسن مستشفى خصوصي في الرياض، وقد دفع تكاليفها العاهل السعودي.

وها نحن نخرج من ظل أنقاض قصر سلوى وسرعان ما نجد أنفسنا قرب بناية وحيدة الطابق. جدارها الأمامي متهدم ويشاهد جيداً عدد من الحجرات تشبه أركان مستودع، وهذه هي بناية خزانة الدولة. وكانت تحفظ هنا الممتلكات القيمة التي تم الاستيلاء والاستحواذ عليها إبان المغازي الموفقة وما يطلق عليه تسمية «الزكاة»، وهي النسبة المعينة من مداخيل المواطنين

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والتي تجمع لصالح الدولة. ويفيد المؤرخ النجدي ابن بشر أنه كانت ترسل سنوياً من الدرعية كتائب جامعي الزكاة المسلحين إلى مختلف أنحاء البلاد وأرجائها.

وغير بعيد على الجهة اليمنى من الطريق يقوم مبنى جرى ترميمه ليكون مسجداً. ونتطلع إلى الأمام فنرى باحة رحبية قسمها الأكبر مغطى بسقف، وهو مصنوع من جذوع النخيل وسعفه ويقوم معتمداً على عشرة أعمدة، وفي وسط الجدار باتجاه القبلة المحراب. وليس ثمة المنارة المعروفة لدى الجميع وكل ما ينبئ ويدل عليها هو بناء غير كبير على السطح يشبه برجاً ضيقاً مربع الشكل. وهو بناء تراثي لم يتغير إلى أيامنا الحاضرة. كل ما في الأمر هو أن بيوت الله توسعت كثيراً من حيث الأحجام وصارت تستخدم في بنائها وتكسيته مواد إنشائية أعلى بكثير. وأخذت تشهق سامقة نحو السماء منارات فخمة بأمتار عديدة طولاً ومزدانة بشرفات دائرية مخرمة.

ونحن نزور الدرعية عادة في فصل الشتاء ولكن حتى في هذه الشهور من السنة تكون الشمس هنا تشوي الجلد والوجوه بما فيه الكفاية من القوة والشدة في أيام الصحو (وهي وفقاً لحساباتي لا تقل عن ٣٤٥ يوماً في السنة). نغطي رؤوسنا بالقبعات ونلج

إلى الأزقة الضيقة للأحياء السكنية. ويقفز أطفال العاملين في سفارتنا وهم يطلقون صرخات الفرحة ليغطسوا في عتمة الدهاليز التي تلي الأبواب. وتتبعهم أمهاتهم وكل الأخريات. وهنا لا يخلو الأمر من خطر، إذ ليس كل شيء بعد قد رتب على ما ينبغي وأصلح فساداً تماماً ويمكن أن ينهار جزء ما ويسقط على الرؤوس أو يتساقط عند الأقدام. ولكن الأمر طريف جداً بحيث ينسي الخطر ويصرف عن التفكير فيه. الحجر الصغيرة بلا نوافذ وغير مفهوم لماذا صنعت. وسقوف نصف منهارة تتدلى منها بعض السعفات اليابسة والأعمدة الخشبية المتآكلة. وعلى أثر الأطفال نرتقي بصعوبة على السلم الضيق بدرجاته المهترئة إلى سطح السقف وبحذر، خشية السقوط نتقدم متوجسين نحو الحاجز... نتجمد من الدهشة. تنفسح أمام أنظارنا على الهضبة الصخرية المحاطة بالمرج الأخضر لغابة النخيل مدينة من البيوت الطينية المتكونة من بنايات صغيرة وحيدة الطابق، وترتفع هنا وهناك قصور شامخة وسامقة. ويخيل للمرء وكأنما صنع عملاق ما هذه البيوت الصغيرة من الطين ورصها في صفوف وكأنما هي بالضبط علب فارغة بجوار بعضها بعضاً، إلا أنه لم يشأ أن يضع لها سقوفاً، وذلك لأنه أراد

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

فيما بعد في ساعات الفراغ التطلع من فوق ليشاهد كيف يعيش سكانها وما الذي يفعلونه.

نخرج ونحن مأخوذون مدهوشون من البيت المهجور لكي ندخل إلى بيت مهجور آخر وبعده الثالث فالرابع... ونكتشف متعجبين أنه في بعضها عاش إلى مدة قريبة سابقة أناس، فالجدران مطلية بالصباغ الأبيض. والنوافذ محزوزة ومزججة. وهنا وهناك ترى قطعاً معلقة مقصوفة من الأسلاك الكهربائية. ولكن في خاتمة المطاف وصلنا إلى ميدان المدينة المركزي، وهنا ترتفع شامخة بعض القصور بعد ترميمها وبعض المباني العامة. وبجهد خفيف أسترجع في ذاكرتي مقطعاً من إفادة شاهد العيان حين يقول: «لقد وقعت عيني في الدرعية على ثروات كبيرة والكثير من البشر والأسلحة المزينة بالذهب والفضة مما ليس له مثل ونظير، وخيول كريمة أصيلة، وإبل عمانية، وملابس ثمينة، وسواها من علامات الازدهار الأخرى التي تستعصي على الوصف والعد. ولاحظت ذات مرة في الميدان سوقاً لبيع ذهب وفضة وأسلحة وإبل وغنم ومعز. ويجري البيع والشراء، فترى من يأخذ ومن يعطي ولا تسمع سوى ترداد كلمتين هما: «بعت»، «اشتريت».

واجتذبت أنظارنا في الميدان أكثر من أي شيء آخر بنائية ضخمة شاهقة عند المنحدر الحاد أقيمت أيام حكم سعود الكبير أو ابنه عبد الله وهي دار الضيافة. وبين هذه المباني التائهة وسط صحراء الجزيرة العربية في أول بداية القرن التاسع عشر كان يقوم فندق! ولعلنا نستطيع أن نطلق عليه تسمية على غرار الفنادق العصرية، إذ قبل هذا كان كبار الضيوف يستقبلون وينزلون في القصور أو البيوت الخصوصية. والفندق مقسم في الداخل إلى عدة غرف فسيحة للاستراحة، وثمة قاعة اجتماعات مزينة الجدران بالزخارف والنقوش، وهذا حمام ملحق مباشرة بدار الضيافة.

وأتذكر كيف أننا جئنا إلى هنا قبل عامين في جولة سياحية. وعندئذ كانت هذه البناية مجرد أنقاض يتجمع حولها عمال البناء. وفي الساحة الواقعة أمام البناية كانت تجفف صفوف مستوية من البلاطات الطينية. وكان من العسير تصور ما الذي سيحصل في النهاية بنتيجة أعمال الترميم. والآن أصبح كل شيء في موضعه؛ الحمام مشيد حسب آخر صيحة في عالم التقنية آنذاك، وهو يتألف من عدة أقسام: منزع للملابس فسيح رحيب مع الروازين والدكك وحجرة الابتعاد مع بركة صغيرة وأخرى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ساخنة سقفها على هيئة قبة، وموقد بثلاثة حيطان (ويمكن مشاهدة حمامات كهذه اليوم في بعض القرى الأذربيجانية). وكان الماء ينقل إلى الأعلى على ظهور البغال من البئر الواقعة على عمق ثلاثين متراً في مرج الوادي. وكان الماء يجري بعد استعماله في أنابيب خاصة مدفونة تحت سطح الأرض ومخفية في أسس الجدران.

وجولتنا مستمرة ونحن نشاهد أكثر من عشرة قصور لها أسماءها وبضع منها بلا أسماء. وقد أعيد إنشاء دار ومسجد ابنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والقصر الباقي بهيئة حسنة لحجار أي حفار الصخر والحجر (وأنا لم أخطئ التسمية ولم أقع في زلة لسان فهذا هو اسمه في الكتالوج. وفي تلك الآونة كان قطاع الحجر من أكثر الصناعيين احتراماً وتبجيلاً وتقديراً، وكان من حقهم أن تكون لهم مساكن على هذا النحو من الفخامة). والبيت مشيد في واقع الأمر بمنتهى الجودة. والجدران الأربعة وكذلك السقف مقوّة بالصفائح والبلاطات الحجرية والجص والأثلاث. أما التزيينات الداخلية فهي الزخارف النمطية المعتادة. وهذا البيت كان عائداً على الأرجح إلى رئيس الحجارين لا إلى عامل عادي.

وبعد هذا يمتد القسم الغربي من الطريق الذي كان عرضة أكثر من سواه للتخريب والتعمير. والمرجح أنه لن يحظى مطلقاً بالترميم، بل سيحافظ عليه وهو في الهيئة الراهنة بوصفه شاهداً تاريخياً لا يدحض على ميل الإنسان في بعض الأحيان إلى الحروب ودمارها وشرورها.

وأخيراً نمر على الإصطبل ونسير بمحاذاة سور المدينة ونصعد إلى أحد أبراج الحراسة، وينفصح من هناك منظر رائع على الضواحي الدانية والقاصية يلفها ضباب خفيف. ومن هذا الارتفاع يمكن أن يرى كذلك على حافة الوادي المقابلة لمسجد الشيخ محمد بن عبدالوهاب المعاد تشييده مجدداً وموضع المسجد الذي نزل به الخراب. وهنا كان الشيخ يسعى مع تلامذته وأتباعه بتحقيق الأخوة الإسلامية المثالية والحققة.

وإلى هنا تختتم جولتنا السياحية. فقد أخذت ظلال الأشخاص والأشياء تطول وتطول على قدر دنو قرص الشمس من موضع الغروب، وقد أخذ التعب منا مأخذه ولكننا راضون عن أنفسنا ونجد راحة النفس في تعب الجسم بعد كل هذه المشاهدات التي لا تنسى ولا تمحى. وها نحن نفكر في العودة إلى بداية الدرب الذي قطعناه. والحافلة بعد اجتياز القنطرة. وألقي آخر نظرة

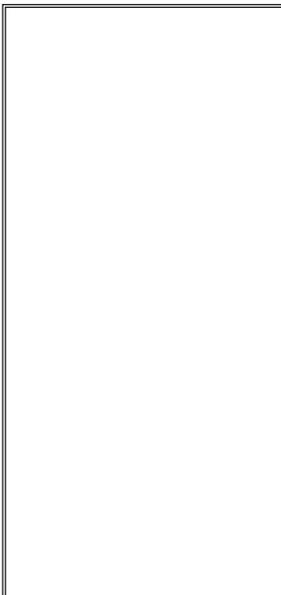
المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

على مدينة البيوت الطينية. وأخذت الشمس المنخفضة تصبغ بلون الذهب فجوات النقوش التي تطرز من الأعلى جدران البيوت، التي أصبحت من هذا البعد السحيق وكأنها بيوت الألعاب بحجومها المصغرة. وهي تذكرني لسبب ما بالصفائح الجميلة لقطع البسكويت الجاف، ربما لما يجمع بينهما من التنقيش والزخرفة والنهايات المتموجة والمسننة.

إلى اللقاء يا درعية، وسوف نرجع إلى هنا مرة أخرى ونعود إليك في رحلة أخرى والعود أحمد. وستبقى هذه المستوطنات العريقة مرسومة في ذاكرتي على مر الزمان، وكذلك مطبوعة في عشرات الصور الفوتوغرافية التي تسجل انطباعات أقرب الناس إلى نفسي على خلفية أنقاض الدرعية، وأيضاً في اللوحة الزيتية التي كنت قد رسمتها ذات مرة لهذه المدينة معتمدة على الانطباعات الطرية المتحولة على ورقة الرسم إلى ألوان زاهية وعواطف جياشة وباهية.

العادات والتقاليد



إن نمط الحياة البدوي أو بعبارة أخرى نمط الحياة في الجزيرة العربية قد تغيرَ دونما شك أو ريب تحت تأثير زخم الضغط الناجم عن الثروة التي انهالت بالمعنى الحرفي لهذا التعبير على رأس البلاد وكل ما كان نتيجة لذلك، إلا أن ذلك النمط لم ينسجم ولم يتوحد تحت المقاييس الأوروبية، وقد صار ذلك ممكناً بفضل الدين وكون المتراكم المترسب من المعارف والتقاليد والعادات لم يجد متسعاً من الوقت يكفي لكي يختفي من الذاكرة الشعبية في ظرف مثل هذه الحقبة القصيرة من الزمن. والمجتمع السعودي الحالي الذي وجد نفسه في ظروف اجتماعية - اقتصادية مغايرة تماماً يعيش وفقاً لخبرته التاريخية وطبقاً لقوانين الإسلام.

وعلى الرغم من أن سكان المدن جميعهم يعيشون في بيوت حجرية وأجرية، فإن الكثيرين منهم لم ينسوا قوانين الخيمة. ففي البيوت لابد من وجود غرفتين للضيافة للرجال وللنساء

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

كل على حدة. والضيوف غير القريبين جداً إلى أصحاب الدار يقابلون من الزوجين كليهما، علماً بأن الزوجة تفعل ذلك ووجهها مستور بنقاب الحجاب، وهي تصاحب النساء إلى نصف الدار المخصص لهن. أما الآخرون فيأخذهم الزوج إلى غرفة الضيافة الرسمية، حيث يستقبل في وقت آخر على ندرة العاملين معه والأصدقاء والأقرباء بغية مناقشة المشكلات الناجمة في بلاده الواسعة الشاسعة. وفي صالتي الاستقبال كليهما يخدم الضيوف خدم من الجنس نفسه. والسعوديون المعاصرون شأن أجدادهم مضيافون جداً. والضيف أياً كان يستقبل بكامل الترحيب والتأهيل. ولا شيء ينبغي أن يسبب له أي قلق أو انزعاج أو إرهاق، ولهذا فإن الأطفال في يوم الاستقبال الكبير يرسلون إلى الأقرباء أو ينقلون إلى غرفة نائية حيث يمضون الوقت مع أحد ما من البالغين دون السماح لهم بإحداث شغب أو لغط أو ضجيج ولا حتى التكلم بصوت مرتفع. وإبان الأعوام الأولى من إقامتي في الرياض كنت أستغرب دوماً جراء غياب ما هو مألوف لدينا عادة من عبث الأطفال ولعبهم وكذلك نباح الكلاب. والكلاب غير موجودة في المدينة أصلاً. وبوجه عام فإن الأطفال السعوديين يبلغون سن الرشد مبكراً

وهم حسنو التربية وهادئون ويبدون الاحترام الكبير والتوقير وحتى الطاعة والامتثال في حضرة الكبار.

وتقدم إلى الضيوف القهوة البدوية والشاي. وإذا كانت الأولى أي القهوة يملأ بها جزء صغير من فنجانها فإن الشاي على العكس ينبغي أن يكون كوبه مملوءاً حتى الحواف وإلا فإن الضيف قد يعد هذا بمثابة عدم رغبة صاحب الدار في رؤيته ضيفاً عليه في منزله. وعموماً يحاول السعوديون بحرص ألا يخلقوا أبداً وعلى الإطلاق أية حالات نزاعية يمكن أن تفضي إلى فضيحة وضجة أو زعقات أو - لا سمح الله - إلى شجار وعراك. وهم هادئو الطبع طيبو النفس حليمون وقورون، إلا أن ذلك لا يعني أنهم ليسوا انفعاليين ومرهفي المشاعر. فالاعتداد بالنفس لا يسمح لهم بالتصرف على مثل هذا النحو، مع أنهم، وبالأخص نسوتهم، يستخدمون بنجاح لغة الاستعارات والمجاز والكنائيات والرموز، وهي التي كان يتقنها أيضاً أسلافهم. فمثلاً إذا دخلت الدار امرأة مولعة بالنميمة والوشايات فإن ربة البيت تضع بالتأكيد قريباً من هاوية الثرثرة وصاحبة اللسان الطويل الحمل المشوي التقليدي ولكن مع رأسه وهو أمر ليس طيباً على النفس، وعلاوة على ذلك فإنه مقطوع اللسان. والضيفات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

جميعهن سيفهمن دونما ريب هذا التلميح الشفاف الذي يكاد يكون قريباً من التصريح. وهذا التقليد يستخدم في المدن غير الكبيرة، حتى في الرياض يعرفه النساء ويحاولن العزوف عن إثارة السوابق والحوادث.

وفي بعض الأسر في المملكة العربية السعودية لا يزال مقبولاً تناول الطعام متحلقين حول السفرة أو الصينية أو القصة على الأرضية مباشرة؛ يفرش سباط طويل وتوضع عليه صينيات كبيرة مشتركة، ويجلس حول المائدة الأرضية في حلقة والأرجل تحت في جلسة تربع أو ركبة ونصف. ولدى ذلك يعد مخالفاً للآداب على وجه الإطلاق الكشف عن الأقدام العارية (وجميع نساء البيت يتركن الأحذية عند المدخل إلى الغرفة).

كنا ذات مرة أنا وزوجي ضيفين في قصر في العاصمة على أحد الأمراء وكان مفروشاً بأحدث وأفخر الأثاث العصري النفيس وانتشرت حولنا أندر الأدوات العريقة كديكورات. وكانت جدران الصالات مزدانة بلوحات فنية من معروضات المتاحف داخل إطارات غالية الثمن وبجوارها النسيج المشجر بالطرائق والأساليب الفنية. وقدم الأطقمة خدم في منتهى الأناقة واضعين بحذق ومهارة أشهى المأكولات وأندر أنواع الطعام في صحون

من الفرفور الرقيق شبه الشفاف والمشيفة الحواشي بخطوط دقيقة ورقيقة كالخيوط في زخارف شرقية عربية الروح. وفي وسط المائدة على مفرش حريري من الإستبرق السندسي مطرز الحواشي بالتوشية الأخاذة كرسوم لزهور الخزامى والقرنفل والورود. وتلاعب بريق الثريات البلورية على كريستال الأقداح والعديد من الملاعق والشوكات ولوازم المائدة. وقد أدارت الرؤوس النكهة العاطرة للروائح الناعمة. والتهمت الأخشاب ومعها الصندل والمنديل في وجاق الموقد المرصع بالعقيق اليماني والجزع الخرزى، إذ كان الربيع المبكر في ذلك العام ممطراً باعثاً على رعشة البرد. كان الطعام ممتازاً وكان اللون لذيد الطعم منه يحل محل آخر مثله أو ألد طعماً.

وكانت مواضيع المحاورات والمسامرات طريفة وشيقة، ولهذا بقيت تلك الأمسية والسهرة في الذاكرة بقاء المنظر الطبيعي الأخاذ والمشهد المسرحي البديع. وعقب مرور بعض الوقت وجه رب الدار المضياف نفسه إلينا الدعوة لنزور بيته الريفي ودارته خارج المدينة. وأقول بصراحة صادقة: إنني شعرت بالحرج بصد اختيار بدلتى ونوعية زينتي، فمن ناحية ستكون رحلة النزهة جولة في الصحراء، ومن الناحية الأخرى سنذهب على

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أية حال إلى قصر. وفي خاتمة المطاف ونهاية النهايات استطعت التوصل إلى اتخاذ قرار وسطي وانتعلت حذاء متوسط الكعب. ظهر أن دائرة الأمير كانت واحة حقيقية في وسط بيداء الرمال المنبسطة على مد البصر. كان القصر لا يكاد يرى وهو غارق في أجمة الأشجار. وكان الجو مفعماً بنكهة رائحة قوية ثقيلة منبعثة من أشجار الليمون المزهرة، وكذلك أشجار الحمضيات والموايح الأخرى، والفراشات المبرقشة ذوات الأجنحة الرقيقة بألوانها الزاهية وأشكالها الباهية ترفرف بأجنتها وهي واقفة على البتلات السميكة للزهور الناصعة كبياض الثلج.

وطلب الضيف من زوجي اصطحابه إلى مبنى زجاجي كالناقوس شبيه بالحديقة المزججة. أما أنا فدعيت إلى الدخول إلى المنزل برفقة النسوة. في المكان الرحب جلست على الأرضية مباشرة أكثر من عشر نساء، وهن جميعهن مرتديات قمصاناً طويلة مبرقشة الألوان ومطرزة بخيوط حريرية من الإبريسم الذهبي. وهن متشابهاً لا يختلفن بشيء عن بعضهن بعضاً، بحيث إنني لم أستطع أن أعرف من هي زوجة الأمير بينهن إلا عندما تقدمت نحوي مرحبة بي وموجهة تحية المضيئة إلى الضيفة. وأظن أنني لو كنت قد التقيت بها في مكان آخر لما

كنت لأعرفها بالمرة. إنها كانت امرأة بسيطة عادية في فستان منزلي، ورأسها مشدود بعصابة منديلية. وليست تماماً تلك الحسنة الرائعة الفخورة بنفسها المتزينة بالمجوهرات التي تساوي قيمتها الملايين والتي كانت قد استقبلتنا في قصرها في الرياض. وعرفت فيما بعد أن النساء دائماً في حضور الأقدم منهن، مثل: أخوات الأزواج والحماوات يعصبن رؤوسهن بالمناديل ساترات شعرهن كدلالة على الاحترام والتوقير. وهذا يشمل الأميرات أيضاً وحتى المتوججات أي صاحبات السمو عقيلات الملوك السعوديين.

وأجلستني ربة «الكوخ الريفي» بين قريباتها. ولكنها لم تعتمد إلى تعريفي بهن واحدة فواحدة وتعريفهن بي. وهن بالطبع كن عارفات بمن جاء إلى ضيافتهن. أما أنا فإني حسب آدابهن - على الأرجح - ليس من المحتوم تماماً أن أعرف اسم كل واحدة منهن. وفي البداية ارتشفنا فناجين القهوة، ومن ثم توزعنا على الأرضية حول مفرش من قماش قطني. وجلبت الخادومات الخضار والفواكه والألبان والمشروبات الحلوة والمرطبات والأرغفة وثلاث قصعات كبيرة ترتفع عليها أكوام من الرز الساخن الداخن والمحلى بالزعفران وضع عليه حملان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

مشويان. وهذه هي الأكلة العربية التقليدية، إذ هي تطهى كاملة في أفران كبيرة. وانتزعت كل واحدة من النسوة بأصابع كف اليد اليمنى قطعة من لحم الضأن وكورتها بحذق مع قبضة من الرز ودستها في فمها. وكن يتحدثن بصخب ومرح ولم يخرجهن بوجود غريبة عنهن. وعرفت بعدئذ أن السكوت أثناء الأكل وحول المائدة يعد مخالفاً للسلوك المطلوب، ودليلاً على سوء التصرف. وينبغي على المضيفين والمضيفات محاولة تسلية من في الضيافة. وأولئك بدورهم يستحسن منهم الإدلاء بأخبار طريفة وشيقة. ويزور السعوديون بعضهم بعضاً كل يوم تقريباً ولكن بدون هدايا. وربما لهذا السبب أثارت دهشة النساء واستغرابهن العلبة الضخمة الحاوية على الحلويات الشيكولاتية وباقة الأزهار اللتان حملتاها معنا وقدمناهما إليهن. وفي الوسط البدوي يعد خير الهدايا دوماً حبوب البن غير المحمصه وحببات الهيل والتمور.

وملابس السعوديين (الرجال) كذلك لم تطراً عليها تقريباً أية تغييرات خلال القرون الأخيرة، ربما باستثناء نوعية الأقمشة. بيد أنهم يرتدون عادة وهم في الخارج البدلات الأوروبية. وألبسة السعوديين اليومية هي الدشداشة، وهي ثوب طويل من قماش

أبيض قطني رقيق. وخلال شهور البرد يستعاض عنه بقماش أسمك غامق الألوان. على الرغم من أن ذلك من الندرة بمكان، إذ إن سكان المدن يمضون القسم الأكبر من أوقاتهم في غرف مكيفة الهواء بدرجة الحرارة المطلوبة أو داخل سياراتهم. أما الحرارة اليومية فإن درجتها أثناء النهار في فصل الشتاء من النادر أن تهبط دون الدرجة ١٦ مئوية. بالطبع في حالة هبوب رياح باردة مع المطر يضع السعودي على كتفيه قطعة ملابسه الخارجية التي تسمى بالمشلاق، وهي معطف واسع بدون أكمام منسوج من غزول وبر الإبل أو صوف الغنم الناعم على جميع الألوان من الأصفر الفاتح إلى الأسود تقريباً. وهو مطرز في كل حواشي حافته الأمامية عادة بحاشية من التوشية الذهبية (الإبريسم). والآن يصنع المشلاق من القماش الصوفي المستورد عالي النوعية. وفي الحالات الاحتفالية يطرح فوق الدشداشة على الكتفين مشلاق نصف شفاف مع توشية ذهبية للحاشية بالإبريسم أيضاً. ولم يستطع زوجي الصمود بوجهه رغبته في اقتناء مثل هذا المعطف الأصفر الفاقع. وأنا رسمته في لوحة بورتريه بالزيت وهو في هذا الزي. ويفضل السعودي من الأحذية النعال الجلدية مع عقدة للأصبع الكبيرة من القدم،

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ولكنه في مكتب العمل ينتعل (وليس الجميع) الأحذية العادية، ويعتمر على رأسه بالغترة وتحتها ما يشبه الكوفية على الرأس وفوقها العقال. والكوفية يمكن أن تكون بيضاء أو مرقطة بقطع حمراء كلوحة الشطرنج. ومعظم العرب يفضلون اللون الأبيض، ولكن كبار السن يرتدون المرقطة. يعتمر مناديل على هذا اللون والشكل أيضاً رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن بدون العقال.

أما تاريخ ظهور هذا الجزء من الزي الرجالي فهو كما نعرف أن القوافل العديدة ظلت على مدى مئات السنين تجوب رمال الجزيرة العربية التي لا تحدها حدود. وكانت تسير لساعات طوال ثم تتوقف لكي تستريح الإبل المتعبة. وليس نادراً أن تبيت في بطن الصحراء. ولئلا تنطلق الإبل بعيداً جداً في البحث عن الماء والطعام فتضل وتشرذم، كان رجال القافلة يشدون ركبة البعير بهذا العقال وهو الحبل المطوي. وعندما كانوا يتابعون طريقهم الطويل كانوا يثنون الحبل ويشدون على رؤوسهم فوق الغترة لكي يكون في متناول اليد على قرب عند الحاجة إليه ولا يفقد أو يطول البحث عنه، أو ربما كان الشماع يستخدم ضد الشمس الحارقة أو على العكس الريح الباردة.

والشماغ يطوى بالنصف ويوضع على الرأس ويشد بالعقال. وعلى الجبين يبدو مثل الغطاء الساتر. والسعوديون يتخذون موقف الاهتمام الكبير والعناية الزائدة حيال غطاء رأسهم، ويحرصون على أن تكون الفترة دوماً في وسط الجبين. وهم عموماً مدققون جداً ويعدون الملابس مما ينبغي الحرص على ضبطه وربطه.

وأيدي السعوديين المعاصرين إن لم تمسك بمقود السيارة أو الهاتف السيار (المحمول) أو قلم الحبر فإنها تلعب حتماً بحبات المسبحة (السبحة)، وهي الأداة المبتكرة وتباع في مخازن المبيعات جميعها، حتى تباع الأظعمة والأغذية منها وبالطبع في المخازن والدكاكين الخاصة بها. وهي تصنع من مختلف المواد الرخيصة من لدائن جيدة النوعية والأغلى من الأحجار المصقولة واللؤلؤ والصدف والمرجان والأنواع النادرة من الخشب الفواح بالنكهة الطيبة. وفي سوق الذهب يمكن شراء المسبحة المصنوعة من الفضة وحتى الذهبية. والمسبحات اللماعة والمبرقشة وبالألوان المتواضعة بحبات وشواهد من الحجر والخشب أو المعدن تتألف من ۳۳ حبة صغيرة أو كبيرة مقسمة إلى ثلاث مجموعات تضم كل واحد منها ۱۱ حبة من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

القطع المسطحة أو الكريات المعدنية. وهي تستعمل ليس فقط وليس بالدرجة الأولى لتلھية اليد، بل إن الغرض الرئيس هو أنها بعد الصلاة الواجبة يحسب بها العدد المعين من تكرار التسبيح لله دون انشغال البال بالتعداد والحساب مع احتمال تكرار الوقوع في الغلط والغلط. وقد أعجبتني كثيراً هذه الأشياء اللطيفة منذ أول زيارة إلى مصر. ومنذ تلك الأعوام البعيدة في الستينيات صرت أجمع نماذج فنية منها. واليوم لدي أكثر من ثلاثمائة مسبحة وهذه هي إحدى أفضل مجامعي.

والنساء السعوديات عندما يخرجن من البيوت يرتدين العباءات، وهي رداء أسود فضفاض بكمين أو بدونهما، ولكن المهم أن تستر الجسم كله من قمة الرأس حتى القدمين. ويمكن خياطة العباءة أيضاً من لون قاتم آخر ولكن الذي يباع منها أسود اللون فحسب. مع العلم أن تحتها على الجسم فساتين من أزهى الألوان والأزياء المزينة بالخرز والتوشية واللماعيات. ومعظم نساء المدن يرتدين ملابس وفقاً لآخر صيحات الموضة الأوروبية، ومما يسهل ذلك أن المدن فيها فروع ومخازن مبيعات لأشهر دور الموضة العالمية، ثم إن الأقمشة الممتازة متوافرة بغزارة. وأثناء إقامتنا في البلاد طرأت على العباءات تغيرات

وتطورات كبيرة، وتحولت من أشباه أكياس متشابهة وبسيطة إلى أردية جميلة موشاة بالخیوط والخرز وبعض المخمرات وقطع الزينة والتجملات الثابتة. وقد اشترت بنتنا الحريصة على اتباع الموضة لنفسها واحدة من هذا الزي وأخذته معها إلى ألمانيا.

وشعر السعوديات يخفى تحت منديل، والوجه تحت نقاب أسود، ويستخدم تحته أحياناً البرقع، وهو قطعة من القماش مع ثقبين للعينين. وفي أمكنة ما من المناطق الشرقية من المملكة العربية السعودية تنتشر أفتنة جلدية سميكة مزينة بالصبغة الذهبية، وهي تخفي الجبين والأنف والجزء الأسفل من الوجه وتبدو وكأنها مصنوعة من النحاس. وفي رأيي أنها بعيدة جداً عن الراحة في الاستعمال. وتحمل أمثال هذه الأفتنة النساء الريفيات في البلدين المجاورين: البحرين وقطر.

والحجاب أمر من الله عن طريق النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ بأن تخفي النساء شعورهن وأجسادهن من قمة الرأس حتى أخمص القدمين بثوب مريح يتيح الحرية في المشي والتحرك. وكذلك إذا كانت المرأة باهرة الجمال أو تستخدم مواد التزيين فعليها أن تخفي وجهها أيضاً. وعلى النساء ألا

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بيدين زينتهن إلا لبعولتهن، وأن يقرن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. والعباءة مكيفة للمرأة بحيث تكون إحدى يديها حرة لكي تمسك بالذيال الواسع ورفعها بالعرض عند الصعود والنزول. ولكن مع مرور الزمن اكتشفت غير قليل من المزايا في هذا النوع من اللباس. فعندما تتهيأين للذهاب إلى مخزن مبيعات أو ما أشبهه من المؤسسات والدوائر فليس عليك بذل العناية الكبيرة والجهد الكبير في اختيار ملابسك المناسبة. وكل ما في الأمر هو أن تلقي عليك العباءة وتخرجين. وفي فصل الشتاء لا حاجة لك إلى ارتداء معطف أو مقصلة، إذ تتوب عنهما أيضاً تلك العباءة نفسها. أما الوجه المستور فإنه يضمن لك عدم معرفة الآخرين لشخصيتك بالتمام والكمال، فأنت ترين الجميع ولكن لا يرى أحد وجهك ولا يعرفك. وتعد السعوديات أن العباءة والنقاب يحميان المرأة من الوشائيات وتحرشات الرجال الملحة.

وتبدأ الصبايا بارتداء العباءة من سن ١٠ - ١٢ سنة منذ لحظة البلوغ. وفي البداية ظننت أنهن ينبغي أن يحاولن التسوية في ذلك ما أمكن إلى أبعد موعد، إذ إن الصغار كثيرو التحرك ولا يعجبهم كل ما يعوق هذه التحركات. ولكنني لم أكن محقة فهن

- على العكس - يحلمن بسرعة حلول الوقت حين يتعين عليهن ارتداء هذه الأثواب الخارجية مثل فتياتنا اللاتي يتعجلن البدء بارتداء بعض القطع من الملابس الداخلية على الرغم من كونها ليست مريحة كثيراً لمجرد الشعور بأنهن قد أصبحن بالغات سن الرشد. وفي ميادين المتزهات يمكن رؤية مثل هذه اللوحة النمطية: صبية مرحة لا تزال في مرحلة الطفولة تقريباً وهي تتزلق على الحذاء ذي العجلات وعباءتها ترفرف في الهواء! ومعظم السعوديات يستعملن مواد التجميل. إما الحناء السوداء أو الحمراء والتي تسمى الخضاب. يستعملها حتى الرجال الذين يزينون بها الشعر والشوارب واللحي. والحناء تساعد ضد الصداع. وهي تنتج من براعم شجيرة استوائية وأوراقها منتشرة في الأنحاء الجنوبية من أراضي المملكة العربية السعودية. والنساء المسنات يصبغن شعرهن وأقدامهن وراحت أكفهن. أما الشابات فأيضاً أظافرهن وأكفهن. وثمة صائغات ماهرات يصنعن بواسطتها ما يشبه القفازات المخرمة الجميلة. وفي الأسر الثرية يتولى هذا العمل عادة الخادמות. ولكن خلال الآونة الأخيرة من الأعوام أصبحت تستخدم على نحو واسع القوالب الخاصة التي لا تتطلب جهداً بالغاً وتؤدي إلى المطلوب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بيسر وسهولة. والليلة السابقة لليلة الزفاف تدعى «ليلة الحنة»، وتقضيها العروس مع صويحباتها وقريباتها يصبغن شعرهن ومواضع بعينها من أجسادهن بالحناء ويمضين الساعات الطوال جالسات في انتظار إتمامها متكئات على الوسائد. والحناء من أنواع الألوان الفاتحة تستعمل في تزيين الأيدي بالنقوش والرسوم تحلل في الماء الساخن والنوع الساطع منها الغامق في شراب القهوة. وبعد الجفاف تمسح النقوش على اليد بزيت الزيتون لتثبيت الرسوم. وهذه القفازات غير العادية تبقى ثابتة على الأكف زهاء الأسبوعين وتمحى تدريجياً بسبب الغسل ومرور الزمن. وثمة من الهاويات من تعيد صبغ الرسوم على الدوام بجرعات جديدة من الحناء، فتبقى لدهن بشكل دائم. ويستعمل على نطاق واسع الكحل للعين، وهو مسحوق يحصل عليه من حرق المندل واللدن وبعض العناصر الأخرى غير المعروفة عندي. وهو يحفظ في أوعية معدنية أو زجاجية صغيرة خاصة ويسحب منها بواسطة عود خشبي أو نحاسي في كمية صغيرة تصبغ بها رموش الجفن من الداخل؛ ويقال: إن هذه المادة لها مفعول مطهر ونافع جداً في ظروف الشمس المشعة وتضفي على العيون بريقاً خاصاً. وهي تستعمل أيضاً حتى للأطفال. وخلال

الأونة الأخيرة صار الكحل يخلط بشمع العسل وسواه من المواد النحلية، الأمر الذي يقوي صفاته النافعة. وتصنع منه أقلام زينة خفيفة.

وحتى قبل بلوغي سن التعلم في المدرسة كنت قد عرفت أن الزيوت الطيارة ذوات النكهة والروائح الزكية والعطور استعملت في شبه الجزيرة العربية قبل عشرات القرون منذ عهد بلقيس ملكة سبأ. وقد انتقل تقليد التبخير والتعطير إلى البلاد من الهند القديمة وأندونيسيا وأراضي اليمن الحالية من حيث بدأ «درب العطور» الشهير قاطعاً الجزيرة العربية وممتداً إلى أوروبا. وأول مرة أهتم فيها بالعطور كانت أثناء إقامتي في اليمن، ولكنني قدرتها حق قدرها وأنا في المملكة العربية السعودية. قدرتها وأحببتها إلى حد الشغف.

والمواد المعطرة من اللوازم الأكيدة لحياة السعوديين اليومية، وجزء مهم من الحياة الاجتماعية. وعدا الخواص النفعية فإن لها وظائف رمزية الدلالة، فمثلاً التبخير بالعطور في ختام الدعوة إلى الوليمة أو الزيارة يمثل الإشارة إلى الضيوف بقرب انتهاء مدة الاستقبال. وأي حدث له أهميته لا بد أن يكون مصحوباً بمثل هذا التبخير والتعطير سواء أكان عرساً أم احتفالاً بولادة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

مولود أو حفلة ختان أو مجرد حلول يوم عطلة وراحة، علماً بأنه في كل مناسبة من هذه المناسبات تستخدم مواد معدة خصيصاً لكل حدث من الأحداث بعينه. وهي قطع من أعواد الأشجار أو الأخشاب المفعمة بالعصير العطر، وكذلك الكريات المصنوعة من الدقيق الفواح بالرائحة الطيبة وعصير الأشجار الخاصة والقشرة والجذر منها. وتبقى النكهة العطرة عقب التبخير في الهواء والشعر والملابس لمدة يومين إلى ثلاثة أيام.

إن الواجبات الزجاجية لمعظم مخازن المبيعات المتخصصة مشحونة بالمباخر الفرفورية والخشبية والمعدنية بالقش المحفور والمرسوم. والمئات الكثيرة من العلب الجميلة والمزهريات البلورية والأحقاق الكبيرة والضيئلة والأواني الزجاجية مملوءة بالمواد الفواحة من الجذور والأعواد والكريات والروائح والزيوت الفواحة. وجميع هذه السلع تقريباً مجلوبة من الخارج، ولهذا فإنها ليست رخيصة الأثمان. أما تلك التي من المتعارف عليه في التقاليد أن تقدم بوصفها هدايا إلى الخطيبة والعروس بمناسبة الخطبة والزواج فإنها غالية جداً. وهذه المخازن محوطة بالهالة الروائحية، وبهذا فإنها تحثك على الدخول إليها حتى لو لم تكن عازماً على شراء أي شيء من معروضاتها. وهي لا تفرغ من

الناس مطلقاً. والذكور أيضاً من مشتريها غير النادرين. وقد أصبحت الروائح في بيتنا كذلك منذ أمد بعيد جزءاً لازماً من معيشتنا. وهي تتسم بصفات علاجية، وتهيئ الجو الطيب والمزاج الرائق والحسن.

لقد كرسنا للمصوغات بضع صفحات من هذا الكتاب ولكن بما أن مؤلفته امرأة وبين قارئاته - في المستقبل، كما أتشم وأرجو - عدد غير قليل من النساء، فإنه ليس من الذنب إضافة صفحة أخرى في هذا الموضوع.

تتميز الحلي والمصوغات السعودية بالكثير من التنوع والابتكار. وهي المخرمات الدقيقة والمضفورات المختلفة والمصنوعات المسبوكات والشبكيات بالكريات والليرات الذهبية والأجراس والجلال. وتحظى بالرواج والإقبال مصوغات الفضة مع الكهرمان والفيروز (الشنذر) واللؤلؤ والعقيق والجزع والمرجان والصدف. وقد اشتهرت المصنوعات الصياغية والسلاح الأبيض في هذا الجزء من المعمورة منذ القديم، وكان لدى كل قبيلة حدادوها المحليون (القيون) والصاغة. وقد استخدموا مختلف المواد، منها: النحاس والفضة والذهب، وهي التي كما اتضح متوافرة لديهم غير بعيد. وظهر أن مناجم سليمان الحكيم

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

المعروفة تاريخياً ليست بالمرّة أسطورة من أساطير التاريخ، وقد عثر عليها عام ١٩٣٩م في أراضي المملكة العربية السعودية وبعدئذ حتى جرى التعدين منها واستخراج المعادن، ولكن في سنة ١٩٥٤م أغلقت بسبب النقص في الريعية.

وكانت العروس البدوية تتلقى بالتأكيد قلادة من المرجان وسواراً أو حزاماً من المعادن الكريمة، وكذلك قبعة شبكة من نوع خاص مصنوعة من السلاسل الفضية أو الذهبية التي تدلت حتى العاتق (ويمكن مشاهدة أمثال هذه القبعات الذهبية اليوم في الأعراس على رؤوس الأميرات الصغيرات).

هذه الحلي إما أن تباع أو يعاد صهرها، ولكن مع ذلك تباع حالياً في أسواق الذهب في المملكة العربية السعودية غير قليل من المصوغات الفضية القديمة الرائعة التي يمكن أن يكون تاريخها عائداً إلى ما يربو على الألفي عام. وتشتهر بشكل خاص الحلي البدوية في المنطقة الشرقية.

وليس نادراً أن تشاهد في القرى الجبلية والمدن غير الكبيرة في مناطق البلاد الشمالية والجنوبية - الغربية أعرابياً يعلّق خنجراً معقوف النهاية مشدوداً إلى حزام عريض تزيينه أنواط فضية. هذا خنجر متوسط الحجم تطلق عليه تسمية «الجنبية».

وشفرة الخنجر نفسها لها انحراف غير كبيرة. أما الغمد فهو بدون شك تحفة من أعمال فن الطرق المعدني. وبعض هذه الخناجر لها نهاية معقوفة بشدة وتنتهي برؤوس حادة، وفي بعض الأحيان ينتهي بحجر كريم أو جوهرة. وهذا الشكل كان مبرراً تماماً، فإن الرجل من الرحل كان يمضي كثيراً من وقته ركباً على السرج والخنجر حاد الشفرة ومستقيماً كان يمكن أن يؤذي الفارس. وحتى أعوام الخمسينيات من القرن العشرين كانت الأغلبية الساحقة من الذكور في شبه الجزيرة يحملون سلاحاً كهذا. وكان وجوده يمثل لازمة لها دلالة كبيرة الاحترام، علماً بأنه إذا كان مثل هذا الخنجر طبيعي الحجم فإن كل من يشاهده كان يفهم أن صاحبه على أهبة الاستعداد سواء للدفاع والهجوم. أما إذا كانت تتدلى من الحزام جنبية صغيرة الحجم فسيكون واضحاً أن صاحبها رجل مسالم وهو يحمله بصفة حلية، حيث السلاح زينة الرجال. ولكن مشاهدة مثل هذا السلاح الآن بغمده المرصع ممكنة فقط أثناء الاحتفالات المهمة بمراسيمها التقليدية، أو أثناء أداء الاحتفالات الجماعية الرجالية التقليدية.

تعيش المملكة العربية السعودية وفقاً للتقويم الإسلامي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الهجري، ويبدأ عداد السنين من يوم هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. والشهر هو دورة قمرية كاملة، وهي تضم ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة و٧٨،٢ ثانية أو ٣٠ يوماً. وباختصار فإن الشهر يبدأ بولادة الهلال إلى الهلال البازغ بعد المحاق في آخر الشهر. وكل ثلاثة أعوام يضاف إلى العام يوم واحد فتكون السنة كبيسة. وأتذكر كيف أنني في بداية إقامتنا في المملكة العربية السعودية كنت أتحير في معرفة السبب الذي يجعل النسوة المحليات يجدن صعوبة في التذكر عند سؤالها عن تاريخ اليوم والشهر ليوم ميلادها. ثم صار معروفاً لدي بعدئذ أنها تحوّل التاريخ من التقويم القمري إلى الشمسي .

ويحتفل في البلاد بعيدين دينيين أساسيين، هما: عيد الفطر عند انتهاء شهر الصوم رمضان، ويحتفل به لمدة ثلاثة أيام، ويرتدي الأطفال ثياباً جديدة ويشترون اللعب والحلويات. ثم عيد الأضحى وهو أربعة أيام تبدأ بيوم ذبح الأضاحي من الأغنام عند اختتام الحج وتوزع لحومها على الفقراء والأقرباء. ويجتمع أفراد الأسرة في الأعياد ويقدمون بعضهم إلى بعض هدايا العيد (العيدية).

ورمضان هو الشهر التاسع في السنة الإسلامية. وفيه أنزل

اللَّهُ مع جبريل إلى النبي الكريم ﷺ الوحي بالآية الأولى من القرآن. وفيه يلتزم المسلمون بالصوم عن الطعام والشرب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. والصوم هو أحد أركان الإسلام. غير أن الصوم ليس مجرد الامتناع عن الأكل والشرب، وإنما هو أيضاً إدامة الفكر في ذكر الخالق الباري ورسوله الكريم الأمين ﷺ، والقيام بالعمل النشيط المثمر أكثر من أي وقت آخر من السنة، وبالأخص مزاولة أعمال الخير والإحسان. وهو عبارة عن تجربة للإرادة القوية وصلابة الروح وفحص وامتحان للصفات الشخصية لكل فرد. وهو أيضاً تحقيق الرغبة في المشاطرة بالزائد من الأموال ومد يد العون بسخاء إلى من يحتاج إلى المساعدة ويستحق، كما ورد في الذكر الحكيم: **يَشْهُرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ض.**

والمؤمنين جميعهم في المملكة العربية السعودية يستقبلون كلمات الله بالفرح واتباعاً لسنة عبده ورسوله محمد ﷺ، يتمسكون بصوم الشهر وهو نافع لا بدنياً فحسب ولكن بالتغلب على الصعوبات معنوياً. يطهر الإنسان نفسه ويخلصها لعبادة ربه وإطاعة أمره. ولا يشمل الاستثناء سوى الأطفال دون سن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الخامسة عشرة والمسافرين والمرضع والحامل والمرضى. وغير المسلمين القاطنون في أراضي المملكة العربية السعودية والقادمون إليها بصورة مؤقتة يراعون عملياً التزامات الصوم وسواه من تعاليم الإسلام (على الأقل في المحال العامة بالامتناع عن الإفطار العلني). وإذا كان الشخص عاجزاً لأسباب جدية عن الصيام لبضعة أيام في غضون شهر رمضان، فإن عليه أن يعوّض عن ذلك بالصوم في أيام أخرى، أي في شهر غيره بعدئذ.

وسابقاً في شهر الصوم كانت تطلق قبل وقت الإمساك في المدن الكبرى المدفعية إشارة ليعرف الناس قرب بدء الصوم (وفي مكة والمدينة يجري ذلك حالياً). وفي القرى ومخيمات البدو كان يجري على مدى القرون تعيين هذه اللحظة بمعرفة الخيط الأسود من الخيط الأبيض، في الوقت الذي يكون فيه ذلك ليس من السهولة بمكان.

وقبيل الفجر يأكل المؤمنون ثلاث تمرات ويشربون كأساً من الماء ثم يبدأون بتناول طعامهم من مائدة خاصة هي وجبة السحور. والنوم النهاري القصير يعوض إلى درجة ما عن النقص في الرقاد الليلي. ويوم العمل يقصر رسمياً أثناء شهر الصوم. وهو كذلك يبدأ في المدارس متأخراً وينتهي مبكراً. ومعظم النسوة يرقدن في

نوم القيلولة ثم يشرعن في إعداد طعام الفطور. وفي هذه المدة تملأ الرائحة الشهية الشوارع والأزقة الخالية تماماً من الناس على الإطلاق. ويغدو ذلك امتحاناً حقيقياً صعباً في الصبر على المار النادر من عابري الطريق، وكذلك بالنسبة لمن يطبخ لنفسه. ويقترب المساء وها هو يصدح صوت المؤذن الرخيم. وسرعان ما ينضم إليه صوت المؤذن الثاني فالثالث وهكذا دواليك حتى تتحول هذه الأصوات الدانية والقاصية إلى لحن الجوقة الذي يملأ الجو وهو في غبش يتحول تدريجياً إلى عتمة. ويحل المساء بسرعة فتغرق بنايات في ظلام دامس وليل حالك. وها هي تبدأ بالظهور في الشوارع في كل مكان السيارات والناس والكل يتسارعون إلى المسجد لتأدية فريضة صلاة المغرب والابتهاج إلى الله العلي القدير وتسبيحه والحمد والشكر له وتوزيع الصدقات ثم تناول التمرات، ومن بعد هذا يبدأ تناول الوجبة بين الأهل وقضاء المساء في سرادق عند أقرب مسجد وذوق ألوان الطعام المرسله من بيوت الجيران خصيصاً، وكذلك تُقدّم المأكولات إلى عابري الطريق وغير المعروفين إلا أنهم أناس قريبون بالروح والعقيدة.

وهكذا ينتهي يوم آخر. وفي صباح الغد وقبل شروق الشمس يرتفع فوق المدن والقرى من جديد صوت الأذان. وهكذا تمضي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الأيام واحداً تلو الآخر بالصبر والتقوى والصلاة والدعاء وإنجاز أعمال الخير والإحسان وبضمنها التبرعات والزكاة، وذلك لأنه في هذا الشهر بالذات كما ورد في القرآن الكريم يكون تطهير النفس أزكى.

ومن المعروف أن الزكاة هي واحد من أركان الإسلام الخمسة. والأغلبية الساحقة من سكان المملكة العربية السعودية يرى لزاماً عليه بدون أي ضغط عليه من الخارج أفراد نسبة ٢,٥ ٪ من مدخولاته الإضافية لإعطائها إلى المحتاجين إليها أكثر من سواهم. والعامل في الشركة مثلاً إذا كان لا يعرف أحداً من الناس بهذه الصفة بوسعه تحويل تلك النقود إلى إدارة شركته، وهي ملزمة بالحرص على دفعها إلى مستحقيها وإعلام المتبرع عن شخصية المتلقين. ويجتمع أفراد أسرة صديقتي سعيدة بمن فيهم الصغار في أحد أيام شهر رمضان خلف منضدة ويضعون في مظروف أوراق النقد التي عين مقدارها أب الأسرة. ويجري هذا التدبير بشكل مرح، ويعد بمثابة العيد وتعمه البهجة. وبعدئذ توزع المظاريف على أسر السائق والحارس والفراشة (عاملة التنظيف) في المدرسة والكثيرين من سواهم. وأنا واثقة وعلى يقين بأن الوضع الإنساني لن يصبح أبداً شكلياً، وسوف يجمع دوماً مشاعر الفرائز العدائية لدى أولاد صديقتي وأحفادها، وستكون لدى

أناس الأجيال القادمة بفضل الفكرة المغروسة في الإسلام بالأخوة الشاملة والمعززة بذكريات الأطفال والوفاق البيئي الدافئ.

ونهاراً في رمضان تغلق المخازن جميعها عدا الغذائية. ولكن منذ زهاء الساعة العاشرة مساءً حتى الثانية والثالثة بعد منتصف الليل تغلي جميعها بالحركة والنشاط، وتتلاً فيها الأضواء الكهربائية وأنوار النيون. وأثناء هذا الشهر وبخاصة في أيام العيد ترتدي المدن حلة بهيجة وتجدد زيتها وتستجمع التجارة قواها وتتعش لا سيما وأنه يجري موسم التنزيلات والتخفيضات في الأسعار بالجملة. والناس يشترون أكواماً من الهدايا لأسرهم وأصدقائهم القريين. وكثير من العوائل تسافر في أيام عيد الفطر بالسيارات أو الطائرات إلى مكة، حيث يؤدي خادم الحرمين الشريفين عاهل المملكة العربية السعودية، برفقة رؤساء عدد من الدول الإسلامية العمرة. وهذا يمثل ختام الشهر المبارك رمضان. وتعيش البلاد العام بأكمله في انتظار رمضان جديد. وهذا هو أكثر الأشهر حرمة وتقديساً، وهو أحد العيدين في السنة، ولهذا يجري الاستعداد له مسبقاً وقبل مدة طويلة وتؤدي في المساجد صلاة العيد الخاصة وتنشر مقالات في الجرائد والمجلات وتلتقط الأفلام السينمائية وتعد البرامج التلفزيونية وكلها خاصة بهذا الشهر. وقد ساعفني

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الحظ بالمشاركة في مثل هذه الاحتفالات. ويبيد السعوديون اهتماماً كبيراً إزاء البلدان الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق التي لم يكونوا يعرفونها من قبل. وهم مهتمون أيضاً بالناس والخواص الطبيعية وعادات أهالي بلادنا، وبالطبع كل ما له ارتباط برمضان. وفي غضون أيام من إقامتنا في هذه البلاد عرض عدد من الأفلام عن الجمهورية الأذربيجانية. وقد تحدثت فيها عن الكيفية التي يجري بها هذا الحدث لدينا، وعرضت بعض الأكلات الأذربيجانية الأساسية التي تقدمها عادة إلى الأقرباء والأصدقاء في العيد. والسعوديون يصفون بلادهم بكلمة الجزيرة. ومثل الجزيرة المحاطة من جميع نواحيها بالماء تحمي هذه المملكة نفسها من التأثيرات الخارجية بالتمسك الشديد والتام بتقاليدها القديمة والعريقة، خشية من تغلغل عيوب الغرباء ونواقصهم، والرئيس من تلك التقاليد هو الاتباع الدقيق لكل ما يرسمه القرآن من واجبات وأخلاقيات وقواعد دينية ومدنية وسياسية وحقوقية - قانونية، وهذا هو المصحف المقدس الذي استحوذ على ألباب أبناء شعوب بأكملها وأفئدتهم، والذي بدأ نزول آياته في الوحي إلى نبي الإسلام محمد ﷺ في أيام هذا الشهر الشريف رمضان الكريم.

الحج



من المعروف أن المملكة العربية السعودية تقع في شبه الجزيرة العربية شاغلة نسبة ٨٥ ٪ من مجموع مساحة أراضيها. بيد أن السعوديين أنفسهم كثيراً ما يصفون بلادهم بالجزيرة التي تتبع بإخلاص تام كل ما جاء به القرآن الكريم وتتمسك بتقاليد العريقة وكأنما هم بذلك ينشئون ما هو بمثابة المجال بينهم وبين بقية أنحاء العالم، وبذلك يؤكدون على وضعهم الخاص. المملكة في واقع الأمر غير شبيهة في الكثير من الأمور بأية بلاد حتى من البلدان العربية، وهذا ليس بمحض صدفة، إذ نحو هذه الأرض بالذات «مكة» وهي مولد النبي محمد ﷺ تتجه خمس مرات في اليوم الوجوه وتوجه الصلوات من قبل أكثر من مليار شخص مما يملؤها بطاقة مغناطيسية للجيل المتناسك لمثل هذا العدد الكبير إلى درجة هائلة من القلوب والنفوس البشرية.

وتوصف المملكة العربية السعودية بأنها قلعة الإسلام، وليس

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ذلك لمجرد كونها تضم الحرمين الشريفين (بيت الله الحرام مع الكعبة المشرفة ومسجد الرسول ﷺ حيث ضريحه في المدينة المنورة) وسواها من الأماكن المقدسة لدى كل مسلم ومسلمة، وإنما أيضاً لأن الإسلام هنا خلافاً عن معظم البلدان الإسلامية الأخرى يشكل جزءاً لا يتجزأ عن الوعي الاجتماعي ومحور العقيدة والمصدر الوحيد للتشريع، ويؤدي وظائف التنظيم الاجتماعي والثقافي، ولهذا تعد قيادة البلاد مهمتها الأولوية صيانة العقيدة الإسلامية والشريعة وحمايتها التي هي أساس القواعد الدستورية والأخلاقية. وهذا ينطوي في ذاته بالدرجة الأولى على تحقيق رغبة الملايين العديدة من الناس التواقين إلى أداء فريضة الحج. والحج هو المراسيم المقدسة لدى كل مسلم، والحلم الذي يظل أحياناً غير متحقق ولو مرة واحدة في العمر. ويتعطشون هنا إليه وينتظرونه بلهفة ويستعدون لاستقباله كل الاستعداد، وخلال موسم الحج تفرغ المدن والقرى ليس في أراضي المملكة العربية السعودية وحدها وإنما أيضاً في العديد من البلدان الإسلامية الدانية والقصية. وينجذب الملايين من البشر إلى نقطة واحدة على سطح الكرة الأرضية. وأتصور أنه لو أن الأرض كانت سطحاً مستويماً لكانت قد مالت بتأثير مثل

هذا الميل العظيم لدى الناس الذين تجمعهم فكرة مشتركة واحدة. ومن المعروف أنه لأجل أداء الحج لا بد من مراعاة خمسة شروط رئيسة هي:

١- لا يستطيع أداء الحج إلا المسلم. وليس لأي شخص آخر أداء الحج إلا إذا اعتنق الإسلام.

٢- يجب أن يكون الحاج بالغاً وعلى وعي تام بواجباته تجاه الله والناس.

٣- يجب أن يكون طبيعياً من حيث حالته العقلية والنفسية.

٤- الصحة الجيدة كذلك شرط حتمي لأداء فريضة الحج ليتمكن اجتياز المصاعب المتوقعة جميعها أثناء رحلة الحج. وإذا كان متقدماً في السن وضعيف البدن يمكن أن يقوم بذلك نيابة عنه أحد أقربائه.

٥- يجب أن يكون حراً لا عبداً في الحقيقة والمجاز، أي ليست أمامه عقبات وظروف مانعة له من أداء الحج.

٦- أثناء الرحلة إلى مكة المكرمة لا ينبغي أن يهدد أي شيء سلامة الحاج وأمنه ولا سيما حياته وروحه. ولا يجوز إدانة الشخص الذي لم يستطع الذهاب إلى الديار المقدسة والحج إذا كان لا يأمن الخطر. وخير له في هذه الحالة أن ينتظر سنوح

فرصة أخرى مقبلة.

٧- والأمر الآخر وهو أن الحاج ينبغي أن يكون قادراً مالياً بحيث يصل إلى مكة المكرمة بسلامة وتوفيق دون أن يترك أسرته في حالة عوز وفقر وحاجة.

ما المراسيم الأساسية للحج التي ثبتها النبي محمد ﷺ أثناء حجة الوداع التي أداها في سنة ٦٣٢ ميلادية؟

أولاً وقبل كل شيء يجب على الحاج أن تكون في نفسه رغبة لا تغلب وهي الرغبة العارمة في أداء فريضة الحج والوعي بالأهمية العظمى لهذا الحدث والسعي نحو العطاء الذاتي التام.

وتساعد على الدخول في هذه الحالة الملابس النظيفة الخاصة التي تلبس على الجسم النظيف فقط. وتلك هي ملابس الإحرام المكوّنة من قطعتين من القماش الأبيض بدون خياطة تُلف إحدهما حول الردفين والأخرى تلقى على الكتفين (هذا بالنسبة إلى الرجال). ومثل هذا الرداء يذكرّ بالكفن للميت. وهذا ليس بالصدفة، إذ إن الإنسان يخرج من البيت ومن حياته العادية تاركاً كل شيء خلفه ويسعى بكل أفكاره متوجّهاً إلى الله عز وجل. وبوسع النساء أن يرتدين ملابسهن العادية ساترات

أجزاء الجسم جميعها، وعلى الرأس غطاء بالتأكيد، أما الوجوه فيمكن الكشف عنها.

وها هو الحاج في الرداء النظيف وبقلب نظيف خالص لله يدخل إلى أقدس بقاع المسلمين وهو المسجد الحرام في مكة، وهو منقطع عن كل ما هو أرضي، وفي الوقت عينه منغلق على رغبة وحيدة، هي تسبيح العلي القدير ورجاء الحصول على مباركته في الطريق المستقيم القويم.

ويسير الحاج بلا صوت على سجاجيد لا نهاية لها مفروشة على الأرضية الرخامية للمسجد الكبير شاكراً الله تعالى على تحقيق رغبته في أداء الحج. وهو كأنما يسبح دون أن يشعر بجسده بين الحشد الذي يضم الألوف المؤلفة من أمثاله غارقاً في جو المحبة الشاملة إزاء الخالق.

وها هو أمامه في وسط الساحة المربعة مكعب ضخم مكسو بغطاء أسود فاخر موشى بخيوط الذهب. إنها الكعبة، وفي ركنها الشرقي مركب في إطار فضي الحجر الأسود المقدس.

يندفع السيل المتدفق من الحجاج نحو الساحة. والعيون مشرّبة نحو الكعبة لا مزاحمة ولا ضجيج. كل شيء يجري

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بدون تبعية إلى أي شخص بحد ذاته. السيل الذي يضم الألوفا المؤلففة بوصفه شيئاً موحداً يطوف حول الكعبة بعكس حركة عقرب الساعة لكي يحس بها قريبة إلى قلبه. والكل حتى آخر فرد يردد إما بصوت خافت وإما بصوت مرتفع التلبية والدعاء وهو ينجز طوافه المقدس سبع مرات.

«لا اله إلا الله محمد رسول الله». وهذه الشهادة المختصرة بعقيدة الإسلام في عبارة عربية يعرفها كل مسلم أياً كان البلد الذي يعيش فيه.

ويتدفق السيل الذي لا ينتهي ويتدفق طائفاً حول الكعبة المقدسة متباطئاً وضاجاً عند ركنها الشرقي بقرب الحجر الأسود نفسه الذي يتسلمه الحجاج ويطبعون عليه قبلااتهم. وأنت تدرك أن هذا السلوك لا يجري بإرادة الإنسان، وإنما وفق إرادة عليا لا يمكن أن تكون إلا للخالق الباري.

وفي المسجد الحرام المقدس كثير من الأمكنة المبجلة خصوصاً، يقوم المسلمون حولها بالطواف التقليدي. ومقابل باب الكعبة تحت الناقوس الزجاجي وفي إطار رخامي وضع الحجر الذي حفظت عليه آثار أقدام النبي إبراهيم عليه السلام عندما قام إطاعة لأمر الله عز وجل مع ولده ببناء

الكعبة وتنظيفها. ومقابل الحجر الأسود تقريباً وعلى بعد ١٨ متراً عنه تقع بئر زمزم المقدسة.

إن هاجر وابنها إسماعيل اللذين تركهما النبي إبراهيم عليه السلام في وسط الصحراء بواد غير ذي زرع وقد أخذ منهما العطش مأخذه، وبحثاً عن الماء كانت المرأة ترتقي بالتناوب مرة على تل الصفا وأخرى على تل المروة راکضة سبع مرات بينهما، وفي كل مرة كان الماء يبدو لعينيها من أثر العطش في سراب خادع، ولكن جهدها كله ضاع عبثاً وسدى. وها قد تحققت المعجزة: بإرادة الله العلي القدير انبثقت تحت قدمي الوليد الصغير عين ثرة من الماء. وكذكرى لهذا يمر الحجاج بخطى سريعة سبع مرات بين ذلكما التلين اللذين مد بينهما الآن ممر مسقوف.

وهذا الطريق اليوم سهل يسير. والحاج محمي بشكل أمين من أشعة الشمس الملهبة الحارقة وتطأ قدماه أرضية رخامية صقيلة. وحتى المقعد والمعوق يمكنهما اجتياز هذا الدرب في ممر معزول مشيد خصيصاً لهذا، وبالجوار تماماً كمية لا ينضب معينها من ماء زمزم العذب والصافي كالبلور الذي يمكن لا شربه فحسب، وإنما الاغتراف منه ما شئت

لنفسك ولذويك.

وعلى أية حال ليست هذه بنزهة بسيطة بين التلين. الحاج يدعوحامداً الله وشاكراً إياه ومعرباً له عن محبته التي لاتحدها حدود، وفي الوقت نفسه يطلب المساعدة والعون والغوث كما فعلت أم إسماعيل. إنه يدرك أن العلي القدير يعرف كل ما يعلنه أو يخفيه من الرغبات ولا يمكن أن يخفى أي شيء أو يستر عن عينه التي ترى كل شيء، ولهذا فإنه يجب أن يقدم بشكل صحيح نفسه وأعماله وأن يعترف بما جناه أمام الناس وأمام الله خالقهم، وهذا يتطلب الرجولة والبسالة والعمل الكبير في ترويض النفس.

وفي اليوم التالي بعد التزود بالاحتياطي من الماء يتوجه الحجاج أجمعون من مكة المكرمة إلى منى التي ينبغي عليهم الوصول إليها عند الظهر. وبعد إقامتهم هنا الصلوات الخمس يغادرون منى عقب شروق الشمس. وفي غضون اليوم التالي يتحركون نحو جبل عرفات. وعند ظهيرة اليوم التاسع من شهر ذي الحجة عقب المبيت في الهواء الطلق تحت السماء يشرعون في النسك الأساسي للحج وهو الوقوف على صعيد عرفات الذي يستمر حتى غروب الشمس. وفي هذا الوقت

يستمتع الحجاج منصتين إلى الخطب ويؤدون الصلوات. وفي العاشر من ذي الحجة عقب صلاة الصبح يتحرك الحجاج مجدداً نحو جهة منى مع التوقف عند المزدلفة، حيث يجمعون الجمرات ويبقون للمبيت. وفي اليوم التالي بعد عودتهم إلى وادي منى يرمون الجمرات. وبعد هذا ينبغي التضحية بالأنعام وهو ما له أيضاً قصته التاريخية. عندما كان النبي إبراهيم متهيئاً وجاهزاً لذبح ولده قرباناً لله الخالق الباري الذي كافأ إبراهيم على طاعة أمر ربه وإخلاصه بالإبقاء على حياة ولده فأرسل إلى إبراهيم بدلاً منه كبش الفداء. ومنذ ذلك الحين ومسلمو العالم أجمع حيثما كانوا من الأرض وحيثما عاشوا عندما يذبحون الأضاحي يوجهون رأس الأضحية نحو مكة، ومن ثم يعود الجميع إلى مكة المكرمة حيث يقومون من جديد بالطواف حول الكعبة. واليوم العاشر من شهر ذي الحجة يعد بداية عيد الأضحى الذي يحتفل به في العالم الإسلامي بأسره. والحج بحسبانه واحداً من أركان الإسلام الأساس هو أهم شكل لتوحيد المسلمين جميعهم.

تستقبل المملكة العربية السعودية سنوياً ملايين القادمين لأداء الحج والعمرة وتقدم لهم الخدمات وتنظم إنجاز شعائر

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

العبادات، كما تسهر على تنقلاتهم وإقامتهم. وليس من قبيل الصدفة أن الله قد أتاح لهذه الدولة الإمكانيات اللازمة لإنجاز هذه المهمة العظمى. وإنها مهمة صعبة للغاية وليس في العالم نظير لها، وهي إدارة الخدمات وتنظيمها وتقديمها مثل هذا العدد الهائل من البشر. كيف يتم بدقة وحسن ترتيب أن يؤمن كل حاج بالسكنى في الخيام والحرص على أمنه وسلامته وصحته وتسهيل أدائه لشعائر العبادة في الأمكنة المعيّنة وفي المواعيد المحددة. ويأتي إلى هنا غير قليل من المسنين والمعمرين الذين استطاعوا ولو في آخر عمرهم تحقيق حلمهم المنشود وهو أداء الحج والعمرة. وهؤلاء الذين يحملون في صميم قلوبهم وأعماق أنفسهم مثل هذا الحلم يصبحون في العالم أكثر فأكثر.

ومنذ العديد من الأعوام تولت أسرة آل سعود على عاتقها المسؤولية والعناية بالأمكن المقدسة وحجاج اليوم والمستقبل. ويبدو أنها ترى في هذا مهمتها الرئيسية الأولى في الحياة. إذ ليس من الصدفة أن العاهل الراحل الملك فهد بن عبد العزيز تخلى عن لقب «صاحب الجلالة» واتخذ لنفسه مكانه اللقب المبجل «خادم الحرمين الشريفين». وهذان المسجدان وكذلك الأماكن المقدسة جميعها يتواصل باستمرار تنظيمها وتوسيعها

وتحسينها. ومجموع النفقات على إعادة تصميم المسجدين في مكة والمدينة يبلغ زهاء ١١ مليار دولار دون احتساب الملايين المنفقة على إنجاز المشروعات الضخمة لتشييد الأمكنة المقدسة الأخرى وتحسينها. وقد وسعت كثيراً خلال الأعوام الأخيرة مساحة المسجد الحرام، الأمر الذي يتيح إقامة الصلاة فيه في آن واحد لمليون شخص بينما كان لا يتسع في السابق لأكثر من ٣٤٠ ألفاً من المصلين. ومسجد الرسول ﷺ في المدينة عقب إعادة تصميمه يشغل مساحة المدينة القديمة كلها التي كانت على عهد النبي محمد ﷺ.

ويصعب التصور بشأن الكيفية التي يمكن بها إرواء الملايين من البشر المتركزين في مثل هذا الحيز الصغير ببلاد لا يكاد يوجد فيها مصادر طبيعية للمياه، أما الحاجة إليها بسبب الطقس القائل فإنها عالية جداً. بيد أن الماء هنا حتى في عز الموسم متوافر وبغزارة. وبئر زمزم التي انبثق منها الماء في حينه على شكل معجزة تحت قدمي إسماعيل بن النبي إبراهيم عليهما السلام أخذت مع مرور الأعوام تتضرب، ثم اضمحلت تماماً وصارت نسياً منسياً. ولكن عندما رأى عبد المطلب جد النبي محمد ﷺ في المنام تلك البئر تم العثور

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عليها ونظفت وشيدت من جديد. وقد حدث هذا قبل ولادة النبي محمد ﷺ.

ومرت القرون وصار الحجاج يتكاثرون ويتكاثرون، وعندئذ تولت المملكة العربية السعودية على عاتقها العناية بهذه العين. وطبقاً لأمر أصدره الملك فهد وعلى نفقته الخاصة شيد مصنع ماء زمزم وقد شغل عام ١٩٨٤م ومنذ ذلك الحين يزود الحجاج من أرجاء العالم جميعها مجاناً بالماء المبارك الصافي صفاء البلور. وقدرة هذا المصنع عالية، بحيث إنه ينتج في الساعة الواحدة ١٤ طناً من القناني اللدائنية. أما مجموع ما يوزع طيلة موسم الحج فهو ١٢ مليون أنية تحتوي على ماء زمزم المبرّد.

وقد نصبت في المسجد الحرام نفسه أكثر من ألف زير كبير فيها ماء زمزم. وفي الساحة المكشوفة حول الكعبة يبرد الجو ويترطب الهواء بشكل لا يدركه العقل ويعجز عن تصويره. وبوجه عام فإن الإنسان وبخاصة من قيض له الوجود في مكة للمرة الأولى يواجهه عند كل خطوة ما يشبه المعجزة. والمسجد الحرام نفسه هو طبعاً بحد ذاته معجزة. عندما يقف الحاج أمام بوابة المسجد الرئيسية يتملكه إحساس

لا عهد له به من قبل. من جهة يشعر بأنه يكاد يكون أشبه بنملة ضئيلة حيال هذه العظمة غير البشرية والجمال السماوي الإلهي، ومن الجهة الأخرى يملأ نفسه شعور الفرح الغامر والإحساس الطفولي المنسي منذ أمد بعيد بالأمن والطمأنينة في بيت الوالدين. ويسير بقلب مفتوح على مصراعيه بين مئات الأعمدة الخفيفة، وفي وسط الساحة الداخلية للمسجد تتفسح أمام عينيه معجزة أخرى هي الكعبة المغطاة بالكسوة السوداء المطرزة بالخياوط الذهبية، والكسوة الضخمة منسوجة من الغزول الصوفية والخياوط الحريرية. وأركان الكعبة الأربعة جميعها ملفوفة بالقماش البالغ طوله أربعة عشر متراً وعلى هذه الكسوة تطريزات بالخياوط الذهبية والفضية لآيات بينات من الذكر الحكيم، وزخارف جميلة متقنة. أما فوق المدخل إلى الكعبة نفسها فقد نقشت بالخط المخرم عبارة «نسجت هذه الستارة في مكة المكرمة وقدمت هدية من الملك فهد جزاه الله خير الجزاء». ويبلغ مجموع قيمة الكسوة خمسة ملايين دولار. وفي سنة ١٩٧٥م افتتح معمل خاص لصنعها أرسى خادم الحرمين الشريفين الحجر الأول لتشييد مبناه بيده.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والكعبة نفسها لم يجدد مبناها في غضون ستمائة عام سبقت حتى سنة ١٩٥٧م حين جرت المراسيم الاحتفالية بمناسبة البدء بترميمها بمشاركة الاختصاصيين من بلدان إسلامية عديدة. وفي ظرف شهرين أنجز العمل. وكان هذا هو التجديد الثالث عشر من حيث الترتيب لمبنى الكعبة منذ تشييدها الأول. أما في عام ١٩٧٧م فقد نصب الباب الجديد للكعبة وقد استخدم فيه ٢٠ كغم من الذهب الخالص عيار ٩٩٩. زادت قيمتها على ثلاثة ملايين ونصف المليون من الدولارات. وفي كل سنة قبل حلول شهر رمضان وموسم الحج تجرى مراسيم «غسل الكعبة». وهذا العمل العظيم كذلك لم ينشأ بمحض الصدفة. عندما عاد النبي محمد ﷺ مع أتباعه إلى مكة كان أول ما فعله لتطهير هذا الموضع المقدس من الدنس هو تحطيم الأوثان التي كانت منصوبة داخل الكعبة.

ومنذئذ يسمح لأكثر الأشخاص شرفاً وتكريماً في هذه البلاد والعالم بالدخول إلى أقدس البقاع في داخل الكعبة لکنسها وتنظيفها وإقامة الصلاة فيها. وتوجه الدعوة لحضور هذا الحدث المشهود سنوياً كذلك إلى سفراء البلدان الإسلامية

جميعها المعتمدين لدى المملكة. وخلال شهر تموز (يوليو) من سنة ١٩٩٤م أثناء الزيارة الرسمية إلى المملكة العربية السعودية أدى فريضة الحج رئيس الجمهورية الأذربيجانية حيدر علييف وفي ذلك الوقت كانت تجرى أعمال التصليح في الكعبة التي أغلقت. ولكن احتراماً لبلادنا وزعيمها أتيحت للوفد الأذربيجاني فرصة الدخول إلى أقدس مكان في العالم لدى المسلم المؤمن وأداء الصلاة في داخلها.

وأثناء مدة إقامتنا في البلاد قدّم الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود إلى دولتنا هدية فخمة، وهي السماح لخمسائة من المواطنين هم في الأساس لاجئون ونازحون اضطراراً وأفراد أسر الشهداء (الذين لقوا مصرعهم في الحرب القراбахية) بأداء الحج على نفقة العاهل السعودي. وهذه الهدية الملكية السامية يصعب المبالغة في تقديرها مهما قيل فيها من كلام، إذ إنها موجهة إلى الأشخاص الذين هم أحوج الناس إلى الدعم وشد الأزر.

ويؤم مكة الحجاج من شتى أرجاء المعمورة لكي يؤدوا الفريضة الواجبة عليهم وعددهم بالملايين وبينهم عدة مئات من مواطني بلادنا. وهذا قليل، إلا أننا نتعشم ونأمل في أن

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

الحياة في أذربيجان سوف تتحسن عاماً فعاماً وسيكون بوسع أي مواطن في بلادنا أن يحقق رغبته الحميمية وحلمه المنشود في أداء فريضة الحج.

قصة عائلتين



ذكرت مرات عديدة أنه تم تحول المجتمع السعودي من مجتمع متأخر شبه إقطاعي إلى مجتمع رأسمالي، وذلك تحت تأثير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في ظروف حياة السكان خلال بضعة عقود من السنين بفضل السياسة الحكيمة المتوازنة لقيادة الدولة والعامل النفطي الجبار. وقد تغير نمط حياة السكان ومستوى معيشتهم، وتمت حركة تصنيع وتحضر واسعة، وأدخلت أحدث التكنولوجيا وتطورت البنية التحتية، وأستحدثت مؤسسات جديدة للدولة، وأنشئت من نقطة الصفر تقريباً شبكة متينة للصحة والتعليم، وبنيتة ذلك حدث تقليص حاد للامية. وتغير معدل عمر المواطنين وهذا أفضل مؤشر موضوعي للتطور الإيجابي للبلد. وطبقاً لمعطيات منظمة الصحة العالمية لم تتجاوز الأعمار ٥٠ سنة لكلا الجنسين في الستينيات من القرن الماضي، بينما بلغت في نهاية التسعينيات ٦٨ سنة للرجال و ٧١ سنة للنساء، مخلفاً وراءه بعيداً البلدان

النامية ومقترباً من مستوى البلدان المتطورة. إلى خلفية هذه التغيرات المهمة تجري عملية تدريجية ومستمرة لتغيير نمط سكان المملكة وتفكيرهم. وأود أن أوضح هذا التطور بعرض مثال لعدة أجيال من فرع عائلة معروفة الآن بشكل واسع كانت تقف عند منشأ تكوين القوات المسلحة للمملكة.

منذ زمن بعيد في القرن التاسع عشر كان والد جد صديقتي سعيدة يقود القوافل التجارية المحملة بالحبوب والتمور والبخور والبضائع الرائجة الأخرى. كان هذا الرجل، واسمه علي، دليلاً جيداً للقوافل ماهراً في الاهتداء بالنجوم. وكان التجار يضعون ثقتهم فيه، لذا كان له عمل دائم ولم يعرف الفقر، بالإضافة إلى ذلك كان عارفاً بالخيل ومحباً لها وكانت هي تبادل له الحب. كان لعلي عائلة كبيرة: سبعة أبناء وخمس بنات، وكانت أمنيته أن يتلقى أولاده العلم، رغم أنه هو لم يكن يعرف القراءة والكتابة. ومع مرور الزمن أصبح علي مروضاً ماهراً وفارساً جيداً بحيث انتشرت شهرة مهارته وأمانته في أرجاء الحجاز. فعرض عليه شريف مكة آنذاك، وهو من ذرية النبي محمد ﷺ، رئاسة الخيالة العسكرية جميعها الموجودة في المنطقة.

وفي أحد الأيام قرر الشريف عرض مهارة محاربيه أمام المشاهدين الأجانب في استعراض عسكري. فأمر برمي ليرات ذهبية تركية كانت تستعمل آنذاك في الطريق على مسافة خطوتين بين الواحدة والأخرى. ثم أمر علماً بجمع هذه النقود راكباً فرسه وبأقصى سرعته بدون النزول إلى الأرض. فقفز والد جد سعيدة على ظهر حصانه الأسود ذي الغرة البيضاء على جبينه وانطلق إلى الأمام. وأصبح الفارس والحصان كما لو كانا جسماً واحداً متكاملًا. وكانت أمنية علي الوحيدة إظهار مهارته لثلاثي يخذل سيده. انطلق الحصان على الطريق بينما تمسك الفارس بالسرج بطريقة مذهلة برجل واحدة وأصبح يلتقط قطع النقود من الأرض، فجمعها ولم يترك واحدة! فتعجب المشاهدون، وقدم الشريف كل هذا الذهب هدية إلى الفارس الماهر كتعبير عن الشكر له.

وأخيراً سنحت فرصة علي لتحقيق أمنياته: تلقى أولاده التعليم. فأصبح أربعة من أولاده عسكريين وعززوا بذلك التقاليد العائلية. وكان علي نفسه ولسنين عديدة يقدم معلوماته وخبرته الغنية إلى الجيل الجديد. وعاش عمراً طويلاً جداً بالنسبة لذلك الزمن بلغ ٩٥ سنة. وصورته معلقة في مكان فخري في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بيت سعيدة. تعاير وجه إرادية وعينان ذكيتان وشاربان طويلان مفتولان إلى أعلى من النوع الذي يقف عليه النسرا! وكان يفخر بهما كثيراً كما تحكي الأسطورة العائلية.

لم يكن جد صديقتي، وهو الابن الرابع لعلي، فارساً. فقد تكرم عليه الملك عبد العزيز بمبلغ من المال مكنه من السفر إلى مصر وسوريا والقدس لدراسة الجديد في التكنولوجيا في ذلك الزمن. وتعلم التلغراف والتصوير ولكنه فضل التكنولوجيا العسكرية وتخصص بالقصف. وحافظ أبناؤه الأربعة على التقليد العائلي فأصبحوا عسكريين. أحدهم خالد، وهو والد سعيدة، وهو الآن حي يرزق وعلى المعاش، أصبح اختصاصياً رفيع المستوى في مجال تخصصه.

تزامن شباب خالد مع الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من أن المملكة العربية السعودية لم تشترك في العمليات الحربية، إلا أنها تحملت أعباءها وعواقبها السلبية - الاقتصادية والسياسية والعسكرية. فأتضح أن العالم جد صغير.

وأخذت الحياة تتغير بسرعة، وكذلك الحرب. ففي أوروبا البعيدة وإفريقيا الجارة كانت السيارات المدرعة، التي لم يشاهدها أبداً، تزار بوحشية وتقتل الناس. وتجوب السماء

طيور حديدية تقذف حمولتها المهلكة على المدن والقرى. ولم يكن أحد يعلم بصورة قطعية ماذا سيحدث غداً. وكان هذا الرجل الشاب قلقاً على بلده ومستعداً لتقديم كل ما لديه من قوة للحفاظ عليها. ولكنه كان في ربيع شبابه ولم يكن يعرف إلا اليسير. وأفضل ما كان باستطاعته أن يفعله هو الدراسة، فاتجه بأنظاره إلى السماء، فاستماتته، ربما مثلما كانت تستميل جده علياً، فدرس وأصبح مظلياً ماهراً، وكان الأول بين الأولين. ولحسن الحظ لم تظهر الحاجة إلى استخدامه في الحرب، لأنها كانت قد انتهت. واستمر بعد ذلك ولسنين عديدة ينمي معلوماته وخبرته بدراسة جيوش عربية وغربية أخرى. وكان له الشرف مع أخيه الطيار بأنهما أول من نقل الملك عبدالعزيز من جدة إلى الرياض على متن أول طائرة أهداها رئيس الولايات المتحدة فرانكلين روزفلت إلى الملك. واشتغل لسنين عديدة في الطائف، العاصمة العسكرية للمملكة العربية السعودية آنذاك، وأسس أكثر من مدرسة عسكرية وعلم جيلاً كاملاً من الشباب مهنة الشجاعة.

وصلنا الآن إلى صديقتي. لا تطلق أيها القارئ، فإن سلسلة السلالة العائلية لم تنقطع لكون إخوتها أصبحوا عسكريين.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

صحيح أن أحدهم لم يتبع التقليد العائلي فأصبح سفيراً. لكن الدبلوماسية هي أيضاً نوع من أنواع المعارك للدفاع عن مصالح الوطن، ولكن على جبهة السلام وبوسائل أخرى؛ وبحسابانها امرأة، لم تستطع سعيدة بالطبع أن تصبح عسكرية، لكنها لم تستطع إلا أن تتزوج عسكرياً. وزوجها اليوم هو جنرال طيار معروف وابنتهما أيضاً ينوي أن يصبح كوالده على ما يبدو.

كما سبق أن ذكرت أجريت جملة من الأنشطة في اليوويل المثوي للمملكة. ومن ضمن ذلك استعراض جوي. وكانت لدينا دعوة رسمية، ولكن إيلمان أراسلي كان في هذا الوقت في بعثة رسمية إلى الإمارات العربية المتحدة. وكان زوج سعيدة أيضاً مشغولاً لأنه أحد منظمي الاستعراض، لذا قررنا الذهاب لمشاهدة الاستعراض مع السائق. وكان صباحاً باكراً شفافاً، وكانت شوارع الرياض في هدوء النوم. واندفعت سيارتنا وحيدة تقريباً تجوب الطريق خارج المدينة، مما دعاني للشك بأننا ربما نكون قد أخطانا تاريخ الاستعراض. ولكن سرعان ما تبدل كل شيء. فظهرت من مكان ما جمهرة من الناس على جانبي الطريق. وكلما اقتربنا من الهدف ازداد عددهم. وامتلات بالناس المرتفعات جميعها الصغيرة والكبيرة التي تزاومت

بينها السيارات الواقفة. من المرجح أن الناس وصلوا إلى هنا مع الفجر لشغل المكان المناسب. وكان يتجول بينهم بائعو البالونات والألعاب الصغيرة والحلويات والمرطبات والمثلجات، وهم يروجون لبضاعتهم. وكان الأطفال يلعبون بصخب ومرح، والكبار منفعلون وتتعالى أصوات بعضهم على بعضهم الآخر وهم مبهتجون في انتظار شيء ما فوق العادة.

وقررنا أنا وسعيدة الامتناع عن الصعود إلى المنصات، بل البقاء في مكان قريب: كان بودي أن أكون بين هؤلاء الناس لأشاهد ردة فعلهم على ما يجري وألاحظ انفعالاتهم.

مر الزمن ببطء، وبدأت الشمس تغدو حارقة، ولم يكن هناك ما نجلس عليه. وبدأت أندم على رفضنا الحصول على الراحة في المنصات. وفجأة اتجهت كل الأنظار إلى ناحية واحدة ورأينا في الأفق سحابة كبيرة حمراء - زرقاء - بنفسجية اللون ظهر من داخلها بعد بضع ثوان سرب منسق من الطائرات وازداد هديرها وانتشرت على شكل مروحة في قبة السماء بلونها الباهت. وكان هذا بداية الاحتفال الضخم.

لم تتوقف الفعاليات بعد ذلك لحظة واحدة لمدة ثلاث ساعات. وكانت الطائرات تحلق في صفوف فولاذية وتعيد تنظيم نفسها

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

فوق رؤوسنا مباشرة. وكانت تهبط من ارتفاعات شاهقة وتصل إلى مستويات منخفضة بدرجة أنه يظهر وكأنها فقدت أي أمل في الصعود والتحليق إلى أعلى مجدداً. وكانت تزود بالوقود في الهواء وتلتف حول محورها وكأنها دوامة تحت تيار هوائي مستمر، وتعرض أعلى درجات المهارة للطيارين. وكانت ترمي من أفواها مظلات هبوط زاهية، فتثير الإعجاب الشامل. ولم يرافق ذلك كله هدير المحركات القوية فحسب، بل وصيحات الابتهاج التي لانسمعها في مجتمعنا المقيد بمختلف القيود. وكنت أراقب ليس فقط ما يجري في السماء، بل وهؤلاء الناس أيضاً. فأغلبهم شاهد مثل هذا لأول مرة في حياته. فانعكست على هذه الوجوه كل التعابير الممكنة للانفعالات الإنسانية: الخوف، والذهول، والرعب، والابتهاج، وعدم التصديق، والفخر. وكانوا تارة يجلسون ويغطون رؤوسهم بأيديهم عند اقتراب المقاتلات، وتارة يرفعون أيديهم إلى السماء ويصرخون بأعلى أصواتهم، ربما كما كان يصيح في قديم الزمان جدهم الأكبر عندما يبلغ به الفرح أو الحزن. ورأيت دموعاً على وجوههم.

كانت آثار الدموع على وجنتي صديقتي أيضاً. ضمت يديها إلى صدرها وقالت بصوت متقطع بسبب اضطرابها: «لقد

نجحوا في كل شيء! هل تعلمين، إلى وقت قريب جداً لم يكن بالإمكان حتى تصور شيء من هذا القبيل! إني سعيدة جداً لبلدي وأفتخر بأن عائلتي جزء من كل هذا. ولو لم أكن امرأة لوهبت كل قواي لسلاح طيران وطني».

لم أندesh آنذاك أبداً لهذه الحماسة، بل وأعجبت بهذا الحب الصادق للوطن والمشاعر الرقيقة التي انخفضت قيمتها ووقدت دلالتها منذ زمن بعيد في عالمنا المادي.

تعرفت أثناء السنوات التي عشتها في المملكة العربية السعودية على الكثير من النساء المهمات بمختلف الأعمار والمكانة والمستوى الثقافي اللاتي أستطيع التكلم عنهن. فكل حياة حتى ولو بدت وكأنها ليست غنية بالأحداث هي فريدة في نوعها إذا ما نظرنا إليها بتمعن. ولكن هذا الموضوع لا يدخل في هدفي من هذا الكتاب. ورغم ذلك لا أستطيع الامتناع عن ذكر قصة واحدة أخرى انطبعت في ذهني، ربما لأن القصة متعلقة بالفن الأدبي المحبلي.

دعيت في أحد الأيام إلى بيت إحدى صديقاتي. وكان عدد المدعوات صغيراً وجميعهن من سكان المملكة. اثنتان منهن سعوديتان نموذجيتان، وكما اتضح فيما بعد فإنهما أميرتان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بالدم وليستا من المرتبة الأولى. أما الأربع الأخريات بمن فيهن صاحبة البيت فمن الواضح أنهن من أصل لبناني. وبعد المكوث كل هذا العدد من السنين في البلاد العربية تعلمت بسهولة فائقة تحديد جنسية الشخص. الأربع كن بشعر فاتح اللون، شقراوات تقريباً، وعلى الأرجح مصبوغات الشعر. واحدة منهن عرفتھا مباشرة من بين المجموعة. هي امرأة بعيدة عن سن الشباب، قدرت عمرها بـ ٥٠ - ٥٢ سنة. كان مظهرها أنيقاً، ترتدي بدلة ثمينة رائعة الخياطة، وأقراطها الماسية الكبيرة بالفيروز وخاتمها المماثل تناسقت تناسقاً رائعاً مع السجف الفيروزي لسترتها.

وفي التقويرة المربعة بدقة تألقت ماسة منفردة بحجم ظفر الإبهام. كانت بشرتها نادرة البياض مشربة باحمرار طبيعي وتسريحة شعرها قصيرة لحد ما. وكانت نظارتها من عظم القرون نصف الشفاف ومرصعة سلسلة من الماسات الصغيرة على حافتها العليا لائقة لها بشكل عجيب.

كان الحديث باللغة الإنكليزية ونادراً ما يتحول إلى العربية. كانت الشقراء اللغز - سوف ندعوها بهذا الاسم - تميل دوماً تقريباً إلى الصمت، وأحياناً تنطق بكلمة أو كلمتين بلغتها الأم،

مما دعاني إلى الاستنتاج بأن معرفتها بالإنكليزية إما ضعيفة أنها لا تعرفها على الإطلاق.

خلال السنين التي عشتها في المملكة نزلت مراراً في ضيافة السكان المحليين، وتجري حفلات الغداء والشاي والعشاء جميعها على نظام واحد في جميع البيوت، سواء أكان ذلك في فيلا سعودي متوسطة أم في قصر أميرة. إذا دعيت إلى مأدبة عشاء فهذا عادة ليس قبل الساعة الثامنة أو التاسعة مساءً. تقوم الخادמות باستقبال الضيوف عند المدخل الرئيس ويرافقنهن إلى داخل البيت. ويتشابه الأثاث الداخلي ولا يختلف إلا من حيث ثمنه. يصف العديد من الأرائك والمقاعد بمحاذاة الجدران، وتوضع أمامها طاولات واطئة مليئة بحلويات أصيلة وعلب من الصيني مرصعة فيها قطع الشكولاته وحلويات شرقية وجوز وفستق. وخزائن مختلفة الأطرزة مليئة بعلب مصنوعة من أنواع ثمينة من الخشب والصيني الرقيق جداً والفضة الخالصة. وبالطبع فإنه في القصور يكون ثمن هذه الأشياء عالياً وغالباً ما تكون فريدة في نوعها. والجدران مغطاة باللوحات والمرايا والجبلين القديم. وتعتلي الفسح بين الستائر الثقيلة مزهريات أرضية ضخمة ودعائم من الصيني في صورة أعمدة قديمة، توضع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عليها أواني الزينة المليئة بالأثمار الجافة والغصان والزهور. وكلما نظرت إليها كنت في نفسي أتساءل: كيف يمسح الغبار عن مثل هذه التحف سهلة الكسر؟ محال الزهور مليئة بمثل هذه البضاعة وبعضها عالي الثمن. في أحد الأيام أرسلت لي صديقتي الأميرة بمناسبة أحد الأعياد باقة من هذا النوع داخل إناء خزفي غير عميق. بين الزهور المجففة المدهشة يبرز إبريق نحاسي قديم له صنوبر طويل معقوف، وبضعة أثمار غريبة وكبيرة بحجم كرة المضرب مجففة ولماعة بطريقة خاصة. إنني متأكدة أن هذه التحفة كلفت مالاً كثيراً.

الطاولات الصغيرة هي أحد أجزاء الأثاث الداخلي المحلي. وتغطي بأغطية من قماش مطرز ومزركش بالدنتيل مطرز بوفرة من الخيوط الذهبية والفضية، وتنتهي ثنيات ناعمة تكون نوعاً من الموجات الفضية والذهبية، وتوضع بينها صور فوتوغرافية في إطارات فضية ومزهريات وتمائيل صغيرة. في محالنا تزين واجهات العرض بطريقة مماثلة تقريباً.

وهكذا تدخلين صالة الاستقبال وتسلمين على صاحبة البيت وتمرين بالدور على جميع المدعوات اللاتي سبقنك بالوصول (بالطبع يدور الكلام عن الجلسات النسائية). فتنهض كل

منهن لترد عليك التحية بقبلة ثلاثية أو بالمصافحة ويتوقف ذلك على مدى التعارف بينكن. وإن لم تكن متعارفات من قبل أصلاً تتبادلن ذكر الاسم والبلد الأصلي. ولا تقتصر الصديقات الحميمات على ملامسة ثلاثية للخدود. وشيء اعتيادي رؤية امرأتين لطيفتين مبتسمتين تتكلمان مع بعضهما بعضاً في آن واحد وتتبادلان لمس الخدود خلال كل بضع ثوان وكأنهما منصوبتان. وإذا أخذنا في الحسبان أن الضيفات لا يأتين أبداً في الوقت المحدد فإن مراسيم التحية المتبادلة يمكن أن تستمر لمدة طويلة. في البداية ظهرت لي وكأنها متعبة بعض الشيء، ولكن فيما بعد صرت أعدها نوعاً من الرياضة. تنهض وتقبل وتجلس وتنهض وتقبل وتجلس، وهكذا.

وفيما تتوافد الضيفات تقوم الخادومات بتقديم قطع الشكولاتة والشاي بالنعناع أو بالحبهان أو بالزعفران في أكواب صغيرة والعصير والقهوة العربية والحلويات. وفي نحو الساعة ١٠ - ١١ وفي المناسبات المهيبة الخاصة تجلب حاملات البخور التي ينبعث منها الدخان العطري وتقرب من كل ضيفة لكي تستطيع - إن رغبت - بتوجيه الدخان إلى نفسها برفرفة من يدها. فيمتلئ الهواء بعطر حلو ثقيل. وهذا التقليد هو بمثابة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

دعوة للمأدبة. فينتقل الجميع مع صاحبة البيت إلى الصالة المجاورة، حيث طاوولات طويلة وضعت عليها مجموعة من الأواني الكبيرة مستطيلة الشكل من معدن براق على سخانات مليئة بأنواع الأطعمة. ويمكن هنا إيجاد ليس فقط أكالات البلدان العربية بل والأكلات الصينية والكورية والإندونيسية والكثير سواها. والسعوديون مضيافون ويحبون ضيوفهم، وهم أنفسهم لا يمتنعون عن ملء صحنهم الكبيرة بكل ما لذ وطاب. وتنتهي المأدبة في وقت متأخر نوعاً ما فيغادر الضيوف مباشرة تقريباً ويبقى عادة أقرب المقربين.

لكن يجدر بنا الآن العودة إلى الشقراء اللغز. وهنا تبدأ أكثر الحكايات الشرقية أصالة بنهايتها السعيدة.

في أحد الأيام قدم أمير شاب عمره ثمانية وعشرون عاماً من الحجاز إلى الرياض لتقديم التهاني بعيد الفطر لابن عمه الأمير خالد. تصادق هذان الشابان منذ الطفولة، لذا اقترح خالد على منصور - وهذا هو اسم بطلنا - أن يقيم مدة من الزمن في قصره. وكان الوقت ربيعاً، وكانت أشجار الليمون والبرتقال والحمضيات الأخرى المثقلة بالأثمار اليانعة التي لم تقطف قد امتلأت بزهور المحصول. وأزهار النيلوفر البراقة ومتعددة

الألوان والياسمين الرشيق والدقيق قد التفت بأغصانها الكثيفة المتسلقة على جدران القصر. وفي أعقاب الأمطار الغزيرة الأخيرة ازدهرت الصحراء بغطاء ملوّن، داعية إلى الاستراحة قبل قدوم الأيام الحارة.

كان الشابان يقضيان جميع الأوقات معاً، يشاهدان المباراة على الجمال والخيول ويشاركان فيها. ويقضيان أياماً بأكملها في الصيد وقيادة السيارات على كثبان الرمل (وهي تسلية فيها قسط من الخطورة أصبحت مؤخراً محببة لدى جيل شباب العائلة المالكة). وكان يبدو أن الحياة بديعة وأن المستقبل أفضل من الحاضر.

وعند فجر أحد الأيام رأى منصور في الحلم فتاة شقراء فاتنة تمشي على الطريق في البستان وحولها ثلاثة غزلان وهي تكلمهم بشيء ما. وعندما رأت الأمير ابتسمت له ومدت له يدها. وكان الحلم واضحاً جداً، بحيث إنه بعد أن استيقظ فجأة شعر بلمسات أصابعها الدافئة ولم يفتح عينيه مباشرة لكي يبقى الحلم مدة أطول.

ينبغي القول: إن والدي منصور وعمته منذ أكثر من سنة يحاولون إقناعه بالزواج ويقترحون عليه حالات مختلفة ولكن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بدون جدوى. وكان خالد يعلم بهذه المحاولات ولكنه لم يشارك في الإقناع. وفي ذلك الصباح عندما دخل منصور وهو مضطرب على ابن عمه وحكى له حلمه العجيب لم يتردد خالد في الاقتراح عليه الذهاب إلى لبنان للبحث عن الحسناء الشقراء لأنه من المعروف أن اللبنانيات بالذات يشتهرن في العالم العربي باللون الفاتح لشعرهن.

وصل الرجلان الشابان إلى بيروت متكرين لإضافة رومانسية أكبر على رحلتها ودغدغة الأعصاب، ونزلاً في فندق صغير، ثم وجدا أحد الأقرباء البعيدين من عمرهما عاش واشتغل في لبنان منذ بضع سنين. وكان قرييها هذا مقبولاً في العديد من البيوت، ويعرف في أي منها تثبت الحسنات. في تلك السنين لم يكن من السهل، حتى في لبنان، التعرف على بنت من عائلة جيدة. فكانوا يبتكرون طريقة التعرف في كل حالة معينة. عادة ما كان قرييهم يعرف ابني عمه على رب العائلة ويقدمها بوصفها رجلاً أعمال. وكما هو معروف أن من الصعب العثور على لبناني لا يمارس هذا النوع من النشاط أو لا يرغب بممارسته. ولم يبق إلا إظهار فن التعرف. نتيجة لذلك استطاعوا خلال أسبوعين رؤية عدد كبير من البنات الجميلات

الفاثات. ولكن لم تحرك أية واحدة منهن قلب منصور، وكانت تلك البنت من الحلم العجيب شاخصة أمام عينيه دائماً. بعد مرور بعض الوقت قرر الشابان العودة إلى المملكة بحسبان هذه الرحلة نوعاً من التسلية. وفي آخر يوم قبل المغادرة دعيا إلى مزرعة خيول لأحد اللبنانيين الأغنياء. وكان ابنا العم يحبان الخيول وعارفين بها، لهذا تقبلاً الدعوة بارتياح.

كان الصباح مائلاً إلى البرودة، وأمطرت قليلاً قبيل ذلك. وظهرت حافة قرص الشمس فوق القمم المستديرة للهضاب المتجمدة، والأوراق الجديدة لأشجار الأرز تلالاً بأشعتها المرحة. جلس الشابان على حصيرة فرشت لهما خصيصاً. وضعت أمامهما على غطاء ببياض الثلج أطباق فضية فيها حلويات شرقية، وأنية فيها فواكه وتمر وجبن وأرغفة ساخنة في صينية مدورة وإبريق القهوة العربية الفوَّاحة المحضرة لتوها. وكان خدم سود يسوون ساحة الحلبة بجرافات خاصة حيث يجب أن تظهر الخيول بين آونة وأخرى. وأراد صاحب البيت أن ينال رضا ضيفيه الشابين اللذين شعر بالحدس الداخلي أنهما لم يكونا مواطنين عاديين في المملكة العربية السعودية.

أخيراً فتحت بوابة الإسطبل الواسعة وانطلقت منها إلى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الحلبة الرحبة خمسة خيول فاخرة من السلالة العربية، لونها أدهم، ما عدا الأول الأبلق تماماً، وعليه تخطرت... بنت رشيقة صبية شعرها البديع أشقر ومجعد، لم ينتبه إليها الرجلان الشابان في البداية. ضغط منصور على يد ابن عمه وفهم خالد الأمر مباشرة.

كان بعد ذلك زفاف. وصل ليلتها إلى بيروت عدد غفير من الأقرباء. أخذت العروس الفتية، وعمرها أربعة عشر عاماً فقط، الهدايا جميعها المقدمة لها بلهفة الطفل المدلل. فأعجبت بالجواهر المتلألئة وبالملابس البديعة الثمينة وبعريسها الذي حقق كل رغباتها. وقضيا شهر العسل في ألمانيا. كانت ليلي وهذا هو اسم بطلتنا التي لم تسافر قط إلى خارج لبنان، تقفز كالعنزة الصغيرة في الطرقات القديمة للمدن الألمانية وتتسلق التماثيل الصخرية التي تزين النافورات الصغيرة وتضحك بصوت مرتفع. وكان الزوج حديث العهد ينظر بلطف إلى هذا المخلوق الرائع ويمتلئ قلبه بالحنان.

مر الشهر وعاد العروسان إلى الرياض. وسارت الحياة في مجراها الاعتيادي وبدأت الصبية بالحنين. أرادت رؤية أمها وأبيها واحتضان أخواتها واللعب مع إخوتها. توقفت عن

الضحك ولم تعد الأشياء الجميلة وحتى اللعب تلفت اهتمامها. وفي أحد الأيام بكت بكاء مرأً بحيث انقبض قلب منصور من الشفقة عليها. عندئذ سافر إلى بيروت وجلب معه إلى المملكة أقاربها جميعهم حتى أخوات وإخوة أجدادها. فعاد يسمع من جديد الضحكة الرنانة لزوجته الحبيبة. بعد ذلك كانت هناك حياة سعيدة. ولدت ليلي ستة أطفال أصحاء، ثلاث بنات وثلاثة بنين، أصبحوا عند تعارفنا كباراً.

وهكذا فإنكم بالطبع فهمتم أن الشقراء اللغز هي ليلي التي في يوم ما غزت قلب الأمير الشاب منصور. لقد أذهلتني هذه القصة، ربما لأنها فعلاً تشابه حكاية أصيلة أردت أن أحكيها لكم. مع ذلك فإنني متأكدة أن حياة أي إنسان مهما كان بسيطاً هي حياة فريدة يمكن أن تثير اهتماماً حقيقياً.

بعد أسبوعين من تعارفنا دعنتي ليلي إلى زيارتها. وأقول بصراحة: إنني ذهبت إليها بشيء من الخوف بانتظار شيء ما غير اعتيادي. علمت قبل ذلك أنها فقدت زوجها منذ سبع سنوات وأنها تعيش مع عائلة أحد أبنائها (حسب القوانين السعودية لا يسمح للمرأة أن تعيش لوحدها حتى لو كانت تملك عدة بيوت). تعرفت على بناتها الحسنات، ظهرت لي أكبرهن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وكانها في عمرها نفسه، تعرفت على أحفادها التسعة عشر وعلى الأصدقاء المقربين لهذا البيت الدافئ. ولكن أهم ما رأيت حال دخولي صالة الاستقبال الكبيرة صورة ضخمة للأمير منصور تغطي جداراً كاملاً. وهي تغطي على كل ما في هذه الصالة. فأينما جلست فإنك ترى الصورة حتى بنظرة جانبية. وكأن هذا الإنسان حاضر بين الأحياء بصورة خفية.

كان لدي الوقت الكافي للتمعن بالصورة. رسمت صورة الأمير في عمر متوسط. وجهه كبير ذو إرادة قوية وعيناه ذكيتان وطيبتان. ابتسامة خفيفة ساخرة. وعند النظر إلى الصورة تذكرت صراحة ليلي بأنها كانت سعيدة سعادة حقيقية في حياتها الزوجية، وأنها لا تستطيع أن تتذكر أية حالة من سوء التفاهم أو الإساءة. عندئذ أيقنت أن هذا الإنسان يستحق الذكر الذي يمتلك إحساس الحب والاحترام والتعاطف الذي استطاع أن يوفر السعادة ولو لامرأة واحدة في هذا العالم الغريب.

منطقة الجاز



في بداية العشرينيات من القرن الميلادي الماضي كانت هناك دولتان على الأراضي التي تشغلها المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر: سلطنة نجد مع الأراضي الملحقة، ومملكة الحجاز (الجزء الغربي الجبلي وساحل البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية بما في ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة)، وكانت العلاقات بينهما متوترة دائماً. يكفينا القول: إنه كان يمنع مسلمو الدولة المجاورة من الحج. هذا السبب وأسباب أخرى أولها الرغبة في استعادة الأراضي المفقودة حثت بالسلطان عبد العزيز إلى الهجوم على الحجاز. ففي سنة ١٩٢٤م قام بغزو مدينتي الطائف ومكة، حيث أنجز شعائر الحج في الكعبة. وفي السنة التالية غزا المدينة وجدة في ٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٢٦م. وفي المسجد الرئيس في مكة أعلن عبد العزيز نفسه ملكاً على الحجاز. وفي سنة ١٩٣٢م أصدر الملك الجديد مرسوماً «بتوحيد أجزاء المملكة العربية» وحصلت البلاد حسب

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

هذا المرسوم على اسمها الحالي، وأصبح يحتفل بيوم ٢٣ أيلول (سبتمبر) بوصفه يوم وطني.

وبالطبع يمتد تاريخ جدة التي تدعى «بوابة البحر الأحمر» إلى مئات عديدة من السنين. وقد كانت في زمن ما في مستهل الألف الأول من التاريخ قرية صغيرة لصيادي الأسماك، استطاعت العيش في المناخ القاسي على الساحل الصحراوي الصخري بفضل كرم البحر فقط. كانت المساكن تبنى من شظايا السلاسل المرجانية، وشيد منها أيضاً فيما بعد سور حول المستوطنة كلها لحمايتها من الأعداء. الموقع الملائم على خليج مناسب ساعد جدة القديمة في أن تصبح ميناء تجارياً، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م . فكانت تأتي إليها السفن من أمريكا وأوروبا وإفريقيا مروراً باليمن والهند والصين. وكانت تتوقف عندها للشراء والبيع والتزود بالمواد الغذائية ومياه الشرب. وساعد التجار بعيدهم النظر على ازدهار جدة واغتنى الكثيرون منهم باغتنائها. وبالطبع أصبحت المدينتان المقدستان مكة والمدينة الحافظ المطلق لنمو أهميتهم.

حتى الأربعينيات من القرن العشرين كانت جدة عبارة عن

مستوطنة صغيرة محاطة بأسوار قلاعية ومساحتها كيلومتر مربع واحد فقط، مع كونها مدينة مزدهرة. لكن بعد اكتشاف النفط في شبه الجزيرة أزيلت هذه الأسوار ونمت المدينة بسرعة إلى الأبعاد العصرية، وهذا على أية حال، يعكس الحركة الانتقالية العامة في المملكة. فبلغت مساحتها في التسعينيات ٥٥٠ كيلومتراً مربعاً وسكانها ١,٥ مليون نسمة.

كانت للحجاز في ذلك الوقت تقاليد سياسية وإدارية معينة قياساً على الأراضي الأخرى من دولة السعوديين. لذا تكيفت مدنه بسرعة، وبخاصة جدة، مع التغيرات الجذرية الجارية في المملكة في مجالات الحياة جميعها. كانت جدة حتى سنة ١٩٨٥ م بمثابة المركز المالي للبلاد، حيث انتشرت المؤسسات المصرفية. فظهرت هنا الوزارات والمصالح، كما ينمو الفطر في أرض خصبة عقب المطر، وأنشئ نظام التعليم. وتعد جدة حتى يومنا هذا العاصمة الثانية للدولة، حيث ينتقل تقليدياً الملك الحاكم في نصف السنة الصيفي، وحيث يجتمع مجلس الوزراء كل يوم إثنين في هذه المدة، ويأتي إليها بالطائرة كل يوم تقريباً الوزراء من مختلف المستويات (طائرات خطوط الطيران السعودية تقطع هذه المسافة في ظرف ساعة واحدة و١٥ دقيقة).

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أنا أحب القدوم إلى هنا حباً جماً، إذ إن جدة هي مدينة أكثر حيوية ونشاطاً بالمقارنة مع الرياض المدينة الرسمية الصارمة. فشوارع جدة غاصة بالناس دائماً، وقوارب الصيد تتحرك في مختلف الاتجاهات على السطح الفيروزي الأملس لماء البحر، وتدور الأراجيح الدوّارة على الشاطئ، وتسمع أصوات الأطفال الرنانة. وفي المساء عندما تشعل أنوار الإعلانات يطيب الجلوس في أحد المطاعم العديدة المبنية على الماء مباشرة على طول ساحل الشاطئ المريح للتلذذ بهدايا البحر المطبوخة بطريقة بديعة، والتنصت لصوت ارتطام الأمواج الخفيفة بالعوامات الخشبية.

توجد هنا جامعة الملك عبد العزيز، ومركز علمي - فني، وبضعة متاحف مجهزة تجهيزاً رائعاً. أود التحدث بصورة خاصة عن أحدها وهو متحف عبدالرؤوف خليل الذي احترق العام الماضي.

أقول بصراحة: إنه يعطي انطباعاً مذهلاً تماماً، ولم أشاهد قط شيئاً مماثلاً ولا أظن أنه يوجد ما يشبه ذلك في أي بلد. وراء سور حديدي مشبك يشمخ بيت ضخم مرقش معقد الشكل على مساحة حي كامل. وتعلو سقفه على مستويات

مختلفة أكثر من عشرين منارة متنوعة الهيئة واللون والشكل والتشذيب بأهلة مذهبة على قممها. الجدران مزينة بأفاريز متعددة الألوان، وطنوف نصف دائرية، وبشرفات من خشب مزخرف وأحجار كريمة، وزجاج ملون عبارة عن قطع فنية. وهو بكامله يظهر وكأنه لعبة أسطورية ويذكرنا ببرج خرايف.

عندما أصبحنا أنا وزوجي داخله كانت دهشتنا بالمحتويات ليست أقل منها بالمظهر الخارجي لهذا المتحف العجيب. أولاً، كان خالياً تماماً من الناس: لم يكن هناك زائر واحد أو موظف واحد، رغم أنه كان مفعماً، وأستطيع أن أقول: إنه كان مكتظاً بكمية غير قابلة للعد من معروضات تفوق التصور، بالإضافة إلى أن أشياء فريدة وضعت بجانب أشياء حياتية عادية لا تمثل أي اهتمام علمي، مثال ذلك: مزهرية زجاجية بأزهار اصطناعية ونسخ اعتيادية أو زينة رخيصة في صالات الاستحمام. نعم تعرض في هذا المتحف صالات استحمام بإنارة ساطعة مفتوحة الأبواب على مصاريعها لاستعراضها، وربما تستعمل!

وفي الوقت نفسه تعرض مجموعات فريدة من الأسلحة النارية والباردة المزينة بمعادن ثمينة وأحجار كريمة، ومجاميع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

قيمة من الكتب وقطع النقود القديمة والمصوغات الثمينة، ومجموعة في حالة جيدة من الألبسة والأزياء الوطنية من مختلف أنحاء العالم، والموبيليات، والأواني، وأشياء عشر عليها في التنقيبات الأثرية، ومخطوطات قديمة، ولوحات لفنانين حديثين وقدامى، وتماثيل وأشياء كثيرة أخرى. تكوّن عندنا انطباع أنه في هذا المتحف تم شراء وتجميع كل ما هو نفيس وغالي الثمن أو أقل ثمناً، بدون أي نظام أو أهداف. واتضح أن الأمر كان هكذا بالفعل. وانحصر السر في أن تاريخ هذا المتحف - الأعجوبة تاريخ رومانتيكي تماماً كما في حكايات ألف ليلة وليلة تقريباً.

كان رجل شاب غني يعيش في مدينة جدة التجارية. وقرر بناء بيت تكريماً لزوجته الحسناء، بحيث لم يكن لأحد بيت شبيه به.

وقد دعا أفضل أساتذة البناء من بلدان مختلفة وبنوا له قصرًا بديعًا عجيبيًا. وعاش هذان الزوجان بسعادة وفرح الأقرباء والمعارف. وفي صباح كل يوم كان الزوج الشاب يقدم إلى زوجته هدية جميلة ليفرح قلبها من الصباح الباكر.

مرت السنون، ورزق الزوجان بأطفال، والأشياء استمرت

بالتراكم. فعملها لها خزانات خاصة ذوات مرايا لعرضها. وكان الضيوف يفغرون أفواههم من التعجب، وأصبح من الصعب التوقف وأصبحت عملية تجميع الأشياء بالنسبة لهذين الزوجين الطريفيين هواية. عندئذ قررت العائلة التي ازداد عدد أفرادها الانتقال إلى بيت جديد وتحويل القديم إلى متحف والحفاظ عليه بوصفه رمزاً للسعادة الزوجية.

هذه القصة، يحتمل أنها منمّقة كثيراً، حكاها لنا حاجب المتحف وهو أيضاً المشرف عليه. وجواباً عن سؤالنا: لماذا لا تحرس هذه الكنوز حراسة جيدة؟ قال: أولاً: لن يجرؤ أحد على سرقتها لأن هذا حرام. وثانياً: وضعت للاحتياط عدسات مراقبة في الصالات جميعها.

جدة ليست مجرد مركز مالي وثقافي، وإنما هي أيضاً مركز صناعي. فقد تمركزت هنا المعامل الدوائية والإلكترونية الأساسية، وشبكة واسعة من الورش الحرفية لصناعة الموبيليات والأدوات الحياتية، وخصوصاً المجوهرات المشهورة، ليس فقط داخل البلد، بل وخارج حدوده أيضاً. يستخدم الذهب من عيار ١٨ قيراطاً فأعلى، وهذا محدد بالقانون. ويعد إنتاج المواد الغذائية والخدمات من الفروع المهمة للاقتصاد.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وساعدت غرفة التجارة والصناعة التي أنشئت منذ أكثر من أربعين عاماً على تقدم أشكال العمل الحر جميعها وتحسينه، وشجعت كل مبادرة إيجابية، ويجري التعامل مع الأسواق الخارجية، وهذا انعكس على تطور المدينة وازدهارها. وبالطبع على سكانها أيضاً، الذين يظهرون في كل مجال ممكن وبثبات منتهى كرم الضيافة والحفاوة. وفي اعتقادي ليس هذا من التقاليد فحسب، بل هو علامة حقيقية على الحياة المرفهة.

يمثل عمران جدة اليوم خليطاً متناسقاً بين الطابع التقليدي والطابع الحديث، مما يكسب هذه المدينة الفريدة خصوصيتها وصبغتها المميزة. ويمكن أن يكون مبنى متحف البلدية مثلاً ساطعاً على هذا التكافل. تتميز على خلفية جدران المرمرية البيضاء النوافذ المقنطرة المغطاة بمشبكات من خشب قاتم اللون منقوشة باليد، والشرفات المخرّمة المستورة بنقوش دقيقة جداً. هذه الشرفات نموذجية لأبنية عديدة في الحجاز. وليست هي زينة عمرانية وحسب، بل وتحل مشكلات عملية: تحجب أشعة الشمس الحارقة، وتسمح بمشاهدة حياة المدينة بدون الإخلال بقواعد السلوك المتعارف عليها. تلفت النظر بصورة خاصة المنطقة المركزية للمدينة، حيث تمت صيانة العديد من

البيوت القديمة وإعادة بنائها. وتترك انطباعاً قوياً العمارات البديعة للشركات الكبيرة والمراكز التجارية بخطوطها المنسقة وموادها الحديثة وأروقتها المقنطرة الهائلة.

مطار الملك عبد العزيز الضخم المشيد باستخدام أحدث التكنولوجيات يمكن عده مثلاً لتتابع التقاليد العمرانية. فهو يشغل مساحة ١٥٠ كيلومتراً مربعاً ويتكون من ثلاث محطات - الدولية والمحلية والخاصة باستقبال الحجاج. وقد بني على شكل خيمات، وهو الشكل المقرب إلى قلب كل سعودي. مخروطات ضخمة من ألياف زجاجية تتقارب لتكون سقيفة سيكلوبية تحمي السياح من الشمس الساخنة. ويشتمل تصميمه الفريد في نوعه على نظام فعال للتهوية والتكييف يوفر ظروفاً مريحة في المناخ الحار والرطب. حصل هذا المطار سنة ١٩٨٣م على جائزة العمران الإسلامي.

وبعد ست سنوات منحت هذه الجائزة إلى المسجد الأبيض ببياض الثلج على الشاطئ. هذا المسجد جميل حقاً، خصوصاً عند النظر إليه من جهة البحر، حيث تنعكس الخطوط المنسقة للجدران والقبة والمنارة الرمحية في المياه المستوية للشاطئ. ليس بالصدفة أن تسمى جدة العاصمة التجارية للمملكة.

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

فهي لا تقتصر على استيراد أنواع البضائع وتصديرها، بل تعد مركزاً تجارياً كبيراً. فأسواق الجمجم ذات أهمية كبيرة! وهي في الحقيقة مدينة داخل مدينة. يوم واحد لا يكفي للزائر للمرور على المحال جميعها، وممثلات الشركات والمطاعم والمعارض ومراكز تسلية الأطفال ومحال الحلالة والخياطة وأقسام البضائع الخاصة جداً والمؤسسات الأخرى. وحديثاً افتتح مركز تجاري ضخم آخر وهو مركز محمود سعيد الذي لم أشاهده ولكنه حسب قول زوجي يفوق المركز السابق من حيث الحجم وعدد المحال التجارية وثناء موجوداته. يقول إيلمان أراسلي: إنه شيء خيالي. وبخصوص صفوف الأسواق في جدة التي لا تنتهي فإنها تبهج ببضاعتها المتنوعة وتفوح بعطورها الشرقية، وتجار محال البقالة ينادون بصوت مرتفع لتذوق بضاعتهم الحلوة.

يشغل الشاطئ البالغ طوله كيلومترات عديدة مكاناً خاصاً في حياة سكان المدينة، وهو مشجر بأشجار السنط العالية ومزئى برواق كامل من التحف المنحوتة العصرية جداً، من عندها يتجلى منظر خلاب لنافورة قوية وكأنها تتطلق من أعماق البحر، مضخاتها إلى درجة عالية من القوة تدفع الماء

إلى ارتفاع ١٥٠ متراً، لذا يمكن مشاهدة عمود الماء وغيمة الرذاذ الساقط حوله من مسافة بضعة كيلومترات. وحتى في الليل عندما تسلط عليها الأنوار القوية مع قدوم المساء والبرودة يمتلئ الشاطئ بالناس، يتسلى الأطفال في الساحات العديدة المجهزة تجهيزاً جيداً، فيمكنهم ركوب الأراجيح الدوّارة والسيارات والخيول الصغيرة والكبيرة وحتى الجمال. وعوائل كاملة تملأ مئات المطاعم الكبيرة والصغيرة على الماء التي تقدم أنواع الأطباق الوطنية وفقاً لجميع الأذواق. أولئك الذين يهتمون كثيراً بتحسين صحتهم والحفاظ عليها يتجولون ويهرولون على طرق أنشئت بصورة خاصة لهذا الغرض على مقربة من البحر. بعض الناس يفضل الجلوس فقط على الساحل ومراقبة النزول البطيء لقرص الشمس الكبير الفاتر إلى داخل المياه الهادئة للبحر الأحمر.

أما إذا خرجت إلى الساحل في الصباح الباكر فإنك بالتأكيد ستري صيادي الأسماك وهم يجهزون القوارب الخاصة بصنعتهم كما كان الأمر منذ مئات السنين. بعدها سيعودون مع صيدهم الوفير وتمتلئ سوق السمك بالضوء والروائح الحادة، فينجذب إليه محبو السمك الطازج. وقبل أن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تبدأ المحركات الصاخبة لزوارق التجوال البخارية والدراجات البخارية والسجايا الرائجة الأخرى لرياضة الماء الحديثة تزعج مياه البحر الساكنة؛ يمكن الركوب في قارب شفاف القعر أو استئجار معدات خاصة وبمساعدة مدرب (للمبتدئين) الغوص في العالم السحري تحت الماء.

ويعد البحر الأحمر من أجمل معالم الطبيعة ، رغم أن سواحله صحراوية ورتيبة. رأيته لأول مرة في زمن الصبا البعيد في السواحل الإفريقية في أول بعثة لنا إلى مصر. وأتذكر كيف أدهشتنا التظليل الحمراء على سطح مائه. وقفنا مبهورين ونحن نراقب هذه التقلبات بالألوان. علمت فيما بعد أن سبب ذلك هو انعكاس أشعة الشمس على الأدغال المرجانية، لكن بقي في الذاكرة الشعور بالمعجزة. بعد عقد من السنين سبحنا مرات عديدة واستمتعنا بنظر خليج العقبة للبحر الأحمر، على ساحله الشمالي الشرقي من جهة الأردن. وأخيراً حالفنا الحظ بالقدوم إلى ساحله الشرقي المقابل، في المملكة العربية السعودية.

والبحر الأحمر بدون شك حوض بحري فريد تتوافر فيه أكثر نماذج العالم الحيواني تنوعاً وغرابة. لا أضمن تعداد جميعها،

لكن يمكنني القول بدرجة عالية من الثقة أن الحيوانات البحرية هنا أكثر الأنواع زهاء وبريقاً وغرابة، وللأسف بعضها خطر. بين الفروع المرجانية الربداء والبراقة تمرق مجاميع من الأسماك الصغيرة بألوان مختلفة. وتمر السمكة الببغاء ملوَّحة بذيلها ببطء وتتلاًأ حراشفها بشذرات ملونة في أشعة الشمس المتكسرة. ولا بد للمراقب الصبور أن ينتظر حتى ظهور السلحفاة البحرية بالحجم الضخم جداً. وللمراقب المتمعن أن يرى الفقمة اللعوب بلونها الأخضر القاتم، التي يصعب مشاهدتها على خلفية الأعشاب المتماوجة. كان هذان الصنفان لوقت قريب على وشك الانقراض ولكنهما الآن تحت حماية الدولة.

إن العالم الحيواني للبحر الأحمر وبخاصة الأسماك منها غريبة إلى درجة، بحيث إن أسماءها المتكوّنة من تراكيب كلمات متنافرة تؤكد غرابتها. احكم بنفسك: السمكة الجراحة بزعانفها البرتغالية الساطعة، السمكة القطعة بالبقع الملونة؛ السمكة الفراشة المخططة، الملاك الإمبراطوري، السمكة الصخرية ذات الشبه الكبير بالصخرة حقيقة، السمكة القنفذ أو السمكة الكرة الأرضية. وهذه السمكة مخلوق فريد في نوعه

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تماماً. لها وجه أصفر فاقع وجسم مسطح بدرجة ما ومغطى بأشواك. وما يبرر اسمها هو أنه في حالة الخطر ترتشف الماء إلى داخلها وتتحول إلى كرة، (وبيتنا مزين لسنين عديدة بسمكة من هذا النوع محشوة. وهي تشبه الصبيرة في رأيي). إذا نزلت إلى القعر تماماً ترى أنه مزدحم بالأحياء البحرية. السمك الفهود المسطح بعيونها على الجانب الأيسر من البدن، السمك النعول المرمية بعيونها على الجانب الأيمن، تدفن نفسها في الرمل وتصبح غير مرئية تماماً لضحيتها المحتملة. والسمكة المعزة القوس قزحية تستخرج طعامها بواسطة قرون حادة تتدلى في الجزء السفلي من الرأس. كتاكيث متنوعة داخل أصداف أو بدونها، والجمبري، واللبستر والسرطان البحري، وغيرها من أنواع السرطان تقطن في هذا الحوض المائي الغني جداً. وطبعاً هناك وحوش خطيرة مثل السمكة المطرقة، بضعة أنواع من القرش، وسمك الشكات، والمورين العملاق الذي يبلغ طوله ثلاثة أمتار. ويجب إعطاء سلطات المدينة حق التقدير لإقامتها حواجز وقائية مختلفة ضد المخاطر، بحيث يستطيع السكان وضيوف المدينة ممارسة السباحة تحت الماء وصيد السمك ومختلف أنواع الرياضة المائية باطمئنان وأمان.

تنتشر في البحر الأحمر مجموعة من الجزر المرجانية، لكنها غير مأهولة باستثناء اثنتين أو ثلاث؛ بسبب عدم وجود مصادر للمياه العذبة فيها. وتنظّم وكالات السياحة رحلات إليها لمحبّي ممارسة صيد السمك. يصيدون كالسابق بواسطة عصا من القصب، لكن في كثير من الأحيان يفوق ما يصطادونه كل التوقعات. هذا يعدّ جنة للذين يقدرّون هذا النوع من الصيد. تقع الجزر المرجانية بالضبط على طريق الطيور المهاجرة التي تتوقف فيها للراحة والتفريخ. وكان صيادو السمك المحليون في القديم يصيدون المريشات المطمئنة بواسطة أفخاخ بدائية ويجمعون البيض من الأعشاش المنسوجة على الأرض. أما اليوم فالقانون يمنع ممارسة هذا العمل. وأكثر من ذلك، فقد أعلنت بعض الأمكنة وحتى جزر بكاملها على أنها مناطق محرمة.

كان البحر الأحمر منذ قديم الزمان المصدر الأساس لحياة السكان المحليين. ومع ظهور الملاحة بدأ عن طريقه اختلاطهم بالعالم الخارجي. وميناء جدة حالياً ليس مجرد محط لفخر أهالي المدينة، بل هو السلطة الرئيسية مطلقة الصلاحية للموانئ المنشأة سنة ١٩٧٦م التي اهتمت بتطويره. وأصبح الميناء جزءاً

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

لا يتجزأ عن المنظر الطبيعي الجبلي المحيط. تقوم الرافعات الضخمة ٢٤ ساعة في اليوم بلا كلل بتفريغ الطابور غير المنتهي من السفن على ٤٥ رصيفاً حديثاً وتحميلها. الحجم السنوي العام للحمولات يربو على ١٥ مليون طن. وهناك رصيف أعدّ بشكل خاص لاستقبال الحجاج القادمين لتأدية فريضة الحج، وهو يستطيع استيعاب ٤٠ ألف مسافر في آن واحد.

يقدم على مدار السنة إلى جدة من سائر أنحاء المعمورة ملايين الحجاج بالطائرات أو البواخر. وينتظرهم هنا استقبال على أعلى درجات الودّ من قبل سكان المدينة، أما السلطات فتوفر لهم ظروفًا مريحة، أظن أنهم لا يتمتعون بها في بلادهم. وتذهل الطريقة الدقيقة والمنسّقة التي تعمل بها الآلة التنظيمية في هذا التجمع الهائل من الناس الذين أغلبيتهم ليسوا في سن الشباب. يتوجه الحجاج بالضبط إلى المكان الذي تنتظرهم فيه الراحة والطعام بعد السفر المتعب. لا تضيع البضائع، وتوجد غرف خالية في الفنادق، وتقف الحافلات للتوجه إلى مكة في أماكن محددة.

وهكذا نحن نساfer إلى مكة العاصمة الدينية للمملكة، أو كما يسمونها «أم المدن» ولقبها أم القرى التي تفصلنا عنها مسافة

٨٠ كيلومتراً. الطريق العام رائع ومتعدد الخطوط شبيه بمدرج إقلاع الطائرات. والحافلة مريحة وواسعة مزوّدة بمقاعد وثيرة داعية للنوم وهواء تكييف ودورة مياه، وهي تندفع برفق نحو المدينة المقدسة. فجأة يظهر قوس ضخّم يجمع ما بين جانبي الطريق العام. وفي الجزء الأعلى منه كتاب كبير مفتوح على شكل المصحف الشريف. وهذا النصب العظيم هدية من الملك فهد للملايين المؤمنين. لا يستطيع المرور تحته إلا المسلمون. وبصورة غير ملحوظة نتجاوز مكاناً صحراوياً وجبالاً صخرية وتلالاً مدوّرة ترقد داخلها كالمهد مدينة مكة المكرمة المدينة الإسلامية الأولى، وطن النبي محمد ﷺ صاحب آخر رسالة دينية عالمية.

لا يعرف زمن ظهور مستوطنة مكورابا (مكة الحالية) قرب منبع زمزم لمياه الشرب ويعود إلى بطون العصور. كانت قبل نشوء الإسلام مكاناً لتعبّد القبائل الرحل، وكانت أيضاً تؤدي دوراً مهماً في التجارة بين آسيا وبلاد حوض البحر المتوسط. وساعدت طرق القوافل ليس فقط على تحويل المستوطنة الصغيرة إلى مدينة، بل وعلى بروز تجار محترفين وأناس متخصصين بقيادة القوافل. والعامل الكبير الآخر لتطورها

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

هو الحج الذي شمل تأثيره مناطق أخرى من الحجاز. فكان أغلب الحجاج يتاجرون بالمصنوعات التي يجلبونها معهم من البلدان المجاورة، وأحياناً بأولادهم، للتعويض ولو جزئياً عن مصاريف الطريق. وفي طريق العودة كانوا يشترون القهوة والتوابل وبضائع محلية أخرى. كانت سوق مكة تجتذب المنتجات الحرفية والزراعية من مقاطعات شبه الجزيرة العربية جميعها، وبذلك ساعدت على تطور التجارة الداخلية والعلاقات التجارية - المالية. لكن عند ولادة النبي محمد ﷺ (سنة ٥٧٠م) لم تكن مكة تمثل مدينة بقدر ما هي مستوطنة بطرقات ضيقة وبيوت واطئة. وكان الأثر المهم الوحيد فيها بالطبع المسجد والكعبة المقدسة الصغيرة بارترفاع قامة إنسان والحجر الأسود في زاويتها الشرقية، وكانت قد أقيمت في زمن ما من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل.

تربى محمد ﷺ في بيت عمه أبي طالب، الذي استطاع أن يفرس في الشاب المثل الأخلاقية العالية. وعندما نزل جبريل على النبي ﷺ وهو في سن الأربعين وأبلغه بوحي الله، نشر في مكة تعاليم الدين الجديد وأبلغ الناس أنه رسول الله تعالى. ودعا النبي أبناء بلده وقومه والبشر أجمعين إلى التخلي عن

المعتقدات الوثنية القديمة وعبادة ربهم الواحد الأحد. والعديد من سكان المدينة لم يساندوا بالطبع النبي محمد ﷺ في البداية، فاضطر هو وأتباعه للانتقال إلى يثرب (المدينة المنورة حالياً). ويسمى هذا اليوم (٢٢ أيلول من سنة ٦٢٢م تقريباً) بالهجرة ومنه يبدأ تأريخ التقويم الإسلامي. لكن جاذبية التعاليم الإسلامية وشموليتها التي تدعو قبل كل شيء إلى المساواة بين المؤمنين جميعهم والتوزيع العادل للثروة الوطنية والتقوى في نمط الحياة، بالإضافة إلى المواهب السياسية والتنظيمية الفائقة للنبي ﷺ ساعدت على زيادة كبيرة في عدد أتباعه. وفي سنة ٦٣٠م - ٦٣١م استطاع المسلمون بقيادة النبي - عليه الصلاة والسلام - إخضاع مكة، ومن ثم الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية. وبعد ذلك، كما هو معروف، استحوذ هذا الدين على أبواب مئات الألوف من الناس وأفئدتهم وشمل في انتشاره العديد من البلدان من إسبانيا غرباً إلى الهند شرقاً. وقام معتقوه الذين أنشأوا الخلافة العربية الإسلامية الواسعة واختلطوا بالشعوب التي غزوها - وهضموا ثقافتها؛ بتكوين العمران والرسم وغيرها من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

القيم الروحية الخاصة بهم، هذه القيم الحية التي أعجبت الأجيال اللاحقة.

في إحدى ليالي شهر رمضان من سنة ٦١٠م نزل جبريل على محمد ﷺ، الذي كان يختلي بنفسه للتعبد والتأمل وغالباً ما كان يقضي ساعات طويلة في التنسك على جبل حراء (قرب مكة)، ونقل إليه الوحي الإلهي وعهد إليه بمسؤولية إعلان أمر الله تعالى لقومه.

كانت مكة على مر القرون عرضة لمطامع مختلف الغزاة ابتداءً بالقبائل العربية الصغيرة وحتى الإمبراطوريات العظيمة المتتابعة. ومع الانتقال من أيدي أحد الحكام إلى آخر ظلت دائماً مكاناً للتعبّد. وفي السنين الثلاثمائة الأخيرة كان تاريخ مكة مرتبطاً بطريقة أو بأخرى بالبيت السعودي، وفي سنة ١٩٣٢م أصبحت إلى الأبد جزءاً لا يتجزأ من المملكة العربية السعودية.

في العشرينيات من القرن الماضي كانت مكة لاتزال مدينة صغيرة سكانها ملونون عددهم نحو ٥٠ ألف نسمة. استقر فيها أناس من جنسيات مختلفة (أندونيسيون وأزبكيون ومصريون وغيرهم) قدموا لغرض الحج وبقوا بصورة دائمة. لم تتغير

المدينة كثيراً خلال أكثر من ١٣٠٠ سنة، منذ زمن حياة النبي محمد ﷺ. وهكذا يصف مكة أحد المعاصرين في بداية العشرينيات:

«تحمي مكة بضعة أبراج حراسة وقلعتان. وتتمركز حياة المدينة وكل العالم الإسلامي في المسجد الرئيس بيت الله أو المسجد الحرام، وهو بناء قديم لا يتميز بجماله ولا بحجمه، له ١٩ بوابة و ٧ منائر، الكعبة فيه رائعة. ولا تفتح في أوقات الصلاة الدكاكين ولا المقاهي. الشوارع عريضة لكنها متعرجة. الماء في الآبار يميل طعمه إلى الملوحة.. فيها العديد من المدارس والمؤسسات الخيرية؛ وتقتصر الصناعة على عمل كمية كبيرة من المسابح. التجارة ضعيفة...»

إن العثور على النفط في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين واستثمار احتياطيه كان بدون شك دافعاً لنمو مكة المكرمة وتطورها، خصوصاً وأن الأمنية المنشودة لأول ملك وهو عبدالعزيز كانت جعل الأماكن المقدسة مركز جذب ومحط آمال لمسلمي العالم جميعهم. لكن الحرب العالمية الثانية عرقلت ذلك وكان المستوى المنخفض مجالات الحياة جميعها في المملكة يتطلب استثمارات مالية ضخمة. لذلك

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

تأجلت مشروعات تحضير المدن إلى آفاق أبعد. أخيراً حان وقتها. سنة ١٩٦٠م بدأ العمل بتنظيف الفضاء حول المسجد الحرام الذي كان بكل معنى الكلمة مليئاً بمجموعة من البيوتات وحيدة الطابق ومخازن ودكاكين صغيرة للتجار. تحت قيادة الملك فيصل بن عبدالعزيز وضعت آنذاك خطط إعادة بناء المسجد الرئيس والأماكن المقدسة للتنفيذ خلال ٢٠ سنة. وكنتيجة لأعمال امتدت سنوات عديدة تغير المسجد الحرام الذي يعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر والفضاء المحيط به تغيراً جذرياً، وأصبح مكاناً فريداً يُشْتاق إليه ولا يُنسى، ويناظر الغرض المخصص له.

أنشئ خلال هذه السنين نظام معقد لتصريف المياه أنقذ أخيراً المسجد والساحة الرئيسة من السيول العارمة المنحدرة من الجبال المحيطة أثناء موسم الأمطار، وبخاصة أن مستوى أرضية المسجد كان أوطأ من مستوى الساحة، وهذا أيضاً تم تعديله. شيدت منارتان جديدتان، وتم شق ممر عريض في كلا الاتجاهين يصل بين تلي الصفا والمروة اللذين كانت هاجر مع ابنها إسماعيل تبحث فيهما عن ماء في الصحراء، وكسي هذا الممر بالمرمر ونصبت فوقه سقيفة. وبنيت ثلاثة مستويات

للأرضية لكي يستطيع المصلون جميعهم رؤية الكعبة. وتم تنظيم منبع زمزم.

في سنة ١٩٨٦م أعلن الملك فهد في المدينة المنورة أنه قرر تغيير لقبه من «صاحب الجلالة» إلى «خادم الحرمين الشريفين» أي المسجد الحرام في مكة ومسجد النبي ﷺ في المدينة. ليس هذا عجباً إذا ما أخذنا في الحسبان أهميتهما التي لا جدال فيها للحياة الروحية والسياسية والاقتصادية للمملكة. هذه الخطوة النبيلة تعني أن الملك يركّز اهتمامه على المدينتين المقدستين. ويبدو وكأنه تلقى عصا التتابع من أخيه. والحياة نفسها تطلبت ذلك. ازداد عدد الحجاج الذين يسعون لزيارة الديار المقدسة وأداء الحج أو العمرة. ولم يكن باستطاعة الطرقات والمساجد الضيقة في كلتا المدينتين استيعاب الراغبين بالحج جميعهم. والتجارة والظروف الصحية عند تجمع هذه الأعداد الغفيرة من الناس لم تكن بالمستوى المطلوب. وانهارت البيوت القديمة.

عندئذ، وبالمشاركة المباشرة للملك فهد وأخويه ولي العهد الأمير عبد الله والأمير سلطان وضعت خطط ضخمة لتحديث مكة المكرمة والمدينة النبوية وإعادة بناء مساجدهما الرئيسية

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والأماكن المقدسة الأخرى. وكانت هذه الخطط بالفعل على درجة عالية من الإبداع، بحيث إن الكثيرين لم يصدقوا بإمكانية تحقيقها. استمرت الأعمال للسنتين العشر التالية. ولم يقتصر الملك على وضع الحجر الأساس ومراجعة التقارير، بل كان يراقب العمل بصورة مباشرة ويزور مناطق العمل بانتظام. وحتى انخفاض أسعار النفط وحرب الخليج لم يوقف عملية البناء. وأظهر الزمن أنه في سبيل تحقيق أهداف سامية كل شيء يصبح ممكناً إذا ما توافرت الرغبة الأكيدة والشعور بالواجب والإرادة الصلبة والمال الكثير.

ومكة المكرمة اليوم هي مدينة مساحتها تزيد عن ٧٠ كيلومتراً مربعاً وعدد سكانها يزيد عن نصف المليون، جميلة وحديثة وفريدة طبعاً. وهي فريدة ليس فقط بالأهداف المقدسة المناطة بها، بل ويزورها كل سنة بضعة ملايين من الناس من أرجاء الأرض جميعها، والسلطات أخذت على عاتقها مسؤولية تنظيم الثروة العالمية وحمايتها، والمشكلة الصعبة جداً لتوفير أفضل الظروف الملائمة لتأدية أركان الإسلام الرئيسة لمسلمي الأرض قاطبة. إنني متأكدة تقريباً أنه لو وُضع أي بلد آخر في وضع مماثل لما استطاع حل المشكلات الضخمة والروتينية

لتسهيل مناسك الحج بهذا النجاح. تتفق كل سنة الملايين من الريالات السعودية على تحسين البنية التحتية للمدينتين المقدستين وعلى المطالب المتزايدة لاستقبال المسافرين.

استطاع سكان مكة التكيف مع القدوم المستمر لأعداد غفيرة من الناس واستقبال ضيوف الرحمن استقبالاً حسناً. العديد من الفنادق الحديثة تفتح أبوابها المضيافة للحجاج، كذلك سكان المدينة الذين يؤجرون سكنهم بصورة تقليدية في موسم الحج وكذلك العمرة. لهذه الأغراض أيضاً تنظّم على أطراف مكة ألوف المخيمات المهيأة للإقامة المريحة للحجاج لمدة بضعة أيام. وهناك في خدمة المسافرين حافلات صغيرة وليموزينات (هكذا تسمى سيارات الأجرة في المملكة) وحافلات. وحضر نفق عريض داخل الجبل ينتهي بالساحة الرئيسة مباشرة. ولغرض التفاعل السريع وفي الوقت المناسب مع المشكلات التي تظهر عند الحجاج، تعمل وزارة الداخلية والحج والأمن والجوازات والمرور والخدمات.

كنتيجة لآخر تحديث للمسجد الحرام تم توسيع وتسقيف حرم الصلاة إلى ٦٠ ألف متر مربع، وبني مدخل جديد، وأصلحت المداخل القديمة، وتم تركيب أحد أقوى أجهزة

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

التكييف والتهوية في العالم. ليس فقط للفضاء الداخلي، بل وللموضع المفتوح حول الكعبة، وركبت المصاعد لتوفير الراحة للحجاج عند التنقل. ويستطيع الآن أكثر من مليونين من الحجاج إقامة الصلاة في وقت واحد.

وبدون شك هذه الأرقام جميعها مؤثرة. لكن بالنسبة للإنسان العادي، وبخاصة لمن وصل إلى هنا لأول مرة وليس له معرفة بهذه الإحصاءات، فإن كل ما يشاهد يخلف في نفسه انطباعاً صاعقاً، وبالتأكيد يثير في نفسه كذلك إحساساً خاصاً. وأنا أتذكر هذا الشعور العجيب بالسكينة وكأن الوقت توقف هموم الأمس جميعها ومشكلاته ظهرت تافهة وصغيرة. ومكة ليست مدينة كبيرة بالمقاييس الحديثة، لكنها بهية. الطرقات النظيفة المشجرة وكأنها نهيرات تجري من الجبال وتتجه نحو المركز مروراً بميادين مريحة لتصب في الشوارع العريضة. الساحات الرئيسية الأربع ليست فقط زينة للمنظر العام للمدينة، بل هي مناطق مناخية خاصة، تم فيها تركيب أجهزة خاصة ترش قطرات ناعمة من الماء البارد. وهي المكان المحب لاستراحة سكان المدينة والحجاج. المباني القديمة المعاد تشييدها والعمارات المفرطة في الحداثة على مستويات

مختلفة كأنها تتدحرج على التلال المحيطة بالمدينة بسلسلة مغلقة، يرى المسجد الحرام قلب العالم الإسلامي، من أية نقطة منها.

الساحة الكبيرة التي تبلغ مساحتها ٢٥٠,١٣ متراً مربعاً والمحيطة بالمسجد مرصوفة ببلاط مرمرى مصقول يُصنع بأشكال هندسية. وتظهر من ارتفاع شاهق وكأنها قعر كأس سيكلوبي ترتفع عند حافاتها على السفوح الصخرية عمارات مكاتب وفنادق عدد أدوارها ١٠ - ١٣ دوراً. ورغم ذلك فإن الحرم يسيطر على المنظر العام المحيط به. مبنى بيت الله نفسه عبارة عن مكعبة عملاقة مضلّعة وملبّسة بمرمر ذي لونين، لها مدخل رئيس و ١٨ من المداخل الاعتيادية مقنطرة أبوابها ومزينة بنقوش من نحاس أصفر. وفي زوايا هذا المضلّع ترتفع إلى السماء الواسعة منارات جليلة ارتفاعها بضع عشرات من الأمتار بأهلة ذهبية. وتدعو القناطر المزخرفة لمداخله إلى الدخول نحو الظل البارد. ويخلع الحجاج أحذيتهم هنا ويدخلون إلى غابة تضم أكثر من ٥٠٠ عمود أنيق تيجانها مشجرة، وهي مزينة بفسيفساء مرمرية ورسوم زخرفية وكتابات فنية دقيقة النحت وسقيفة مستوية دائرية ضخمة.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

السقوف الوردية الفاتحة مزينة بأنواط وزخارف عربية مذهبة وحلزونات ومثمنات وغيرها من الأشكال. الأرضيات مفروشة بسجاجيد لا تعد ولا تحصى. تشعر بالبرودة رغم أن القناطر المدرجة تطلّ على الساحة المركزية المفتوحة التي يعلو في وسطها مكعب الكعبة الأسود المنقوش بالذهب. وصفوف المصلين التي لا تحصى توجه أنظارها نحوه. الحرم هو المسجد الوحيد في العالم الذي ليس فيه محراب للقبلة كما هو الشأن في جميع المساجد والجوامع الأخرى وهو الفجوة المتجهة نحو البيت الحرام.

ترقد الكعبة الحديثة على بناء يعود إلى زمن النبي إبراهيم عليه السلام - . وعلى مر تاريخها الطويل أعيد بناؤها مرات عديدة وتغير حجمها وعدد أبوابها، حتى إنها تعرضت لحريق. الحجر الأسود المثبت في زاويتها الشرقية على ارتفاع متر ونصف المتر من الأرض كان أيضاً قد انكسر إلى ثلاثة أجزاء، ثم جمعت هذه الأجزاء وربطت بشريط عريض من الفضة الخالصة وثبت في المكان الذي كان النبي إبراهيم قد وضعه فيه. الحجر الأسود له شكل بيضاوي لونه بين أحمر وبنّي وأسود بأجزاء صفراء، حجمه نحو ١٧ سنتمترًا بالقطر

وله سطح متعرج. لكن جزءه الأمامي مصقول لحد اللمعان بالبلابين من لمسات وقبيلات الحجاج.

من المعروف أن الكعبة كانت منذ عهد ما قبل الإسلام تغطى بالكسوة. لكن كان لونها ونوعيتها يعتمدان على ذوق أولئك الذين كانت مكة تحت عهدهم من حكام مصر أو تركيا أو اليمن. كانت في مرحلة الإسلام المبكر بلون أبيض وأحمر وكانت تخاط من القماش المقصب، وخلال حكم الإمبراطورية العثمانية كانت تخاط من القماش القطني والحريري. لكنها كانت في الأزمان جميعها تزيّن بتطريز متفنن ومنذ ظهور الإسلام بزخارف عربية وآيات من الذكر الحكيم منقوشة بخيوط ذهبية وفضية. صنعت الكسوة الحالية في معمل خاص لحياكتها، افتتح سنة ١٩٧٥م هدية لمكة المكرمة من الملك الحاكم فهد، ثمنها ٥ ملايين دولار. (تطرز فقط باليد من الرجال).

تناولت الترميمات منبع زمزم أيضاً. وأنشئ على نفقة الملك الخاصة معمل لصنع القناني البلاستيكية لماء زمزم الذي أصبح يوزع على الحجاج مجاناً. وأقيمت مئات المسابيل والمغاسل والأجهزة لتروي من العطش. من المعروف أن اسم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المنبع مرتبط بمقولة قديمة هي: أن جبريل عليه السلام الذي أرسله الله إلى هاجر وابنها المحتضرين من العطش ضرب بجناحه فحفر منبعاً للماء العذب عند قدم الطفل. وعندما رأت هاجر هذه الأعجوبة هتفت «زمي زمي»، وهكذا لا ينفد ماء هذا المنبع المقدس منذ ما يزيد على ٤ آلاف سنة! وتقليدياً يقوم الحجاج بشرب الماء النفيس وصبه على الرأس والبطن والظهر. ثم يأخذون بضع جرعات أخرى ويلهجون بالدعاء مبتهلين إلى الله العزيز القدير .

بعد أعمال التقوى يعود السكان إلى بيوتهم فتصبح الشوارع والطرقات خالية. فقط في الساحة الرئيسة حول المسجد الحرام يمشي المؤمنون المبتهجون سابحين في بحر من النور الذي يغمر المسجد الرئيس. وهو هنا من الكثرة، بحيث إن مئات النوافذ المضيئة على التلال المحيطة بالمكان تظهر وكأنها نقط باهتة. أنا لم أخلق بالطائرة فوق مكة في الليل، ولكن أستطيع أن أتصور الجمال المتفتح أمام المسافر في الجو إذا تمكن من النظر في الوقت المناسب إلى الأنوار. أتصور ذلك من هناك وكأنه مشبك وحوله حقل من الأنوار الناعمة على صدر الأرض.

على مسافة ٤٠٠ كيلومتر إلى الشمال من مكة في واحة واسعة تقع المدينة النبوية، مدينة رسول الله ﷺ، ومهد الدين الإسلامي ومنبع النور، ثاني مدينة مقدّسة في المملكة العربية السعودية. سكانها متنوعون ويشكلون نحو ١,٥ مليون نسمة. لا يعرف زمن تأسيس المدينة ولكن يهمننا أكثر من ذلك الناحية التاريخية ابتداءً من أيلول (سبتمبر) سنة ٦٢٢م وهو زمن هجرة النبي محمد ﷺ إلى يثرب.

في ذلك الوقت اضطر الرسول محمد ﷺ وأتباعه الذين غادروا مكة إلى قطع طريق مسافته ٣٦٣ كيلومتراً عبر الصحراء. عند بوابة المدينة رحّب أهلها بالقادمين بالتهليل. وفي المكان الذي توقفت فيه ناقته ﷺ لأول مرة أمر النبي ﷺ بتشيد بيت الله المسمى قباء، وهو أول مسجد إسلامي في تاريخ البشرية. (وكان هذا في ذلك الوقت بناءً صغيراً من مزيج الطين والتبن).

كان كل واحد من سكان المدينة يتمنى أن يكون عنده ضيف بهذه الأهمية في بيته، لكن النبي لم يرغب أن يميز أحداً لئلا يجرح الآخرين. لذا طلب من السكان السماح له بالنزول في المكان الذي تختاره ناقته، فوجدت هذه فضاءً خالياً.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

في هذا المكان بنى فيما بعد مسكنه. وخلال السنين التي تبعت ذلك كان النبي يتلقى وحي الله في مكة وفي المدينة، بواسطة جبريل عليه السلام، بما في ذلك الأركان الخمسة للإسلام، وبشّر الناس بالدين الحق «الإسلام» وسمي الذين يتبعونه «بالمسلمين».

بعد ٨ أشهر من الهجرة وبعد أن أبلغت إليه النبوءة بأن شخصاً من آل النبي إبراهيم سيظهر يوماً ما بيت الله من الأوثان، عاد محمد منتصراً إلى مكة وهناك - كما نعلم - حقق ما كان يجب أن يتحقق. لكنه عاد أكثر من مرة إلى بلدته المحبوبة المدينة، حيث فهم دينه وقُبل بسرور. في سنة ٦٣٢م بعد مرض قصير الأمد توفي النبي ﷺ في مسكنه في المدينة. وبعد مضي بعض الوقت تم في هذا المكان تشييد إحدى أكثر المنشآت المقدسة عند كل مسلم - مسجد النبي محمد ﷺ الذي يضم منزله وقبره.

منذ بداية تنفيذ الخطط الضخمة لتحديث المدينتين المقدستين وتحت المراقبة اليقظة من خادم الحرمين الشريفين وأخويه ولي العهد الأمير عبدالله والأمير سلطان نالت المدينة المنورة، وبخاصة مسجدها الرئيس إصلاحات أكثر توسعاً

وأصالة حتى من مكة المكرمة نفسها، وكان المدينة ولدت من جديد. فأصبح لها مطار ضخم باستطاعته استقبال أنواع الطائرات جميعها، ومركز صحي مجهز تجهيزاً رائعاً، ومجمع رياضي مفرط بالحدثة، وعمارات عالية، وحدائق جميلة، وشوارع عريضة، وشبكة من طرق السيارات المناظرة للمواصفات العالمية. وتم مد أنابيب نقل المياه عبر الصحراء وخلال الجبال من ساحل البحر الأحمر طولها ٢٢٠ كيلومتراً من معامل تحلية المياه، وهو ما أعطى دفعة قوية لتطور مختلف مجالات الصناعة، وتم إخلاء الساحة وهدم جميع المباني القديمة جميعها ورصف ثلاث حلقات من طرق السيارات حول المسجد النبوي، كذلك أنشئت الجسور والأنفاق والتقاطعات التي بواسطتها يسهل الآن الوصول إليه من أي مدخل إلى المدينة. ليس فقط إلى المسجد، بل إلى المعالم الأخرى للمدينة. وبصورة عامة فإن تجديد كل ما يتعلق بحياة النبي ﷺ وحمايته مستمرة وبعناية فائقة. لذا فإن الشخص الذي يأتي إلى المدينة لأول مرة يشعر دائماً بالحضور الخفي للنبي ﷺ.

تكلّمت سابقاً عن قباء المسجد الإسلامي الأول الذي أقيم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عند مدخل المدينة المنورة القديمة (كانت المدينة بأكملها تشغل آنذاك مساحة صغيرة محاطة بسور قلعة بأربع بوابات وبشارعين متقاطعين بزواوية قائمة منتهيين بها). يشمخ الآن في هذا المكان مسجد أنيق من الحجر الأبيض بُني على الطراز الإسلامي تغطيه ٦٢ قبة ومكّلاً بأربع منائر مزخرفة طول كل واحدة منها ٤٢ متراً. وتُحجب أشعة الشمس الحارقة عن الفناء الداخلي بواسطة سقف خاص يمكن فتحه عند الضرورة. يشغل مسجد قباء أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة متر مربع، ويمكنه استيعاب ٢٠ ألف حاج. وزرعت حول المسجد حدائق جميلة وبساتين نخيل كثيفة.

وهذه المدينة المقدسة غير داخلة في شعائر الحج. لكن النبي ﷺ رغب في زيارة مسجده والصلاة فيه. لذا لا يفوتُ الحجاج القدوم إلى مدينة الرسول ﷺ. فتمتلئ شوارعها على مدار السنة بالمؤمنين الراغبين بزيارة جميع الأماكن المرتبطة باسم النبي ﷺ وبتاريخ الإسلام والصلاة فيها.

ومسجد القبلتين فريد في نوعه: فهو بيت الله الوحيد الذي له قبلتان. فكما هو معروف كانت القبلة خلال العهد الأول

من الإسلام متجّهة نحو القدس. وفي أحد الأيام أنزلت على النبي محمد ﷺ أثناء صلواته في هذا المسجد آية تأمره وتأمّر المسلمين بالتوجه صوب مكة. ومن ذلك الحين وحتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة يتجه مسلمو العالم جميعهم بوجوههم ٥ مرات في اليوم والليّلة نحو الكعبة المقدسة. أما القبلّة الثانية لهذا المسجد فقد أبقيت لتذكّر بالماضي. أما في بيوت العبادة الأخرى فقد ردمت فيما بعد المحاريب الأخرى.

في مسجد الغمامة كان النبي ﷺ يصلي كثيراً ويقوم صلاة الاستسقاء أي طلب نزول المطر من الله عز وجل. وفي مسجد الجمعة دعا المؤمنون لأول مرة لإقامة الصلاة الجامعة. أما الميقات فقد بني في الوادي المبارك، حيث توقف في إحدى المرات عند إنجاز الحج ليغيّر الملابس الاعتيادية بالإحرام (وهو قطعتان من القماش الأبيض). وتحوّل بعد إصلاحه وأصبح تجمعاً يشغل ٨٨ ألف متر مربع، ويستطيع استقبال خمسة آلاف من المؤمنين. هذا المسجد فريد في نوعه، حاله حال المساجد الأخرى في المدينة.

أما مسجد النبي ﷺ فقد تمّت فيه إصلاحات عديدة، بين توسيع وتجهيز بأسباب الراحة التي ليس لها مثيل في العالم،

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أنجزت من قبل العديد من شركات البناء المشهورة من مختلف البلدان. علماً بأن المهندسين الغربيين كانوا يشرفون على الأعمال من مسافة خارج المدن المقدسة المحرمة على غير المسلمين بواسطة أحدث وسائل الاتصالات التلغرافية. وتم إنتاج شريط تلفزيوني يسجل مراحل هذا العمل الفريد جميعها.

يشغل مجمع المسجد النبوي الآن مساحة ١٧٠ هكتاراً، وهي ما تساوي مساحة المدينة كلها في زمن النبي ﷺ وباستطاعته استقبال مليون من المؤمنين في آن واحد. وتستطيع هذه الأعداد الغفيرة من الناس المرور من خلال أبوابه العريضة بدون مشكلات. وفيه ١٨ مصعداً تمكّن الزوار من الصعود على السقف والنزول إلى مكان الصلاة. وتمّ تشييد طرق مواصلات من تجهيزات خاصة خلال نفق طوله سبعة كيلومترات لضمان عمل منظومات الطوارئ وتوزيع الصوت وإطفاء الحريق والتهوية وتكييف الهواء ٨٢ ألف متر مربع من الطابق الأرضي مملوءة تماماً بأحدث الأجهزة التقنية بما في ذلك الحاسبات الإلكترونية. وتنجح المنظومة السمعية الفريدة في تهيئة نظام سمعي متوازن بدون صدى وبدون اختلاف في الزمن في أرجاء

هذا البناء الأرضي جميعها. منظومة إطفاء الحريق ليست أقل كمالاً.

ويوجد مواقف سيارات تحت الساحة الرئيسية يسع لأربعة آلاف سيارة. الحمامات المرتبطة بالمسجد مزودة بـ ٥٦٠٠ مغسلة و ١٨,٩٠٠ مرحاض و ٦٩٠ حنفية لماء الشرب. جملة عدد المصاعد في المسجد ١٣٤ مصعداً تساعد على التنقل السهل والسريع للمؤمنين، خصوصاً في أكثر أوقات الزيارة ازدحاماً. لا يمكنني المرور بدون الكلام عن المظلات الضخمة القابلة للتوجيه ميكانيكياً الموضوعة على السقف، والغرض منها حماية المصلين من أشعة الشمس الحارة. وكذلك عن ٢٧ ساحة جديدة للصلاة مزودة بقباب متحركة انزلاقياً! وأظن أن هذا كلمة جديدة تماماً في الفن المعماري. تصور أنه يمكن الآن حسب الظروف المناخية الضغط على زر لتحريك قبة سقف مزين باللصق بفض رفيع كما لو أنك تحرك غطاء علبة. إن قراري بإعطاء هذه الأرقام جميعها ليس الغرض منه عرض معلوماتي المتخصصة، بل لكي يستطيع القارئ بواسطتها تصور عظمة الإنشاءات وضخامة التحولات والأموال المنفقة. في السنين العشر الأخيرة تم إنفاق أكثر من ٧٠ بليون ريال (أي

١٨,٧ بليون دولار!) بالتمام والكمال.

أعيد بناء مسجد النبي ﷺ أكثر من مرة خلال عمره الطويل، وقد احترق في القرنين الثالث عشر والخامس عشر. ولكن في كل مرة كان يعاد إنشاؤه بعمل كدود. أما اليوم فهو بناء جليل ملبّس بحجر الجرانيت بني فاتح اللون بمنازل رشيقة من المرمر الأبيض متوّجة بأهلة مذهبة. الأشكال الصارمة لواجهته تعكس بساطة وتقشف النبي ﷺ، وهي ليست متسمة بالأبهة كالمسجد الحرام. الساحة حول المسجد التي ينعكس فيها كالمراة هي كما لو كانت استمراراً طبيعياً له. وهي في الواقع سجادة حجرية ضخمة بديعة «منسوجة» من أجمل وأصلب الأصداف ومصقولة بحيث إنها تعكس أدق التفاصيل بلونها الطبيعي. ينعكس في مرآة الساحة كذلك الصف اللانهائي من المصابيح الكهربائية المنصوبة على كل ساحاتها. بصراحة ليس من الملائم تسميتها بمصابيح كهربائية، الأحرى أنها أنصاب من الجرانيت طولها ١٠ - ١٢ متراً، تحف فنية مزينة بزخرفة حجرية ومشبكات برنزية دقيقة وبزجاج بلوري (كريستالي) سماوي اللون.

يعرض المظهر الداخلي لمسجد النبي ﷺ وقبره الإمكانات الفنية ورهافة الذوق. ولن أصف السقوف المزخرفة والأقواس الأنيقة والثريات الفريدة والترايع المطلية ومشبكات النوافذ المبتكرة. ربما النعوت لا تكفي لهذا الغرض، وهو يحتاج إلى معلومات متخصصة.

أخيراً أود قول بضع عبارات عن منشأة أخرى شيّدت في المدينة المنورة سنة ١٩٨٥م، وهي: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الذي وضع الملك فهد حجر أساسه الأول. تتم هنا دراسة القرآن الكريم وتفسيره وترجمته إلى لغات عديدة، وإصدار طبعات كثيرة النسخ من المصحف الشريف والحديث النبوي، كذلك نشر أشرطة كاسيت تسجل عليها تلاوة آيات الذكر الحكيم بأصوات خير المرتلين والمقرئين وأشهرهم. وهو منشأة وحيدة من نوعها في العالم تمتد على مساحة ٢٥٠ ألف متر مربع يعمل فيها ١٧٠٠ اختصاصي رفيع المستوى من مختلف الفروع المعرفية. تعمل في وسطها مطبعة وأستوديو للتسجيل الصوتي، مجهزان بأحدث التقنيات، ومجلس للبحث العلمي، ومجلس استشاري، ومجلس لغوي، ولجان متخصصة بالدراسات الإسلامية وغيرها. يصدر هذا المركز في السنة ٧

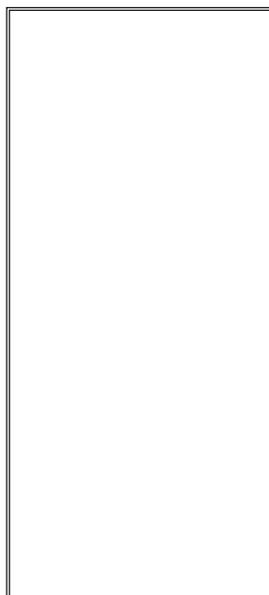
المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ملايين نسخة من المصحف و ٣٠ ألف كاسيت، ويرسلها مجاناً إلى جميع المسلمين في العالم. هذه طبعاً هدية للمؤمنين لا تقوّم ولا تثمّن.

في يوم افتتاح المركز كتب الملك فهد في سجل زوار الشرف: «كنت هنا قبل سنتين لوضع حجر الأساس لهذا المشروع العظيم في هذه المدينة العظيمة... وأرجو من الله العليّ القدير أن يكمل عملي بالنجاح في خدمة ديني وبلادي وسائر المسلمين».

المنطقة الشرقية



ننتقل الآن مقتربين من الخليج (العربي الفارسي) إلى المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية أو - الحسا - الأحساء. وهي تقع بين الكويت (إلى الشمال) وقطر والبحرين (إلى الشرق) والإمارات العربية المتحدة وعمان (إلى الجنوب). ولها شريط ساحلي طوله ٧٠٠ كيلومتر. وتوجد هنا أكبر المكامن النفطية في العالم، ما يقرب من ربع مجموع الاحتياطي العالمي. كانت النخيل والبحر في زمن ما الثروة الرئيسة لهذه المنطقة. برغم أن الناس هنا كانوا يعيشون في بحبوحة أكبر بالمقارنة بوسط شبه الجزيرة العربية. تنتشر بين السلاسل اللامتناهية من الكثبان الرملية المتقلة والأراضي المالحة الجافة مجموعة كبيرة من الواحات الجميلة وبساتين النخيل الكثيفة.

وبالمناسبة تشغل هذه المنطقة إحدى المراتب المتقدمة في إنتاج التمور، وبالإضافة إلى هذا الثمر المفيد الغني بالكلوريات كان يزرع هنا الدخن والشعير والقمح والخضراوات. وكان يصنع

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الجبن والروب من حليب الماعز. وكان سكان السواحل يشتغلون بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ. كانت القوافل الطويلة تسير على الطرق المألوفة من سوريا وما بين النهرين (العراق حالياً) فيما يسمى « درب البخور» إلى عمان واليمن والهند البعيدة والصين. وكانت تسير بمحاذاة الشريط الساحلي متجنّبة الأراضي المالحة عديمة الحياة وتموجات التلال الرملية الساكنة وتعمق في البر للتبادل السلعي في الواحات وزيادة احتياطات الطعام والماء. ولم يكن أي من التجار المتمايلين فوق ظهور جمالهم الكادحة يتصور أن تحت أقدام حيوانه المطيع وفي عمق الأرض ثروة لا ينضب معينها. مر الزمن بهدوء وبدون استعجال، وكان يبدو وكأن الحياة هنا لن تتغير أبداً ولن تستبدل نظامها الاعتيادي.

لكن وقع ما وقع، الاحتياطات الهائلة من الذهب الأسود التي اكتشفت أواخر الثلاثينيات من القرن الميلادي الماضي غيرت حياة سكان هذا البلد الكبير من الجذر. فبدأ عصر جديد في تاريخه خلف تأثيراً كبيراً على المجتمع السعودي ربما يمكن مقارنة عمقه بتأثير الإسلام.

أما خلال مدة ما قبل المرحلة النفطية فقد كانت المملكة

العربية السعودية - كما سبق أن ذكرت - بلداً شديد التخلف جداً مهتماً بالزراعة ورعي المواشي بتركيبة إقطاعية مهيمنة. وكانت الصناعة على مستوى معامل النسيج. وكانت الغالبية العظمى من السكان تمارس نمط حياة الرحل وشبه الرحل. وكان الاستيراد يوفر القسم الأكبر من استهلاك السكان. ولم يكن هناك سيارات حديثة أو طرق السكك الحديدية. وكانت الجمال هي الوسيلة الأساسية للتنقل. لم يكن هناك مطلقاً وسائل اتصال متطورة، وفي بضع المدن فحسب كانت تعمل محطات كهربائية ضعيفة، كانت تشكل المصدر الأساس لواردات الخزانة تلك الرسوم الجمركية القليلة والواردات من أتاوة الحجاج الذين تقلص عددهم بصورة حادة بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية في السنوات من ١٩٢٩ - ١٩٣٣م.

في هذه الظروف الصعبة جداً على البلاد اتخذ الملك عبدالعزيز قراره بضرورة منح امتيازات للشركات النفطية الأمريكية وغير الأمريكية. وبعد محادثات طويلة وصعوبات مفاجئة تمّ التوقيع على اتفاق مع الشركة الأمريكية سوكال (أرامكو فيما بعد) يمنحها الحق الاستثنائي بالتنقيب عن النفط السعودي واستثماره وتصديره مستقبلاً في أراضي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المنطقة الشرقية جميعها. ومن هذه اللحظة باستثناء سنوات الحرب العالمية الثانية بدأ تطورها الاقتصادي السريع.

عثر على أولى الاحتياطات النفطية الصناعية سنة ١٩٣٨ م. وبعد أقل من سنة أبحرت من ميناء رأس تنورة أول ناقلة للوقود السائل. ورغم أن الأعمال الجيولوجية التنقيبية والحفرية توقفت بسبب الحرب، إلا أنه كان واضحاً آنذاك أنه تم العثور في هذه المنطقة على احتياطات نفطية خيالية. ومنذ نهاية الأربعينيات نمت على هذه الاحتياطات وبسرعة مدن صناعية حديثة: الدمام، الظهران، الجبيل، والخبر.

الدمام هي المركز الإداري للمنطقة الشرقية، وهي أكبر وأهم ميناء بحري، وهي المحطة النهائية لخط السكك الحديدية الوحيدة في المملكة العربية السعودية. وهي مدينة فنية بُنيت في السبعينيات من القرن العشرين بخطة موحدة؛ أحياء سكنية مغمورة بخضرة كثيفة تقع على مسافة كافية من الحي الصناعي حيث تتمركز المعامل الصناعية العديدة، وكذلك ميناء تجاري ومعمل لتحلية مياه البحر يُنقل عبر أنابيبه التي تمتد كيلومترات عديدة الماء الصافي إلى الرياض والأماكن المأهولة الأخرى من البلاد. ويوجد فيها متحف آثار وأثنوغرافيا، حيث تعرض أدوات

العمل القديمة والملابس التقليدية للبدو والأشياء الحياتية. وتمتد بمحاذاة الشاطئ لمسافة بضعة كيلومترات طرقات مظلمة تابعة للطريق البحري، حيث يتنزه السكان المحليون في الصباح الباكر أو ساعات المساء.

تقع مدينة الظهران على بعد بضعة كيلومترات من الدمام وتتمركز قربها ٤٠ بئراً من آبار النفط الأساسية. وتمتد من هنا آلاف الكيلومترات من الأنابيب نحو واحد من أكبر أربعة معامل لتكرير النفط في العالم في رأس تنورة. من هذا الميناء الذي اختاره في وقت ما الملك عبد العزيز في فجر العصر النفطي تبحر الناقلات الضخمة بالنفط السعودي إلى أمريكا وأوروبا واليابان. الظهران هي قلب الصناعة النفطية. ويوجد المركز الإداري لشركة أرامكو. وتعمل فيها جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وهي عبارة عن مجمع كامل من الأبنية الحديثة المحاطة بحدائق فيها نافورات وشلالات وبرج لضخ الماء يعدّ من المعالم العمرانية. وفي داخل الحرم الجامعي مسجده الخاص وقاعة كبيرة للاجتماعات ومكتبة غنية ومعرض دائم يعكس مراحل تطور الصناعة النفطية والغازية في البلاد جميعها.

على بعد ٩٠ كيلومتراً إلى الشمال من الدمام نمت من الصفر

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

مدينة الجبيل في مكان قرية صغيرة لصيادي السمك. الجبيل ميناء صناعي وتجاري كبير والمركز الصناعي الرئيس في المملكة العربية السعودية، حيث تمركزت المعامل التقنية النفطية ومعامل تصفية النفط وغيرها مما له علاقة بدرجة أو أخرى بالذهب الأسود. وكان قد أعطي للمستوطنة هذا الاسم بسبب الجبل الصغير الواقع قربها. ورغم أنها منذ بداية البناء سويت القرية بالأرض، فإن الاسم لم يفقد معناه ومبناه. تقف مدينة الجبيل اليوم على هضبة ترايبية ارتفاعها ثلاثة أمتار أقيمت من ألوف الأطنان من التربة التي جلبت خصيصاً لهذا الغرض. وتكفي هذه الكمية لتغطية أرضية ٦٧ ألف ملعب لكرة القدم على ارتفاع متر واحد. أغرقت هذه المدينة المرفوعة فوق السطح بخضرة أكثر من مليون شجرة وفرشت حيث أمكن ذلك بسجاد من العشب المرتب. ثلاث قنوات تمتد من البحر إلى المنطقة الصناعية، ورغم أن مياهها تشارك في العملية الصناعية إلا أنها تعود أكثر نقاوة من الناحية البيئية مما كانت عليه.

هكذا فإنه بالإضافة إلى الوظيفة العملية تقوم هذه الإنشاءات بتأدية مهمة جمالية كونها زينة ومكان استراحة للمدينة. ويتعرج الطريق العام البالغ طوله عدة كيلومترات بمحاذاة الشريط

الساحلي، حيث يجتمع في الأمسيات كل سكان الجبيل تقريباً. يلف العيش والعمل في هذه المدينة ولا تزعج تلك الغابة البعيدة من الأعمدة الساطعة في المنطقة الصناعية. وبالمناسبة، يعمل هنا وفي الرياض أيضاً وبنجاح بضعة مختصين من أذربيجان. قومت إدارة أرامكو والجامعات نشاط أساتدتنا الكيماويين ومعلوماتهم الفائقة عالي التقويم وعبرت عن استعدادها للتعاون مع علمائنا لسنين طويلة.

يوجد في الجبيل، كما في المدن الفتية الأخرى للبلاد، متحف بمعروضات قليلة، لا تقارن طبعاً بأكثر المتاحف تواضعاً في الدول المتطورة.

ومع ذلك فإنه عند زيارة هذه المؤسسات تذهلني دائماً عناية السلطات بكل ما يحدث، ورغبتها الأكيدة بتسجيل هذه المدة التاريخية من حياة المنطقة، القصيرة والسريعة جداً والغنية بالأحداث للأحياء في يومنا ولأجيالهم المقبلة.

تبقى إضافة أخرى وهي أن الجبيل مسجلة في سجل غينيس للأرقام القياسية بوصفه أكبر مشروع بناء منجز في العالم. وتم لإنجازه تجميع اختصاصيين من ستين جنسية مختلفة.

ولا تشتهر المنطقة الشرقية بالنفط وحده، وإنما بحقولها

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الزراعية الواسعة (بالمقاييس السعودية) وبالمدين والواحات. وتم الحفاظ في هذه الأخيرة على أبراج الرياح وعلى العديد من البيوت السكنية القديمة ذات الأبواب المصبوغة بأصباغ طبيعية وبألوان زاهية والشرفات المغلقة بالخشب المزخرف. كانت الطوابق الأولى من هذه البيوت تستخدم بوصفها مكاناً لتخزين التمور وهي عملة سكان المنطقة في ذلك الوقت. وأكثر المناطق جمالاً هي واحة الهفوف وهي أكبر واحة على وجه الأرض ومغمورة في خضرة بساتين النخيل وأشجار الطرفاء. ويوجد هنا العديد من مصادر الماء والطعام للطيور المهاجرة إلى جنوب شبه الجزيرة. لذا تمتلئ الأدغال المظلة بأصوات سقسقة الطيور المريشة وتفريدها الرنان منذ طلوع الشمس حتى مغيبها. في وسط الواحة وبين الخضرة الهائجة يختبئ جبل كرة بسفوحه العمودية المنخورة بالرياح وبمغارته الباردة المظلمة والمتعرجة. تقول الأسطورة: إنها كانت دائماً ملجأً أميناً من الأعداء في الحروب القبلية المستمرة في القرون الماضية. بالقرب من جبل كرة توجد قرية يصنع فيها الفخار حتى الآن بالطريقة القديمة للتجفيف في أشعة الشمس. وتنقش بزخارف ساطعة ومطلوبة كثيراً من قبل السياح. تشتهر الهفوف أيضاً

بقلعة باقية من القرن الثالث عشر وبمسجدين قديمين وقصر الأمير وسوق تقليدية كبيرة للجمال. هذا المكان غريب وجذاب. إذا سنحت الفرصة لأي من القراء لزيارته فلا ترفض ذلك. سوق الجمال هذه معروفة في المنطقة نفسها وفي دول الخليج المجاورة. ويمكن هنا شراء الجمل أو الحصان أو الصقر أو الببغاء أو الحمار الأبيض الذي تشتهر به المنطقة الشرقية خاصة وأية مصنوعات يدوية من الصوف أو السعف أو النحاس الأصفر أو الفخار أو الخشب، وكذلك الحلي اليدوية القديمة والحديثة.

وبالقرب من واحة القطيف، ويعني ذلك «الماء العذب»، وفي المياه الفيروزية المسطحة للخليج (الفارسي) العربي توجد جزيرة صغيرة اسمها تاروت. وحسب رأي علماء الآثار كانت هنا أقدم مستوطنة وجدت في المملكة العربية السعودية. وكانت هذه المستوطنة أحد المراكز الرئيسية للحضارة السومرية التي كانت مزدهرة في جنوب بلاد ما بين النهرين قبل خمسة آلاف سنة مضت. كانت المدينة مشهورة بالدرجة الأولى بفضل سوق بيع اللؤلؤ والأحجار الكريمة، وكانت تعد حلقة الوصل بين شبه الجزيرة العربية وأقدم المراكز في الأراضي التي هي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الآن باكستان وإيران ومصر. في القرن السادس عشر قام آخر غزاة شبه الجزيرة العربية بإعادة تعمير بناء القلعة وإكمالها - الحصن في جزيرة تاروت - وكان لها في وقت ما أهمية إستراتيجية كبرى. أما اليوم فقد نشأ هنا موقف متضارب طريف. فبينما كان وجود المرأة في القلعة وكذلك على السفينة شيئاً غير طبيعي، فإن دخول ممثلي الجنس الخشن إليها اليوم ممنوع منعاً باتاً، فقد هبَّت هذه الآثار الجليلة لتكون مرتعاً لراحة النساء واستجمامهن.

يوجد بمحاذاة الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية عدد كبير من الجزر يمكن العثور في بعض منها على آثار حصون تركية قديمة. كانت الإمبراطورية العثمانية في عهد ازدهارها تهتم بحماية أطرافها، وهي اليوم مناطق تجذب محبي النزهة.

والخبر هي أكثر مدن المنطقة الشرقية فتوة. كان سكانها قبل العصر النفطي يشغلون بالدرجة الأساسية باستخراج اللؤلؤ. أما اليوم فهي مدينة عصرية متعددة الجنسيات بمركز أعمال شاهق الارتفاع ومطار دولي يخدم المنطقة كلها ورصيف ضخمة مجهز لرسو ناقلات النفط التي تنقل الوقود إلى البحرين

لإتمام تصفيته والعديد من الفنادق والمحال البديعة التي فُتحت من قِبَل أكثر الشركات العالمية شهرة، والحدائق والمطاعم ومراكز الألعاب.

وكنت هنا مع زوجي أكثر من مرة في طريقنا إلى البحرين. تركت هذه المدينة الفتية فينا أطيّب الانطباعات بشوارعها العريضة المشجّرة وواجهات محالها المتألّئة وشواطئها البديعة. لكن ما بقي في ذاكرتنا بصورة خاصة هو مركز تجاري بمئات المحال والمطاعم وساحات الأطفال ونافورة مدهشة، سيولها الرفيعة - التي ينظمها الحاسب الآلي - شبيهة بأنابيب زجاجية تتعرج وتتلوى وتتصادم فتجمع حولها باستمرار المشاهدين الفضوليين.

بقي في الذاكرة أيضاً الانطباع الذي لا ينسى عن زيارة المطعم الدائري للمواد الغذائية البحرية الذي يذكر أثاثه الداخلي بجانة قديمة. وجدرانها مبطنّة بألواح خشبية غامقة اللون وكأنها محروقة نصبت داخلها أحواض مائية فيها حيوانات بحرية غريبة، وعلقت في كل مكان حبال (أمراس) وأجزاء أشرعة لمراكب قديمة مصممة على النمط القديم. أما الجدار الزجاجي الخارجي فهو على شكل قوس يطل على البحر الممتد خلف الأفق، وبذلك تشعر وكأنك على ظهر مركب.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وعند المدخل وُضع نموذج طوله متر واحد لقارب صيد مصنوع بمهارة مع المعدات الضرورية جميعها على قطعة خشبية قديمة كأنها كانت داخل ماء البحر ليس أقل من مئة سنة. في الصالة الرئيسة وخلف زجاج الثلجة ترقد جميع الأصناف الممكنة من الحيوانات البحرية: سلطعونات وسرطانات بحرية وكركنات (لوبسترات) والجمبري وأشكال مختلفة من السمك وكلها بأحجام كبيرة غير اعتيادية. اقترحوا علينا هنا اختيار ما نرغب أن نتذوقه من هذا كله، وجلسنا حول مائدة خشبية ضخمة مغطاة بغطاء من قماش القنب كان عليها سلة مليئة بأرغفة طازجة مشوية بالجبن تفوح منها رائحة لا مثيل لها، بحيث إننا شبعنا تقريباً قبل أن يقدموا لنا الوجبة الأساسية التي طلبناها. أنا بصورة عامة لست من محبي الأطعمة البحرية، لكني لن أخطئ إن قلت إنني لم أتذوق في حياتي مثل هذه الوجبات اللذيذة! وقد عرضنا مع أصدقائنا خبرة حقيقية في التذوق بتذوقنا أنواع الأكلات اللذيذة جميعها لتلك المنطقة تقريباً.

في سنة ١٩٨٦م تم إنجاز مشروع هندسي فريد، وهو أحد أطول الجسور في العالم كقنطرة طولها ٢٥ كيلومتراً من شواطئ مدينة الخبر إلى البحرين (مملكة البحرين حالياً). وهو يحمل

اسم الملك فهد؛ لأنه بني بالمشاركة المباشرة للملك وبأموال عربية سعودية (تم إنفاق ٨٧٠ مليون دولار). وقدّم فائدة عظيمة لتطور العلاقات الاقتصادية الثنائية بين الدولتين. تعبر آلاف السيارات يومياً الحدود السعودية - البحرينية، نظراً لأن المسافة منها إلى الرياض نحو ٤٠٠ كيلومتراً لا أكثر. ويتم تنظيم الرقابة الجمركية والحدودية على جزيرة اصطناعية قرب الساحل السعودي. وهي مغمورة بالخضرة يرتفع فوقها برجاً رقابة متشابهان في جانبي الحدود. تطل شرفتهما الزجاجيتان على منظر خلال رحاب الخليج الفارسي (العربي).

الجسر نفسه له شكل متعرج ويتكوّن من سلسلة دعائم ينفث منها عالياً فوق سطح الماء لمرور السفن. السفر على هذه المرتفعات الفريدة في نوعها، وبخاصة عند الهبوط يحبس الأنفاس. وأتذكر أنه أثار ابتهاج أحفادنا. أحياناً كنا نشاهد أسراباً صغيرة من الدلفينات المرحّة في المياه الشفافة. عندئذ كنا نتوقف ونصورها على الشريط ونتمتع باستنشاق هواء البحر النقي.

ولن يكون وصف المنطقة الشرقية كاملاً إن لم نتكلم عن اللؤلؤ المرغوب فيه لكل امرأة بوصفه زينة طبيعية. يعود استخراجها في الخليج الفارسي إلى غابر العصور. يحكي التاريخ أنه إلى

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وقت قريب - قبل انتشار اللؤلؤ الاصطناعي الياباني - كان هذا العمل - باللغة الحديثة - من الأعمال المربحة المنظمة تنظيمياً جيداً. في بعض الأوقات كان الخليج (الفارسي) العربي يزود بـ ٨٠٪ من الإنتاج العالمي لهذه الزينة الطبيعية البديعة. فقط في منطقة الجبيل كان صيده في سنوات الإنتاج الوافر يعطي حتى ٢٠٠ قارب (كان العد في ذلك الوقت بالقوارب). وكانت موانئ الخليج تعج بالسفن من لندن وباريس ونيويورك وبومبي. وكان التجار الأجانب ينزلون على الساحل لعقد صفقات تجارية وبيعون بوكلائهم على طول الساحل، الذين بدورهم كانوا يتصيدون الأخبار في الأسواق عن لؤلؤة ضخمة سوداء أو وردية اللون وجدها شخص ما ثم يتسابقون للبحث عن الصياد السعيد والعثور عليه قبل المنافسين المحتملين.

كان استخراج اللؤلؤ يستمر من مايو وحتى سبتمبر على القوارب والمراكب الصغيرة. وكان الصيادون يغطسون قرب السواحل حول الجزر المرجانية ويصلون إلى المحيط الهندي. كان الفريق النموذجي يتكوّن من قائد الفريق، وهو عادة مالك القارب، وصياد مربوط بثقل في حزامه، ومساعد يسحب الغطاس من الماء في اللحظة اللازمة. وكان رجال الأعمال، في قواربهم

الخاصة أو في قوارب مؤجرة، يحومون حول قوارب الصيد ويشترون اللؤلؤ الذي تم استخراجها مباشرة من أيدي قادة الفرق. ثم يبيعونه للتجار أو لوكلائهم. المالكون الجدد للثروة اللؤلؤية كانوا يصنفون الحبات حسب حجمها ولونها وشكلها ومسحتها وبريقها، ثم يحسنونها وينظّمونها في خيوط ويبيعونها في البلاد البعيدة بأضعاف الأسعار الأصلية. أما الغطّاسون الذين كانوا بالكاد يسدون احتياجاتهم فكانوا يستمرون في عملهم الشاق والخطر جداً. وكانت أعمارهم قصيرة جداً بسبب نقصان الدائم للأوكسجين والهجوم المتكرر لسماك القرش. وكان إذا توفي رب العائلة غالباً ما يشغل مكانه أولاده الكبار أو حتى الصغار، لأن هذه البضاعة البراقة مرغوبة في الأزمان جميعها، وكان الإقبال عليها مستمراً فإن هذه المهنة الخطرة انتقلت من جيل إلى آخر، من الأب إلى الابن وإلى الحفيد.

في الثلاثينيات من القرن الماضي تمكّن اليابانيون من إنبات اللؤلؤ في حدائق خاصة. وهو لا يختلف أبداً من حيث تركيبه الكيميائي عن اللؤلؤ الطبيعي، فيصنعه المحار أيضاً بواسطة تلييد جسم غريب بعرق اللؤلؤ في صورة حبة أو قطعة صدفية، يدخلها اليابانيون الأذكياء في قوقعة. وينحصر الأمر في حجم

المملكة العربية السعودية

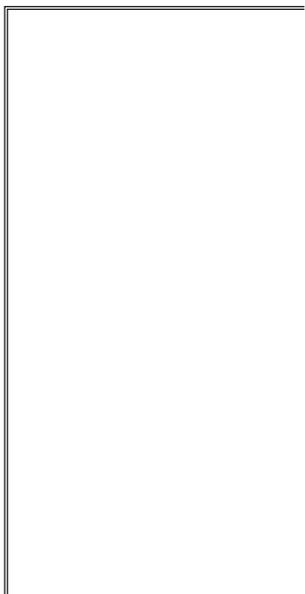
بعيون زوجة دبلوماسي

الجسم المهيج. وهذه العملية تستغرق زمناً طويلاً؛ لذا توضع حبة أكبر من الرملة الساقطة صدفة على المحارة الرخامية بعشرة أضعاف وذلك لتعجيل العملية. ومن هنا ينتج أن اللؤلؤ الطبيعي يعيش مدة أطول بكثير. ولا يمكن بالنظر تحديد منشأ اللؤلؤة إلا إذا كسر. وأشعة إكس فقط تساعد في ذلك. مع ذلك، أظن أن الحبات الطبيعية تسطع ببريق أكبر ولا تخفت أبداً، ولكن هذا هو انطباعي الخاص.

في العقود الأخيرة توقف تقريباً استخراج اللؤلؤ، ولكني سمعت أنه ينتعش من جديد لبضعة أسباب: ظهور الطلب على اللؤلؤ الطبيعي خاصة، وجيل من الرياضيين الهواة، وكذلك ضمان الحماية من الوحوش البحرية (باستخدام وسائل تكنولوجية خاصة).

أما القوارب فبالكاد تغيرت خلال الألفي سنة الأخيرة. وتُصنع أيضاً بالطريقة التقليدية القديمة بدون مسامير أو أدوات ميكانيكية (نادراً ما يستخدم المثقب)؛ الخشب السنط، وشجرة المانج، والصاج يجلب من الهند. عمر هذه القوارب طويل، وحسبما يقال: إنها أكثر أماناً من القوارب المصنوعة بالطريقة الحديثة. يحتمل أن هذا صحيح لأن تاريخها يستغرق آلاف السنين.

الحياة الدبلوماسية



ربما يهـم القارئ معرفة ما وظيفـة زوجة السفير وبماذا تملأ حياتها؟ بالطبع إن مهمتها الأساسية هي توفير الظروف الهانئة والحميمة في البيت والمساندة المعنوية للزوج في عمله الشاق والمتنوع والمهم إلى أبعد الحدود. ولا يتحمل السفير عند تمثيل دولته المسؤولية وحده فقط بل حتى ليس فقط أعضاء السفارة وعوائلهم، وأيضاً نيابة عن بقية رعايا شعبه الذين يعملون في مؤسسات أخرى. وهو يضمن الصلة بين حكومته وقيادة البلاد المعتمد فيها، يتلقى باستمرار سيل المعلومات ويبوبها ويحللها ويعطي الإرشادات ويجري لقاءات ومؤتمرات صحفية والكثير غير ذلك. ولا يمكنه النوم خالي البال أو الاسترخاء؛ لأن عبء المسؤولية عليه ثقيل. وينحصر دور زوجة السفير في كونها بجانبه دوماً تشعر بمزاجه وتسانده معنوياً، وبكلمة واحدة، كونها صديقاً حقيقياً وناصحاً وحتى ناقداً. وبالطبع يجب أن تكون هي على المستوى الرفيع المطلوب، لأنه يُنظر إليها لا

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

بوصفها امرأة فقط، بل بوصفها ممثلة لشعبها. يتصور الكثيرون أن حياة الدبلوماسيين متعة مستمرة. وهذا ليس صحيحاً. فهي ليست مطلقاً بدون غيوم. وتتحصر الصعوبة الأساسية في ضرورة العيش بعيداً عن البيت والأقرباء والأصدقاء وعن الأولاد والأحفاد، في غياب الكتب والأشياء المفضلة في مناخ ومجتمع مختلفين. وإذا كان السفير مشغولاً بعمله المفضل، فإن زوجته غالباً ما تضحي بعملها. ولكنها إذا كانت إنسانة معتمدة على نفسها فإن هذه التضحية لن تكون كبيرة. فستجد ما تشغل به نفسها ومجال تسخير مواهبها وتسعى إلى توسيع مدار معلوماتها.

يجب على زوجة السفير أن تكون اجتماعية، ولهذا الغرض يجب أن تعرف على الأقل اللغة الإنجليزية. ويفضل أن تعرف لغة بلد الإقامة. وهي ملزمة بمعرفة تاريخ دولتها وخصائصها الطبيعية وعاداتها ومعلومات أخرى عنها، ويجب أن يكون لديها ذوق جيد وزي خاص بها. ومن المفيد لها أن تتعلم الأكلات الوطنية لبلدها وتعرف تحضيرها جيداً. بالطبع يجب أن يكون لديها معارف واسعة لتستطيع تجاذب أطراف الحديث مع جيرانها حول المائدة أثناء الحفلات ومآدب العشاء

الدبلوماسية (هناك نظام خاص للجلوس حول المائدة حسب قواعد التشريلات: لا يجوز للزوج والزوجة أبدأ أن يجلسا متجاورين كذلك الأمر بالنسبة للضيوف من الجنس نفسه. ويتصدر أصحاب البيت المائدة في نهايتين متقابلتين). وأخيراً يجب على زوجة السفير أن تكون لها علاقات طيبة مع زوجات السفراء الآخرين، وبخاصة من الدول التي لها مصالح مع دولتها. صدقوني إن الصلات الحميمة بين النساء بهذا المستوى الرفيع لها تأثير كبير على العلاقات بين أزواجهن وهذا يعود بالفائدة عليهم.

زوجات السفراء في المملكة العربية السعودية، كما في بعض الدول الأخرى تجمعهن جمعية نساء السفراء (AWA) وتكون مجموعات بحسب الموقع الجغرافي: أوروبية وآسيوية وأمريكية لاتينية وإقيانوسية ومجموعات البلدان العربية. وتختار كل مجموعة رئيستها والمنسقات فيها اللاتي يضعن بالتعاون مع الأعضاء جميعهم برنامج فعاليات الجمعية الذي يتضمن مختلف المزادات العلنية الخيرية والأسواق ومآدب الغداء والسفريات في أنحاء البلاد وزيارة مدارس الأطفال المعوقين منذ الطفولة والجرحى في المستشفيات الذين يتلقون

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

العلاج في المملكة العربية السعودية والمشاركة في المناسبات الرسمية وغيرها من الزيارات.

السفراء أيضاً متحدون في مجموعات، ولكن أقدمهم يعد عميد السلك الدبلوماسي وهو رئيس البعثة الدبلوماسية الذي مضى على عمله في بلد الإقامة أطول مدة. اليوم زوجي نائب العميد الرئيس وعميد سفراء المجموعة الآسيوية. أما أنا فرئيسة المجموعة الأوروبية (يقع جزء من الأراضي الأذربيجانية في أوروبا). يحظى العميد عادة باحترام خاص ويدعى إلى المناسبات الدبلوماسية جميعها بدون استثناء. وتقوم وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية بتوصيل العديد من قراراتها وتوصياتها إلى سفراء الدول الأخرى عن طريقه.

ومن عناصر الحياة الدبلوماسية حفلات الاستقبال المكرّسة للمناسبات الرئيسة لكل دولة: كاليوم الوطني وتاريخ تأسيس الجيش والمناسبات الوطنية والأحداث المهمة الأخرى. وإذا أخذنا في الحسبان أن المملكة العربية السعودية فيها ١٠٠ سفير أجنبي، وكذلك منظمات مالية وممثلات وبعثات لمنظمات دولية مختلفة لها مناسبات احتفال سنوية فيمكنكم

أن تتصوروا بأية كثرة تجرى مثل هذه الحفلات. يضاف إلى ذلك الحفلات التي تنظمها من وقت لآخر الأسرة المالكة وافتتاح المعارض والأسواق الخيرية والدعوات الخاصة. يصادف أن يكون في يوم واحد مناسبتان أو ثلاث مناسبات. وبما أن الحضور إلى هذه المناسبات يعد جزءاً مهماً من عمل السفير لذا لا يُسمح بتجاهلها إلا لأسباب اضطرارية جداً (في هذه الحالة ينوب عن رئيس البعثة الدبلوماسية الشخص الثاني في السفارة).

تجرى حفلات الاستقبال الدبلوماسية بسيناريو واحد مع اختلاف بسيط. في البداية يقف عند الباب المفتوح على مصراعيه وفي أجود أزياء الاحتفالات صف من الأزواج الدبلوماسية للجهة المستقبلة وعلى رأسها السفير وزوجته. ويتقدم الضيوف بالترتيب وتحت لمعان عدسات التصوير يصافحونهم ويقدمون لهم التهاني بالمناسبة المهمة ويدخلون في عمق الصالة أو الروضة الخضراء للحديقة (يتوقف ذلك على الوقت من فصول السنة). وغالباً ما يُعرض على شاشة كبيرة شريط عن البلد المضيف ويُسمع صوت خافت لشعارات وطنية. وتتنظرهم هنا مأكولات ممتازة، والأهم من ذلك، لقاء

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

مع زملائهم الذين تُحل معهم أحياناً في مثل هذه اللقاءات مواضيع مهمة ويجري بينهم حديث منفرد. لذا غالباً ما ينسى الضيوف موضوع الأكل. فمثلاً يأتي زوجي دائماً من حفلات الاستقبال جوعاناً وبعد المأكولات المحلية اللذيذة يطلب مني تسخين العشاء الذي حضّرتَه بنفسِي. النساء أيضاً يتحادثن، ويتجمعن حسب الاهتمامات ويتعارفن بالقادمين الجدد، ويتبادلن بطاقات عناوينهن ويعرضن أزياءهن ويتلذذن بالطعام الشهي. لكن هذه ليست طريقة مريحة لتناول الطعام. فيجب أن يكون لديكِ درجة من اللباقة والخبرة لكي تمسكي بيديك في آن واحد قديماً فيه مشروب وطبقاً ومندياً وأدوات الطعام ولا تسقط الحقيبة من على الكتف التي يراد إخراج كارت العنوان أو المروحة أو النظارات منها والتحدث بسهولة بلغة أجنبية بدون فقدان موضوع الحديث.

يستمر الحفل ويستمر قدوم المدعوين مدة ساعة واحدة أو ساعة ونصف الساعة. قبل ذلك يحتمل أنه كان لديهم تدابير أخرى. عند هذا الوقت، وحتى قبل هذا، يبدأ بالمغادرة أولئك الذين قدموا في البداية ويودعون المضيفين بالترتيب المعاكس. وبذلك لا يترك السفير وزوجته والدبلوماسيون

الآخرون للجانب المضيف مكانهم عند الباب خلال الحفل كله نحو ٢, ٣-٥ ساعات. وهذا ليس بالسهل كما يظهر، وبخاصة على كعوب عالية. في نحو منتصف الأمسية يبدأ نوع من الحركة ويظهر عسكريون من مراتب عليا وعدسات التلفزيون، ويظهر أهم ضيف شرف وحوله حاشيته، وهو عادة أحد الأمراء. وبرفقة السفير صاحب المناسبة يمران بين المدعويين ويجلسان على أرائك مصفوفة في مكان محضّر مسبقاً. ويتبادلان هناك الحديث بعض الوقت، ثم يقوم الأمير بإجلال بقص كعكة كبيرة رُسم عليها العلم الوطني للدولة المضيفة. ويدوق قطعة صغيرة ثم يغادر.

يترك الضيوف المكان تدريجياً ولا يبقى إلا العاملون بالسفارة وممثلو الجالية. فيملاً أهل البيت المسرورون أطباقهم ويجلسون على المقاعد الوثيرة ليريحوا أرجلهم المتعبة. الجميع راضون؛ كان هناك عدد كبير من الضيوف وهذا يعني أن المناسبة الرئيسية العامة لهذه السنة مرت بنجاح.

وفضلاً عن حفلات الاستقبال في المناسبات المهمة للدول تشارك زوجات السفراء في المملكة العربية السعودية في أسواق خيرية مختلفة تقام بإشراف إحدى الأميرات، في أغلب الأحيان

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

زوجة الأمير ولي العهد. تُخصص أرباحها لإعانة المحتاجين في بلدان مختلفة. وتُخصص عادة لكل سفارة طاولة طويلة أو جناح مفتوح (يعتمد ذلك على حجم الإجراء)، حيث يُعلّق أو يُعرض كل ما جهزته هذه السفارة للبيع لكي تُسلم الإيرادات التي تحصل عليها إلى منظمي هذا الإجراء الخيري. كل شيء يجري في جو من الهيبة والبهجة. تسعى كل دولة إلى تزيين جناحها بألوان زاهية وتعليق العلم الوطني وتتلقت إلى تأثيث جارتها بعين فاحصة. وعند البدء بعملية البيع تظهر المسابقة الحقيقية. تقف زوجات أعضاء العائلة المالكة والسفراء والدبلوماسيين الآخرين خلف الطاولات ليعرضن مواهبهن التجارية، ويطوف الناس المتأنقون بين الصفوف الناشطة وهم راغبون بتخفيف محافظ نقودهم البدينة بأسرع ما يمكن. فقد قدموا إلى هنا لهذا الغرض، خاصة وهم يعرفون أين ستذهب نقودهم التي ينفقونها.

تشارك سفارتنا دائماً في هذه المناشط وتبيع المأكولات الأذربيجانية الجاهزة. أجمع عادة زوجات العاملين في السفارة يومين قبل ذلك وأكّلف كل واحدة بتحضير الشيء الذي تجيد تحضيره أفضل من غيرها. ثم نناقش تفاصيل

ومواعيد مختلفة. وقبل افتتاح السوق نقوم بترتيب تحفنا بطريقة تسيل لعاب المشتريين.

أعرف من خبرتي أنه ليس من السهولة بمكان بيع مأكولات جاهزة. المشتري محافظ في أذواقه. فهو يفضل شراء ساندوتشات عادية أو شاورما على شراء أكلة غير معروفة لديه حتى ولو كان جائعاً جداً. أتذكر السوق التي شاركت فيها لأول مرة وكيف كنت أشعر بأسف عندما كان الزبائن المحتملون يتوقفون عند طاولاتنا وينظرون إلى مصنوعاتنا وعليها أعلام صغيرة ثم يغادرون. فأخذت الصحيفة بتأثر ولففتها وفي هذا البوق من نوع خاص بدأت أعلن بصوت مرتفع: «من فضلكم لا تذهبوا. ظهرت لديكم فرصة تذوق المأكولات الأذربيجانية لأول مرة. إذا ذقتم أطباقنا مرة واحدة على الأقل لن تطلبوا بدلها شيئاً آخر...» وغير ذلك. كان لهذا الإعلان تأثير عجيب. فبدأ الزوار يتهافتون علينا كما لو كان بإيعاز، ربما لأنه لم يصادفهم مثل هذا العمل أبداً.

اشتروا الحلويات الأذربيجانية وتذوقوها مباشرة وعادوا لشراء المزيد للعائلة. بعد نصف ساعة كانت طاولاتنا فارغة وكنا أول من يسلم الوارد. اليوم وبعد مضي بضعة أعوام،

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وكنتيجة لاشتراكنا في مثل هذه الأسواق وحفلات الاستقبال في مقر إقامتنا وعرض أفلام عن أذربيجان أستطيع القول بيقين: إن مأكولاتنا أصبحت معروفة لدى العديد من السعوديين وتضاهي بشعبيتها المأكولات اللبنانية.

خلال السنين التي عشناها في المملكة العربية السعودية صادفنا العديد من الناس المهمين والأحداث واللقاءات. وكل سنة تقوم الأسرة المالكة بتنظيم إجراء خاص لرؤساء البعثات الأجنبية وعوائلهم. وصلت في أحد الأيام رسالة من الديوان الملكي إلى السفارة الأذربيجانية بأن الملك فهد يدعو السفراء وزوجاتهم إلى زيارة بعض المدن على ساحل البحر الأحمر. وخصت لهذا الغرض طائرة خاصة في يوم محدد ووقت محدد. وقمنا بهذه السفرة الممتعة المنظمة تنظيمياً بديعاً برفقة مجموعة طيبة من الناس. زرنا عدة مدن فتيية بما فيها المدينة الصناعية ينبع ومعناها بالعربية «النبع عند البحر»، حيث المنطقة الصناعية التي تتضمن معمل تكرير النفط وأكبر معمل تحلية في المملكة العربية السعودية منفصلة عن الأحياء السكنية ومستورة جيداً بحيث ظهر لنا وكأننا نزلنا في منطقة اصطيف مريجة (في الصحراء!). أوصلونا إلى

الحديقة المحلية الرائعة ببحيراتها ومبنى للاستراحة، حيث أصغينا إلى تغريد البلابل. ثم عُرض لنا في الإدارة نموذج للتطور اللاحق للمدينة وتطورها الاصطناعي المستقبلي بالنافورات وطريقها المشجر بمحاذاة البحر. بعد ذلك أخذونا إلى الساحل الصحراوي حيث يفترض أن ينجز كل هذا في المستقبل القريب. لم أصدق آنذاك بالمواعيد المحددة القصيرة إلى هذا الحد. لم أزر المكان بعد ذلك ولكنني سمعت أن العمل يقترب من نهايته.

في مناسبة أخرى ذهبنا في نزهة إلى منطقة عسير التي سأحدث عنها بالتفصيل بعد قليل، وكما ذكرت سابقاً أكثر من مرة، حضرنا بوصفه ضيوف حفلات زفاف أعضاء العائلة المالكة. إنها احتفالات بهيجة تبقى في الذاكرة طول الحياة، ليس فقط عند العروسين وأقربائهما، بل وعند الضيوف العديدين. وآخر حفلة زفاف بقيت في ذاكرتي حضرتها سنة ٢٠٠١م. جرت الاحتفالات بمناسبة زواج ابن ولي العهد الأمير عبد الله على حفيدة ابن الملك عبدالعزيز في قصر بديع، حيث حضر بضعة آلاف من الضيوف من الجنس اللطيف. فكان عرضاً هائلاً للأزياء الاستثنائية الفاخرة والتسريحات المعقدة جداً

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

والمجوهرات الفريدة. تباهت المغاليات في حب الموضة بالبدلات المزيّنة والفساتين ذات الذيل الطويلة.

العروسة عمرها ٢١ سنة بفستان ناصع البياض وعليها زينة فريدة ومغطاة بغطاء من قماش الغاز الشفاف، مرت أمام صف من الأعين الفضولية والمبتهجة وكأنها مخلوق رشيق. والأطفال الأنيقون يحملون ذيلها الطويل وتفوح العطور وتطير الألعاب النارية من وقت إلى آخر. وعندما جلست الفتاة أخيراً في أريكتها تساقطت من السقف وريقات فضية ناعمة وبدأت فقرات الحفل على شرف العروسة فوق الأرضية المرتفعة. بعد التمتع بهذا المشهد قررت التفرج على القصر. الممرات الواسعة والصالات الفسيحة مغطّاة بسجاد وفير ومؤنّثة بأرائك وكنبات مذهبة ووسائد مغلّفة بالدمقس الحريري. خلف الزجاج الكريستالي للخزائن، المصنوعة من خشب مزخرف، تُرى تماثيل قطع زينة فريدة وحاجات فضية قديمة للزينة وعلب مزركشة بالتخريم. تتدلى فوق الأبواب جميعها ستائر زخرفية من القطيفة القاتمة بشراريب مذهبة ثقيلة. الجدران مزيّنة بمناظر طبيعية ولوحات طبيعة صامتة ورسومات خيول محببة إلى قلب كل سعودي، وكذلك بمرايا في إطارات ثمينة. المغاسل

في الحمامات هي أيضاً مزينةً بذوق رفيع. اللّمبات المعتمة ليس فقط تضيء زجاجات الروائح والعطور الموضوعة على المرمر وأكوام أقراص النعناع والعلك وحبّات الهيل والقرنفل المنثورة في المزهريات والسلال، بل وتكوّن انعكاسات جميلة للزائرات في المرايا لأنها تخفي التجاعيد التي على وجوههن.

عند عودتي إلى الصالة حيث كانت تجري المراسيم رأيت أنها مزينة بذوق كبير (قبل ذلك كان انتباهي كله مسلطاً على دراسة أزياء الضيوف). تتدلى من السقف وعلى حبال رفيعة نخلات بيض ناعمة تُضاء على أوقات بأنوار ملونة. الأرضيتان المرتفعتان الجانبيتان حيث مكان الحفل مزينتان بصفائير زهور رائعة، وحول الصالة كلها باقات لا تحتضن لزهور طبيعية في مزهريات ضخمة جلبت هذا اليوم بالخصوص من هولندا. العريس شاب أنيق كان واقفاً بجانب العروس. وكان مرتدياً جلابية نموذجية ناصعة البياض وعلى كتفيه عباءة شفافة بحاشية مذهبة. كان العروسان فتيين وجميلين وكانت الأنظار جميعها في الصالة مسلطة عليهما.

تعرفتُ فيما بعد على أختين للعروس، جميلتين أيضاً وصدفة لاحظت أنهما شبيهتان كثيراً جداً بفتياتنا الأذربيجانيات. في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

هذه الأمسية قُدمتُ لامرأةً أنيقة وهي زوجة الأمير خالد بن سلطان الذي لعب دوراً مهماً جداً في بلوغ النصر في حرب الخليج وألّف بعدها كتاباً عن هذه التجربة الجادة لبلاده تُرجم فيما بعد إلى اللغة الروسية.

لم أستطع البقاء إلى نهاية حفلة الزفاف وتركت القصر الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. لكن صديقاتي الأكثر عزمًا تذوقن بعد ذلك الأطعمة الفاخرة جميعها وتفرقن مع الجميع عند الصباح.

في إطار اليوبيل العشريني لحكم الملك فهد بن عبد العزيز أقيم العديد من الاحتفالات التي شاركت فيها زوجات السفراء أيضاً. مؤتمرات تحت إشراف زوجة الملك، ومشاهدة أفلام، ومعارض بموضوع المناسبة قامت النساء السعوديات فيها بعمل ضخم. في هذه المدة أيضاً جرت زيارتنا لمجلس الشورى، وهو هيئة استشارية شبيهة بالبرلمان تشغل مكاناً مهماً في تركيبة الدولة في المملكة العربية السعودية. راقبنا أحد اجتماعات المجلس من شرفات خاصة للجمهور، وعند انتهائه اجتمع بنا رئيس المجلس وبعض أعضائه في الصالة الدائرية للاجتماعات وحدثونا عن وظيفة هذه الهيئة وأجابوا

عن أسئلتنا. ثم أخذونا إلى الحديقة البديعة (قطعة خضراء من أوروبا) والصالات والمكاتب العديدة بجدرانها وسقوفها المنقوشة والمزينة بالبرونز والمرمر وأحجار زينة أخرى، وحتى بالدنيتيلات والأقمشة المطرزة باليد. ربما لا أستطيع إعطاء وصف لائق لتأثير هذا المجمع المدهش ومنظره الخارجي. لكنني أستطيع القول بكل ثقة: إن مبنى مجلس الشورى يشغل مكاناً خاصاً بين التحف المعمارية جميعها التي تكلمت عنها في هذا الكتاب.

تركت زيارتنا لمزرعة ابن الملك الأمير عبد العزيز بن فهد حيث نظمت احتفالات بمناسبة اليوبيل انطباعات لا تنسى. هذا الجزء من مستوطنة قديمة في الصحراء على مسافة ٤٠ دقيقة بالسيارة من الرياض يعد أحد معالم العاصمة، حيث تُدعى الوفود الرسمية ورؤساء الدول الأجنبية والشخصيات البارزة الأخرى. داخل الأراضي الواسعة المحاطة بسور من الطين أعيد بناء القصر الملكي التقليدي ببرج مراقبة مرتفع، ونسخة مطابقة لحصن المصمك بحجمه الطبيعي، ومعسكر للبدو، والسوق القديمة، والمدرسة والبرّ والساحة المرصوفة بالحجارة. المنشآت جميعها بنيت من المواد التقليدية، أي من

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

خليط الطين والتين، وبالطريقة التقليدية. الجدران الداخلية للقصر مطلية بطبقة سميكة من الجبس حفرت عليها رسوم هندسية. الفناء الداخلي محاط بصف من الأعمدة وفي وسطه بئر صغيرة. في الفسح بين الأبواب علقت بنادق وسيوف ورماح وتروس قديمة وطُبعَت على الحجارة صور الملك عبد العزيز مع أفراد العائلة والأتباع.

وجدنا في حصن المصمك بمساعدة أصحاب البيت ممرات خفية في جدرانه الخارجية التي يبلغ سمكها ثلاثة أمتار، وعند الجلوس على وسائل في إحدى حجرات النوم العديدة بردنا قليلاً رغم أن درجة الحرارة في الخارج كانت ليست أقل من ٣٠ درجة مئوية. كان الناس في العهد القديم يتجنبون الحر بواسطة قواعد بناء لسكنهم وضعوها على مدى مئات السنين (جدران طينية سميكة، وغياب النوافذ، وترتيب الحجرات في صف، وفتحات مثلثية صغيرة تولد تهوية فعّالة).

دخلنا حظائر النياق والجمال الصغيرة وتذوقنا الحليب الدافئ الطازج، الزبدي، وعدنا إلى المزرعة وركبنا جمالاً بيضاء وخيولاً ملكية. بعد ذلك قدموا لنا طعاماً شعبياً، تم تحضيره أمام أعيننا، ثم قادونا إلى زقاق السوق الضيق حين

اشتغل الحرفيون في ورشهم كما كانوا يشتغلون في الماضي القريب. شاهدنا كيف ينسجون السلال ويزينون أعماد الخناجر بسلك فضي ويطرقون المناجل ويطرزون العباءات النسائية بخيوط ذهبية ويغزلون صوف الجمال ويحيكون منه قماشاً رقيقاً على آلات بدائية ويتاجرون بأشياء قديمة وحبوب وتوابل، مثلوا لنا مشهد نزاع بين البائع والمشتري. وفي الختام أهدوا الراغبين أشياء من عمل أيديهم. ثم مررنا بأزقة ضيقة ووصلنا إلى بئر، حيث كان حماران يرفعان الماء منه بواسطة دواليب خشبية وحبال. وأخيراً في الفصل الوحيد في المدرسة عرضوا علينا بمساعدة ممثلين صغار كيف كانوا سابقاً يعلمون التلاميذ في المدارس ويعاقبونهم.

قربَ المساء وبدأت الفعالية الرئيسية. أجلسوا الضيوف على مقاعد تحت مظلة شراعية وفُرشت عشرات السجاجيد على حجارة الساحة أمام القصر. وفجأة ظهرت مجموعة من الفرسان تحت أصوات الطبول من خلف المنعطف: الفرسان على جمال بيضاء والخناجر في أحزمتهم والسيوف على أكتافهم وقائداهم في المقدمة يحمل راية خضراء، قاموا ببيضة دورات مع إعادة تشكيلتهم، ثم غادروا. تبع ذلك رقص

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

المناطق الجنوبية المرفق بالغناء وأيضاً تحت أصوات الطبول ويُذكَر بالرقص الإفريقي. وتبع ذلك الراقصون بالسيوف ببدايات زاهية لمناطق وسط المملكة العربية السعودية. وكان الرقص حماسياً إلى درجة أن بعض السفراء رغبوا بالمشاركة فيها، فأحضرت سيوف إضافية لهذا الغرض.

غمرنا الليل بفتة وبسرعة، وهو ما يحدث عادة في الصحراء. وهبت ريح خفيفة باردة. وأضيء القصر الملكي الطيني بأنوار. على خلفية السماء السوداء تدلى البدر الكبير فوق أسنان برج المراقبة ليضيء قمم أشجار النخيل. بدأت أصوات الطبول تخفت وتبتعد، وفجأة شعرت بحالة من النعيم وكأنني طليقة من الجسم والزمن. لا أعلم ما كان هذا، ولكنه سيبقى في الذاكرة إلى الأبد.

طبعاً كان هناك غداء وعشاء بموائد مليئة بأنواع المأكولات. وكان كل شيء لذيذاً جداً وجميلاً. جلسنا في الحافلة متعبين قليلاً ولكن ممتنين لهذا اليوم الرائع.

صناعة السياحة الدولية في المملكة العربية السعودية لا تزال في مرحلة النشوء (باستثناء الصلات السياحية مع البلدان العربية). لكن الحكومة وضعت نصب عينيها مهمة تطوير هذا

المجال من النشاط الإنساني في السنين القريبة المقبلة. مع ذلك فقد وجدت هنا أفضل الظروف المناسبة للدبلوماسيين محبي الاستطلاع. أنا وزوجي سافرنا كثيراً داخل البلاد وشاهدنا جميع مناطقها تقريباً (قد تحدثت عن بعضها). بقيت في الذاكرة بالخصوص منطقة عسير وهي منطقة واسعة في الجنوب الغربي من البلاد، حيث يمكن رؤية السلسلة الممتدة للجبال العظيمة (حتى ارتفاع ٣, ٥ ألف متر) المختلفة في طبقة السحاب، والغابات التي لا يمكن اجتيازها، والوديان الخصبة، والحقول المزهرة، والممرات الجبلية الصخرية الضيقة، والبحيرات الاصطناعية. مكان ساحر بمناخ معتدل وبأمطار نادرة ولكن غزيرة تملأ الوديان العميقة بسيول مندفعة. أعلنت أراضي هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها ٤٥٠ ألف هكتار ابتداء من البحر الأحمر حديقة عامة وطنية محمية من قبل الدولة. تنمو هنا مجموعة من الأصناف الفريدة لنباتات على وشك الانقراض وتشعر الحيوانات والطيور براحة تامة.

عندما تكون في عسير يصعب عليك أن تتصور أنه في منطقة قريبة نسبياً تمتد صحراء خالية من الماء والحياة. شرفات اصطناعية تحوط سفوح الجبال، خضرة ناضرة تتسلق نحو

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

القمم وتمدّ جذورها في أية مساحة صغيرة بين الصخور، حيث تجد ولو قطعة صغيرة فيها تربة. جوافة مزهرة وصبار بأثماره اللبية الشائكة. أشجار عجيبه مغطّاة بقشرة سميكة تشبه جلد فرس النهر. أشجار السنط كثيفة الأوراق بأشواك طويلة تتشابك فتكون مناطق لا يمكن اجتيازها. على السفوح المدرجة وعلى الانحدارات الخفيفة عند سفوح الجبال تتبعثر بين بساتين النخيل والفواكه والخضراوات وحقول الزراعة قرى صغيرة يختلف منظرها عن المناطق السكنية الأخرى في المملكة العربية السعودية. وهي أكثر شبهاً بالقرى اليمنية. وهذا ليس غربياً؛ فتمتد هذه السلسلة من الجبال العظيمة بعيداً إلى الجنوب لتعبر إلى الدولة المجاورة، كما أن الناس قبل نصف قرن كانوا يرحلون من مكان إلى آخر بحثاً عن التربة الصالحة بغضّ النظر عن الحدود. يبني أهالي عسير الحاليون بيوتهم بالطريقة نفسها التي كان أسلافهم يفعلون، أو يسكنون المباني القديمة الباقية بحالة جيدة والبالغ عمرها بضع مئات من السنين. بعض القرى لا يمكن أن تلاحظها مباشرة لأن بيوتها واطئة مبنية من كسارات الحجارة وسقوفها المستوية غالباً ما تكون بمثابة فناء لجيرانها الأعلى منها وشبيهة بأعشاش

الطيور التي تتبدد على خلفية السفح الصخري؟! البيوت الطينية القديمة والمساجد وأبراج المراقبة مميزة جداً. سأحاول وصفها، رغم أن ذلك ليس بالأمر البسيط. شكلها يمثل أبراجاً مستطيلة بثلاثة إلى خمسة طوابق بجدران مائلة نحو مركزها باللون الطبيعي ونوافذ مستطيلة ضيقة. الانطباع الوحيد الذي برز عندي عندما شاهدتها من ارتفاع شاهق هو قطع الشطرنج والقلاع منها على وجه التحديد. صُنعت جدران هذه المباني من طبقات من خليط الطين والتبن و صفوف أفقية مستوية من حجارة مسطحة شبيهة بالألواح، موضوعة بتفاوت وبارزة من الجدار لمسافة نصف متر. هذه المباني الهرمة لها جمال من نوع خاص بها. ومع ذلك لم يتح لي التوصل إلى تفسير معقول لهذا الإسراف المعماري الأصيل. لكنني متأكدة أنه إلى جانب الناحية الجمالية لا بد أن يكون له وظيفة عملية، وعلى الأغلب تقوم هذه النتوءات المحيطة بالمبنى بحماية جدرانه الطينية غير المتينة من الأمطار الغزيرة. توجد على السفوح الجبلية لعسير قرية صُبغت بيوتها بأغرب الألوان. تتألق بقع برتقالية وخضراء وزرقاء ساطعة على خلفية جدران بيضاء وذهبية اللون. يقوم السكان المحليون، وكأنهم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أطفال صغار أهديت لهم ألوان لأول مرة، بتلوين كل ما يمكن تلوينه، أجزاء من الجدران وأساسات مساكنهم والسلالم وحتى الصخور الملساء في الفناء. ويصبغون إطارات النوافذ والأبواب بأشرطة مختلفة الألوان ليست دائماً مستقيمة. يغطون بالرسوم في الداخل كل ما هو مليس ابتداءً بالعتبات والسقف وانتهاءً بالجدران والأرضية. وتصادف هنا تحفاً حقيقية، أما اللوحات الجصية فهي من بعيد أشبه ما تكون بسجاد حقيقي. رأينا في أحد البيوت من هذا النوع أرضية طينية تذكر بأرضية خشبية محدبة بعروق وكأنها سطح قوقعة بحرية. لا أعلم إن كان مريحاً المشي عليها للحايف، ولكنه بالتأكيد مفيد.

من الغريب أن سكان هذه الأماكن حتى يومنا هذا يفضلون عدم وضع الزجاج على النوافذ. فيضعون عليها مشبكات وفي الطقس المطر يغلقونها بأبواب ملونة بألوان ساطعة ومصنوعة من خشب أشجار الزيتون. كذلك الأبواب التي يعدها السعوديون دائماً أحد عناصر الإدراك الفني. فلا يقتصرون على تغطيتها بالرسوم بل يزينونها بزخارف محفورة ويغلفونها بالجلود وبأنواط نحاسية ويصنعون لها مزاليج وأقفالاً غير عادية.

أبها، وهي عاصمة منطقة عسير، تحولت خلال الأعوام العشرة الأخيرة من قرية منعزلة واقعة على تقاطع طرق القوافل وتعاني دائماً من شح الماء إلى مدينة حديثة ببحيرات اصطناعية ونافورات، وبأنبوب مياه طوله ٢١٥ كيلومتراً ممتد من البحر الأحمر، وبعمارات عالية للفنادق والمصارف والشركات والبيوت السكنية. وأصبح لها جامعة ومتحف ومجمع بديع للمؤتمرات ومدينة طبيّة، وفيها ساحة خاصة بانطلاق وهبوط المروحيات، ومجمع رياضي، حيث تقام مهرجانات الشباب. أما المباني السكنية والمساجد القديمة الفريدة التي تعطي المدينة طابعها الخاص فقد أصلحتها السلطات وهي تحافظ عليها. تشتهر أبها أيضاً بحرفييها الماهرين وبأسواقها الأسبوعية المعروفة، حيث يمكن شراء كمثرى كثيرة الماء بحجم كمثرى الملاكمين، وبطيخ أحمر ومانجو وغيرها من الفواكه الغريبة علينا، والخضار من الحقول الزراعية المحلية. أساتذة الأعمال الخشبية يصنعون أمام أعينكم أدوات المطبخ. الحدادون ونقاشو المعادن يصنعون آلات زراعية للاستعمال المحلي وأسلحة نارية وبيضاء وخناجر بديعة ودقيقة العمل. أما الصّاعة فيصنعون ما يشبه القلائد الفضية القديمة وأقراط

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

وأساور للمعاصم والكواحل وغيرها من أدوات الزينة لا يمكن تمييزها عن النماذج القديمة، مستخدمين بعض الخزرات وأسطوانات التخريم القديمة.

لكن الأكثر طرافة هم السكان المحليون البائعون والمشترون، الذين استطاعوا التأقلم مع الظروف القاسية في الجبال مع التغيرات الكبيرة في درجات الحرارة وجمع قطرات الماء الثمينة من سقوط المطر في أحواض (فناطيس) مشيدة من قبلهم وبناء شرفات بنظام ري فعال، والتنقل بسهولة على سفوح الجبال العمودية تقريباً بواسطة الحبال. وهم مخلصون للمكان الذي يعيشون فيه، ولا يحبون كثيراً الإجابة عن أسئلة الفضوليين، رغم أنهم مبتسمون وذوو أخلاق عالية. سكان الجبال يحزمون الجلابيات قاتمة اللون بأحزمة مزينة بالفضة والخناجر (الجنبيات) طبعاً.

يشاهد في الأسواق «بدو الأزهار» الذين يسكنون في عسير. ويميّزهم عن الباقين انجذابهم الشديد إلى العالم النباتي لموطنهم. الرجال يكحلون عيونهم بصبغة سوداء ويفضّلون الملابس متعددة الألوان ويتحزمون بأحزمة ثقيلة بالخناجر من نوع الجنبية ويحملون لفاعات رقيقة على الكتف.

أما على رؤوسهم فبدلاً من الكوفيات التقليدية يلبسون أكاليل أو ببساطة يدسون حزمة من الأزهار أو الأعشاب الفواحة تحت ربطة الرأس. يكلّل البدويون الشباب رؤوسهم بباقات فخمة، أما الكهول فيستخدمون أكاليل متواضعة من الريحان والنعناع وأعشاب برية أخرى تنمو على سفوح الجبال. حتى في جيوب الصدر يضعون باقات صغيرة لكي يقدموها هدية إلى أول من يلاقونه إذا كانت أزهاره قد ذبلت. هم أساتذة في تشكيل الباقات، وأظن أنهم يهتمون أيضاً بتشكيلة الروائح. ويشغلون برعي الماعز وزراعة الأزهار والخضار. سمعت أن بدو الأزهار يحبون الرقصات الحماسية تحت قرع الطبول ويرقصونها في قراهم تحت ضوء القمر. النساء كذلك يزين أنفسهن بأزهار فواحة، وقبل الزواج يغطين شعرهن بالشال البرتقالي ويثبتن النباتات خلف آذانهن وكأنها أطراف النظارات المقوسة. بدو الأزهار لا يستعملون للعلاج من الأمراض إلا الأعشاب المعروفة لديهم، ويفضّلون الأكل النباتي. أعتقد أن هؤلاء الناس الذين يعيشون بهذا الانسجام مع الطبيعة لا بد أن يشعروا بالسعادة.

الطريق إلى عسير بديع رغم أن تضاريس المكان في القسم

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الأعظم من المنطقة وعرة، سفوح شديدة الانحدار وممرات ضيقة. لكن المهندسين وجدوا حلاً غير اعتيادية. فحفروا ١٧٢ نفقاً داخل الأراضي الصخرية وشيدوا ٥٨٠ جسراً على أعمدة متينة من شتى الارتفاعات ينتقل بواسطتها الطريق المتعرج على السفوح من جبل إلى آخر وكأنك تطير فوق الهاويات بين المنحدرات الشاهقة. أقول بصراحة: إن هذا الشعور ليس لضعيفي الأعصاب.

في المناطق التي تبدو فيها تضاريس الجبال أكثر وداعة وأقل انحداراً حيث أشرطة السطحيات المتعرجة تحيط بالسفوح؛ تُشاهد فوق القمم غير العالية وقرب مساكن الناس أبراج رقابة حجرية قديمة ومخازن للحبوب تستخدم حتى يومنا هذا. بُنيت هذه المخازن قبل بضعة قرون بمعرفة جيدة للأمور، بحيث إن الحبوب تحفظ فيها لمدة طويلة بدون أية وسائل تكنولوجية. لقد اعتدنا على كون المملكة العربية السعودية صحراء حارة بدون مياه، لكن هذه البلاد لا توفر فقط الحبوب لنفسها، بل وتصدرها أيضاً، ولمزارعي عسير دور في ذلك.

لقد أسعدنا الحظ بمشاهدة الكثير المهم في هذه المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية، لكن حجم هذا

الكتاب لا يسمح بالحديث عن كل شيء. رغم ذلك لا يمكنني تفويت فرصة الحديث عن أحد المعالم المهمة لها.

كما هو معروف كانت الطرق التجارية على طول السواحل الغربية والشرقية لشبه الجزيرة العربية مألوفة في الألف الثاني للميلاد. ويعرف أحد هذه الطرق في الغرب باسم «درب البخور» يمتد من اليمن خلال الصحراء والجبال إلى سوريا ومصر والقسطنطينية. وكانت عسير جزءاً من هذا الطريق، المعروف في العالم العربي باسم «درب الفيل». ويرتبط هذا الاسم بذكرى حملة القائد العسكري الأثيوبي أبرهة في سنة ٥٧٠م لغزو مكة. كان هذا الطريق يُستخدم فيما بعد من قبل الحجاج أيضاً. العديد من كيلومترات هذا الطريق مصفوفة بأحجار منحوتة مستطيلة الشكل (هنا تخطر بالبال المقارنة بالسور الصيني، الأهرامات المصرية). صُقلت هذه الأحجار لآلاف السنين بأرجل الحيوانات المحملة بالبضائع وأرجل الناس. وكانت القوافل تتوقف للاستراحة في خانات حُفظ بعضها حتى يومنا هذا. كان المسافرون يمددون أرجلهم المخدرة ويُنزلون الأحمال من ظهور الحيوانات المتعبة ويرتوون ويشبعون ويستلقون للراحة. وقليلون آخرون أكثر نشاطاً وموهبة

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ربما كانوا يحفرون على الأحجار المسطحة رسوم الحيوانات الأليفة والنمور والأسود التي شاهدها في طريقهم الطويل، وكذلك الماعز الجبلي، ومشاهد صيد أو معارك حديثة العهد، وعلامات معقدة ترمز إلى كلمات أو حروف.

هناك الكثير من هذه الآثار البديعة للفن القديم على طول طرق القوافل في عسير. أغلبها تمت دراسته وتعود إلى العصر الإسلامي وكذلك عصر ما قبل الإسلام. أما «درب الفيل» والآبار النادرة على طولها فقد دُفنت مع مرور الزمن تحت أنقاض الحجارة والرمال. لكن أجزاءً منها بقيت لإسعاد العلماء والسياح من محبي المعرفة.

الخاتمة



حتى أوائل القرن العشرين كانت المملكة العربية السعودية بطقسها الصارم وسكانها الفقراء جداً ونظمها الاجتماعية الأبوية التقليدية والإمكانات الشحيحة لتطور الاقتصاد؛ تعد طرفاً مهملاً لا حاجة لأحد فيه من العالم المتمدن. ولهذا كانت قفزة البلاد في قصير إلى هذا الحد من القرون الوسطى إلى منجزات اليوم، وحسب العديد من المؤشرات سبقت الدول الأكثر تطوراً تبدو لا شيء سوى معجزة. وبالطبع فمن المعروف أن السبب الرئيس كان اكتشاف عروق الذهب الأسود وبفضل ذلك أصبح جلياً أن البلاد كأنها تطفو على بحر من النفط. إلا أننا لا نعرف الكيفية التي كان يمكن أن يغدو عليها تطورها اللاحق لو لم يكن على رأسها الشخصية الجبارة وذات الإرادة القوية الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود «أبو الأمة». فهو قد عكف على بناء الدولة التي أنشأها وتعزيزها واتخذ الخطط والمشروعات التي بدت في ذلك الأوان وكأنها حلم غير قابل للتحقيق.

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

ولكن بغض النظر عن كون سيل البترول ودولارات وبخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قد تزايد تدفقاً عاماً بعد عام، فقد تطلب الأمر جهوداً خاصة من شأنها إخراج البلاد من هوة التخلف العميق. ولم يطل انتظارها. وأود الإشارة إلى أن شعب المملكة قد ساعفه الحظ، إذ منذ خطواته الأولى عد ملوكهم الأولوية المطلقة والهدف النهائي للتحويلات الجارية مواطن البلاد - السعودي. وفي ظرف بضعة عقود من السنين أجرى أبناء الملك عبدالعزيز إصلاحات اجتماعية - اقتصادية جذرية قدّمت البلاد إلى مستوى رفيع من التطور وكفلت لسكانها نوعية من الحياة لم يسبق لها مثيل.

والمملكة إذ تملك ربع احتياطات الأرض من الوقود السائل تشغل اليوم المرتبة الأولى في العالم من حيث استخراجها وتصديره، ولاتزال المداخل من هذا التصدير تمثل أساس تنمية البلاد الاجتماعية - الاقتصادية. ولهذا فإنه لعظيم فضل قادتها الذين استطاعوا التوصل إلى تحقيق الرقابة التامة على المجال البترولي من الاقتصاد، الأمر الذي جعل المملكة مستقلة بما فيه الكفاية عن الاحتكارات البترولية العالمية. بيد أنه وعلى الرغم من الوتائر الحالية لاستخراج الذهب الأسود في المملكة،

- حسب الاختصاصيون - تكفي احتياطاتها لمدة مائة عام، إلا أن الحكومة وعلى رأسها الملك تفكر أيضاً في الأفق المستقبلي. وقد وضعت نصب عينيها كهدف إستراتيجي لها من ناحية التقليل التدريجي لاستخراج الوقود السائل، ومن الناحية الأخرى تعجيل عملية استخراج الغاز الطبيعي وتطوير الفروع الصناعية لتكرير البترول والبتروكيماويات. ومنذ اليوم يؤمن الاقتصاد الوطني سد حاجات البلاد الداخلية من منتجات الكيمياء النفطية والمواد الإنشائية ومن أنواع كثيرة من السلع الاستهلاكية. وفضلاً عن هذا فإن المملكة العربية السعودية لديها وتحت تصرفها أرصدة مالية كبرى وقسم كبير منها مستثمر في اقتصاد البلدان الخارجية. وقطاعها المصرفي المتطور بشكل عاصف قد أصبح منذ أمد بعيد جزءاً من المنظومة المالية العالمية.

ونتيجة للإستراتيجية الاقتصادية المتوازنة لدى حكومة المملكة العربية السعودية لم تحس البلاد بأثر الهزات المالية القوية ارتباطاً بهبوط «الضجة البترولية»، وبخاصة أثناء الأزمة في الخليج العربي وبذلك نفسه عرضت احتياطياً غير صغير من المتانة أي القدرة لدى البلاد على التطور بصورة منخفضة في

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

أية ظروف بما فيها حتى غير الموائمة منها ولا الملائمة ودورها المهم في حماية المنطقة الإقليمية والدفاع عنها. زد على ذلك أن الملك فهد قرر إجراء التخفيض إلى حد النصف للأسعار غير العالية أصلاً وحتى بدون ذلك على بعض الخدمات العامة، بيد أنه في حالة ظهور أية مصاعب تعانيها البلاد سيكون رعاياها على الدوام محط عناية العاهل ورعايته.

لقد ولى منذ زمان طويل ذلك الوقت الذي كانت فيه الشركات الأجنبية تمتلك كلياً أو جزئياً ثروات البلاد الوطنية. والآن فإن مواطني المملكة إذ يسهمون بالمشاركة المباشرة في تطوير دولتهم ويزاولون هم أنفسهم توزيع المداخل من عوائد النفط. ولهذا لديهم واحد من أرفع مستويات المعيشة للسكان في العالم. إنهم لا يدفعون الضرائب ويتلقون السلف بدون الفائدة لغرض بناء المساكن ومجانية التعليم والخدمة الطبية. ونظامهم للرعاية الصحية مزود بأخر منجزات الفكر التقني. علماً بأن الرعاية الصحية رفيعة الطبقة شأن التحصيل التعليمي قد أصبحت شاملة لكل السكان من أهالي المدن الكبيرة إلى ساكني المخيمات البدوية الضائعة والتائهة في البادية.

ويحق للسعوديين الفخر بنشاطهم الزراعي. وقبل ثلاثة عقود

من السنين كانت البلاد عاجزة عن أن تكون في حالة إطعام نفسها. وحينئذ قامت الحكومة مدركة أن الازدياد المطرد في استيراد المواد الغذائية بالغ الخطر على الدولة بالإكثار بشكل حاد من النفقات على الزراعة.

وبدأ في مناطق شتى حفر الآبار الإرتوازية وتشبيدها وشراء أجهزة الضخ الغالية واستعمال الأسمدة اللازمة وأكثر التكنولوجيا تقدماً. وبالنتيجة حتى أواسط التسعينيات من القرن الماضي انتقلت المملكة إلى حالة الاكتفاء الذاتي من حيث السلع الغذائية الأساسية. وعلاوة على ذلك أصبحت مصدراً للدواجن والأسماك والفواكه والخضار وحتى القمح (وهذا في الصحراء وعلى قواطع زراعية جبلية واصطناعية ضيقة الاتساع!) تنافس المستورد منها وتضيق عليه لتزيحه من السوق.

وأتذكر أن رئيس الغرفة التجارية - الصناعية في الطائف رافقنا فخوراً أنا وزوجي إيلمان أرسلني في جولة إلى معمل لصناعة الألبان مشيداً لتوه عارضاً وشارحاً العمليات جميعها رغم كونه وفقاً لوضعه الوظيفي ليس ملزماً أن يكون عارفاً بأمثال هذه التفاصيل الصغيرة والدقيقة. ثم صار يلح علينا كما تفعل في العادة الأم الحنون لكي نتذوق من كل المنتجات

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الخارجة من البساط الناقل في المعمل على الرغم من أن أنواع هذه المنتوجات لم تكن لتقل عن العشرين.

ولن أكون مداهنة حينما أقول: إنني أثناء أعوام إقامتي في المملكة بعد أن جربت وتذوقت جميع الأشكال الممكنة للمنتوجات الألبانية من بلدان كثيرة، توصلت إلى الاستنتاج بأن المملكة من أطيبها طعماً. وهذا حق لا مرأى فيه ولا رياء (نظراً لأن العلف المصنع يكاد يكون لا وجود له في المملكة والسكان الريفيون يزرعون في ظل النخيل بالأراضي الخصبة اللوتسيرن «البرسيم» حيث ينمو كثيفاً وطرياً. أما البقرات الشكورات فإن درهن من الحليب يكون على هذه الدرجة من طيب المذاق).

وقد كرّست المملكة رقماً قياسياً عالمياً آخر بتشييدها ٢٩ مصنعاً كبيراً يجري فيها إعذاب الماء (أي تحليته وتحويله إلى عذب وصالح للشرب) ومئات الكيلو مترات من شبكات أنابيب نقل الماء (إسالة الماء) مصفية بذلك العجز الدائم في نقص الماء. وأنشئت طرق ووسائل مواصلات ونقلات عصرية جداً ربطت الصلة بين الأماكن جميعها في البلاد بطرق رئيسة سريعة للسيارات. وشيد الطريق النادر المثال بطول ٢٥ كيلومتراً وذو التصميم الرفيع فوق مياه الخليج العربي الذي امتد ليصل

حتى دولة البحرين (سابقاً وحالياً مملكة البحرين).
والسعوديون إذ أحرزوا نجاحات كبيرة الانطباع في مجالات
الحياة جميعها لم ينطلقوا رغم ذلك على درب تقليد الغرب
بصورة تامة وفي كل شيء، بل اكتفوا بقبول تلك المنجزات
للتمدن الغربي التي لا تتناقض مع القواعد الأخلاقية القائمة
والأسس الخلقية القومية والمنظومة القومية للقيم. وبالدرجة
الأولى فإن أبناء الملك عبدالعزيز الذين حكموا المملكة أبدوا
على الدوام الاحترام المؤكد حيال التقاليد العريقة في الجزيرة
العربية، وكذلك العادات المتبعة وأدوا دور المدافعين الغيورين
عن الإسلام.

وفي العلاقات الدولية تمثل المملكة العربية السعودية أحد
البلدان المتزعمة في العالم الإسلامي التي تأخذ في الحسبان
سياستها لا مصالحها وحدها فحسب، بل ومصالح العالمين
العربي والإسلامي. وفي الوقت عينه تقيم المملكة علاقات
عسكرية - سياسية وتجارية - اقتصادية مع الدول الغربية
وبخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية وتقف ضد مجابهة
الغرب بصورة شاملة. وهي توجه الإدانة الحازمة إلى ظهور
نزعة التطرف وجميع أشكال الإرهاب الدولي. ويمكن عدُّ المملكة

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

واحدة من أكثر العوامل ذات التأثير الكبير على العمليات الآنية في السياسة العالمية والقوة الواقعية الفعلية والفعالة في التأثير على ضمان التوازن والاستقرار في المنطقة الخليجية ومنطقة الشرق الأوسط.

والمملكة العربية السعودية يعدُّ ضمانها لمواطني بلادها واحداً من أرفع مستويات المعيشة في العالم متبعة تكتيك التضامن الإسلامي؛ تتصدى لأية أزمات، وتستجيب لأية دعوات للإنقاذ من النكبات، وتبدي مساعدة سخية إلى الدول المحتاجة إليها. وليس عبثاً أن هذه البلاد توصف بأنها «القلب في جسد الإسلام» ومن حيث سعة النطاق للمساعدة التي تجاوزت خلال الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة سبعين مليار دولار تقدمت المملكة مخلفة وراءها الدول الأخرى على مسافة بعيدة. ويتلقى الدعم الإنساني الجوهري الكبير منها اللاجئين والنازحون المضطرون في أذربيجان في شكل أغذية وأدوية ولوازم مدرسية ولحوم الأضاحي (سنوياً ٥, ٢ إلى ٥ آلاف من الضأن المذبوح). وشيّد بوصفه هدية مخبز كبير واشترت مزرعة لتأمين العمل للاجئين. ولم تفت العناية أيضاً أحوال المشاركين في الحرب القرباخية. في سنة ١٩٩٨م اجتاز مدة المعالجة المجانية في

مستشفيات الرياض المعوقون نتيجة هذه الحرب الضروس. وأجريت لبعضهم عمليات جراحية معقدة.

وكانت المملكة العربية السعودية من أوائل الدول التي اعترفت بالاستقلال الوطني للجمهورية الأذربيجانية وأقامت معها العلاقات الدبلوماسية، ويرتبط التجسيد الفعلي لاستعداد البلدين للتعاون بصورة وثقى باسم رئيس الجمهورية حيدر علييف. إن المرسوم بصدد افتتاح سفارة لبلادنا في المملكة العربية السعودية وزيارة رئيس الجمهورية التي تلت ذلك في شهر تموز (يوليو) من سنة ١٩٩٤م ومباحثاته مع الملك فهد بن عبدالعزيز وعقد الاتفاقية الأذربيجانية - السعودية بين حكومتي البلدين حول التعاون في شتى مجالات الأنشطة؛ أرسى الأساس المتين الوطيد لتطور العلاقات بين كلتا الدولتين.

ويتعاون بلدانا اليوم بنجاح في المجالات السياسية والاقتصادية والإنسانية. وتدعم المملكة العربية السعودية وتؤيد جهود القيادة الأذربيجانية بصدد تسوية النزاع الأرمني - الأذربيجاني. وعلى الرغم من محاولات أرمينيا المتكررة التي تحتل نسبة ٢٠٪ من الأرض الأذربيجانية لم تقدم هذه المملكة على إقامة العلاقات الدبلوماسية مع تلك الدولة، وقد استثمر

المملكة العربية السعودية

بعبون زوجة دبلوماسي

عدد من الشركات السعودية الكبرى رؤوس أموال في تطوير اقتصاد بلادنا، وشكّلت مؤسسات مشتركة. ومنح بنك التنمية الإسلامي قروضاً تسهيلية لإنشاء قنوات تجميعية وجادات خارجية للسيارات وإعادة تصميم محطة لتوليد الكهرباء وإعادة استغلال الأراضي المحرّرة وتصفية عواقب الزلزال الذي ضرب منطقة مدينة باكو العاصمة.

وأبدى الجانب السعودي كذلك المساعدة المادية في إعادة المجموعة الثرية من المخطوطات العربية القديمة المحفوظة في معهد المخطوطات في عاصمتنا (وقد كان أحد مؤسسي هذا الرصيد العالم المعروف المتوفى منذ أمد بعيد، وهو حمّاي، وأكاديمي الجمهورية الأذربيجانية غ. أراسلي). ويتطور على نحو فعال التعاون في مجال الهجرة العمالية (أي هجرة الأيدي العاملة). ويعمل حالياً بنجاح أطباء أذربيجانيون في المؤسسات الطبية في الرياض ومكة والمدينة والجبيل ومدن سعودية أخرى. وتتمنّى قيادات وزارة الصحة العمومية والمستشفيات والمستوصفات عالي التثمين عمل أطبائنا. أما المرضى فليس من النادر أن يفضلوهم على سواهم وينتظمون في طوابير الدور عند أبواب عياداتهم. وتجتاز دفعة جديدة من الاختصاصيين

مدة تسجيل الوثائق للقدوم إلى المملكة بهدف العمل فيها. وليس بوسعي الامتناع عن التذكير مرة أخرى بالعلماء الكيماويين من أذربيجان الذين مارسوا العمل بصورة إبداعية مثمرة في المملكة العربية السعودية واستطاعوا حيازة الاحترام والتقدير من قيادات المؤسسات والدوائر التي اشتغلوا فيها. والعلاقات الأذربيجانية - السعودية تشكل دونما ريب إنجازاً لشعبي كلا البلدين اللذين بينهما الكثير المشترك من الأمور ولديهما آفاق حسنة.

واليوم في أواخر شهر نيسان (أبريل) من سنة ٢٠٠٢م حيث يوشك كتابي هذا على الوصول إلى الانتهاء تكون قد مرت مدة ثمانية أعوام كاملة على تلك المدة حين وطأت أقدامنا لأول مرة أرض المملكة العربية السعودية. ولقد عبرت حقبة طويلة من الزمن في حياتنا المتسارعة وهي حقبة نشيطة وطريفة، وعلى الأرجح لم تكن عقيمة ولا مضيعة. وفي بداية حديثي ذكرت ما لاقيت من مصاعب نفسية وكآبة حسية خلال الأشهر الأولى من إقامتي هنا. بدا لي الوسط المحيط آنذاك والبيئة المكتنفة مما يمكن وصفه بكونه غير مفهوم وغريب وغير شائق وأثارت المضايقة وعدم الارتياح الملابس غير المعتادة. وتولد في نفسي

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

الاعتقاد بأن الحياة الحقيقية قد خلقت هناك في بلدي. وكان ثقيلاً على النفس والحس والجسم بصورة خاصة الحر القائظ. ولم تكن لدي أية رغبة في الخروج من المكان الذي يشتغل فيه جهاز تكييف الهواء. ولكن حدث ذات مرة في الصباح، وكان ذلك على أرجح الظن أواخر شهر أيلول (سبتمبر) عندما خرجت إلى الحديقة شعرت فجأة بهبوب موجة من الطراوة الفوَّاحة بالرائحة الزكية. وأتذكر جيداً أن هذا الإحساس بالفرحة المبالغتة من المفهوم المكتسب بشكل جديد في أن الحياة رائعة وبديعة وحلوة وأنها مملأى بالمغزى والفحوى وأنه في أي جزء من الأرض يوجد ما هو شيق إلى حد عجيب.

وطيلة هذه الأعوام مع بعض الانقطاع دون الاعتماد خصوصاً على ذاكرتي وحدها سجلت في دفتر يومياتي ومذكراتي الحقائق والوقائع والأحداث المهمة والطريفة التي كان لها مكان في حياتنا في المملكة. وأنا مقيمة في مدينة الرياض أثناء رحلات التجوال في أنحاء البلاد سعيت إلى عدم الاقتصار على الرؤية بالعين والمشاهدة بالنظر، وإنما أن أرى بعين البصيرة العالم المكتشف وتذكر الروائح والأحاسيس والانفعالات الناشئة والناجمة عن الاتصال بالحس واللمس مع هذا العالم المحيط

بنا. وأثناء لقاءاتي بأميرات الأسرة والنسوة العاديات حاولت دوماً فهم حياتهن غير الشبيهة بالحياة عندنا وإدراكها. ولهذا كسبت فيهن ومن بينهن صديقات حقيقيات. وكان شيقاً وطريفاً بالنسبة لي كل ما شاهدت وعاشت وشعرت به في هذه البلاد. وبودّي جداً أن آمل أنه قد توفر عندي ما يكفي من القدرات لوصف كل هذا على نحو يكون بالنسبة إلى القارئ كذلك شيقاً وطريفاً ولا يجعل الملل يتسرب إليه وهو يطالع صفحات مؤلفي هذا. وأنتهز المناسبة وأقتنص الفرصة لكي أزجي آيات الشكر والامتنان إلى زوجي الذي أيدّ طوال هذا الوقت سعيمي ودعمه ألا أترك العمل عند منتصف الطريق وأن أنجز هذا الجهد الذي بدأت به وشرعت فيه.

وعند مراجعتي مخطوطة الكتاب من ألفه إلى يائه ومن بدايته إلى نهايته اكتشفت مع بالغ استغرابي أنه مكتوب من منظار له زجاج وردي اللون بشكل سافر . غير أنني لن أغير فيه شيئاً ولا حرفاً؛ وذلك لأن الكثير جداً في هذه البلاد يثير إعجابي ويستدعي الاندهاش الإيجابي في نفسي حقاً وصدقاً وفي واقع الأمر. في البداية عند قدومي إلى العاصمة السعودية تقبلت مدينة الرياض آنذاك كون ذلك واجباً لا بد منه. ولكن

المملكة العربية السعودية

بعيون زوجة دبلوماسي

عندما عرفت أنه هنا حيث تشهق المباني السامقة والعصرية جداً وتندفع نحوها مسرعة مئات الألوف من السيارات. أما أنوار الإعلانات المضيئة فتشعشع في السماء ليلاً محوّلة الليل الحالك إلى نهار وضّاح كانت قبل ٢٥ عاماً لا غير بيداء جرداء كثيرة التلال تعوي فيها الكلاب المشردة المسعورة مائةً بنباحها المبحوح الرحاب الخالية من الناس. فكرت عندها في نفسي: أليس هذا كله معجزة سحرية؟

واليوم أستطيع القول بيقين الواثق: إن ذلك المزاج في عدم تقبّل الحياة المحلية هنا الذي تكوّن في نفسي بادئ ذي بدء في بداية قدومنا، ذهب منذ مدة بعيدة إلى أغوار الماضي وأصبح في خبر كان. وليس عبثاً القول المأثور: «إنه ينبغي أن تعيش طويلاً في المكان لكي تفهم ما هو كائن وما كان». ولقد أحببت هذه البلاد وناسها وطبيعتها الصارمة وتاريخها السحيق والقريب وما هو الأحداث منه والأقرب الذي جرى وتكوّن أمام أنظارنا وكأننا ننظر إلى خشبة المسرح أو شاشة السينما والتلفاز.

